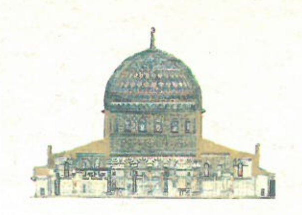


الجامعة الأردنيّة   جامعة اليرموك

بلاد الشام في العهد البيزنطي

الندوة الأولى

٩ - ١٣ محرم ١٤٠٤ هـ / ١٥ - ١٩ تشرين أول ١٩٨٣م

من أعمال

المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام



تحرير

دنان البخيت   محمد عصفور

عمان - ١٩٩١

الطبعة الثانية

شكر وتقدير

تشكر هيئة التحرير السيد محمد يونس العبادي
على ما بذله من جهود في سبيل اخراج هذا المجلد .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

نظراً لأهمية الموضوعات التي تضمنها المجلد الأول (بلاد الشام في العهد البيزنطي)، وإقبال القرّاء والمهتمين بتاريخ بلاد الشام عليه، وحرصهم على اقتنائه، فقد نفدت طبعته الأولى بأسرع مما كنا نتوقع. وقد دفعنا ذلك للمبادرة إلى تقديم طبعة ثانية، آملين أن تتاح الفرصة لمن فاتهم اقتناء هذا المجلد، أن يضموه في (طبعته الثانية) الى مكتباتهم، مضيفين بذلك ما قد يسدّ ثغرة في تاريخ «بلاد الشام في العهد البيزنطي».

ونعم أجر العاملين

محمد عدنان البخيت

عمان في
١٤ رمضان ١٤١١ هـ
٣٠ اذار ١٩٩١ م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمــــة

شرعت الجامعة الأردنية منذ مطلع عام ١٩٨١م بالاعداد لعقد المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام بالتعاون مع جامعة اليرموك، وقد رأت لجنة تاريخ بلاد الشام أن يتناول هذا المؤتمر تاريخ هذه البلاد منذ العهد البيزنطي حتى أواخر العهد الأموي.

وانطلاقاً من الأهمية، وتوخياً للحصول على دراسات تفصيلية تتسم بالعمق والدقة والشمول، فقد رأت لجنة تاريخ بلاد الشام أن يكون عملها على شكل ندوات تعقد في فترات متفاوتة تتناول كل ندوة جانباً محدداً من الموضوع تدرسه وتبحثه بتمحص ودقة، وتؤدي هذه الندوات في نهاية المطاف الى مؤتمر عام للنظر في القضايا الرئيسية، والنتائج الكبيرة التي توصل اليها الباحثون والعلماء.

و يسعدنا أن نقدم للقارىء الكريم المجلد الأول (الطبعة الثانية) الذي ضم أبحاث الندوة الأولى وموضوعها «بلاد الشام في العهد البيزنطي» و يبحث هذا المجلد في ستة مواضيع :

فقد تناول الدكتور لطفي عبد الوهاب يحيى في بحثه (بعض المصادر البيزنطية لتاريخ سورية في العصر البيزنطي) كتابات مدونة قام بها مؤرخان برزا كأهم مؤرخين في العصر البيزنطي، وهما أميانوس ماركلينوس و بروكو بيوس.

وقد ولد أول هذين المؤرخين، وهو اميانوس ماركلينوس في أنطاكية من أسرة يونانية عريقة عام ٣٣٠م، وكتب تاريخاً باللغة اللاتينية يغطي فيه الفترة ما بين ٩٦ و٣٧٨م. و يتكون من ٣١ جزءاً تتضمن تاريخ الامبراطورية البيزنطية بما فيها المنطقة السورية. وترجع أهمية هذا الكتاب الى أن المؤرخ عاصر الأحداث والمواقف التي يؤرخ لها وعايشها وشارك فيها مما جعله بحق شاهداً على عصره، كما أنه كان يمتلك الثقافة التاريخية المتخصصة، والى جانب ذلك كان حريصاً على تحري الحقيقة في كتابته.

ومن أبرز الجوانب التي طرقها أميانوس فيما يتعلق بالمنطقة السورية، التقسيم الاداري، والنظام السياسي والحالة الاقتصادية، والحياة الدينية.

أما المؤرخ الثاني وهو بروكو بيوس فقد كان هو الآخر شاهداً على عصره، فقد ولد في قيصرية بفلسطين في أواخر القرن الخامس الميلادي، و بعد أن كبر صاحب القائد البيزنطي بليزاريوس في حروبه، وهيأت له الظروف أن يصبح في احدى فترات حياته أحد رجال البلاط الامبراطوري، مما أتاح له معرفة دقيقة بأحوال الامبراطورية بما في ذلك سورية.

وقد ألف بروكو بيوس ثلاثة كتب هي :

١. (عن الحروب Hyper Ton Polemon) الذي يغطي القسم الأول منه الحروب الفارسية التي تمت على الساحة الشرقية ومست أحوال المنطقة السورية.

٢. (عن المباني Ktismaton) الذي يصف فيه المنشآت العامة في أرجاء الامبراطورية.

٣. (مذكرات غير معلنة) أو (التاريخ السري) (Anehdota).

وقد ذكر الباحث أهم الموضوعات التي يعالجها كل من هذه الكتب الثلاثة التي تعتبر من أهم المصادر لتاريخ سورية.

وفي بحثه (عناصر حضارية بيزنطية في حفريات البتراء لعام ١٩٨١) قام الدكتور نبيل الخيري بدراسة مقارنة للمواد الخزفية والأسرجة الفخارية التي عثر عليها في حفريات البتراء التي قام بها قسم الآثار في الجامعة الأردنية بالتعاون مع مديرية الآثار العامة في عمان ١٩٨١، بهدف ازالة ما يكتنف معلوماتنا المتعلقة بالعصر البيزنطي في البتراء من نقص وغموض.

وقد توصل الباحث الى أن المسيحية قد انتشرت في أرجاء المملكة النبطية في أواخر القرن الرابع و بداية القرن الخامس الميلاديين، ومما يؤكد ذلك وجود عدد من الكنائس في المواقع النبطية المنتشرة في النقب. ووجود كنيسة وصلبان محفورة على الجدران الداخلية لعدد من الأضرحة النبطية في البتراء، وخاصة في المنطقة المعروفة باسم (مغر النصارى). أما حفريات البتراء لعام ١٩٨١ فقد أسفرت عن اكتشاف قطع أثرية ترجع الى الربعين الثاني والثالث من القرن السادس للميلاد، من بينها حنية كنيسة، وهو أمر يزيد من يقيننا فيما ذهبنا اليه.

وتناول الدكتور نقولا زيادة بلاد الشام في دلالتها الجغرافيا وأبعادها التاريخية فوصف حدود هذه البلاد وتضاريسها الطبيعية ومناخها والأسباب التي أدت الى جعل مدنها كيانات مستقلة لتصبح بلاد الشام بلداً فيه دول كثيرة لا ترضى بالوحدة. وتمهيداً للتحدث عما طرا على الأوضاع الادارية في هذه البلاد عندما أصبحت جزءاً من الدولة العربية استعرض الباحث في بحثه (التطور الاداري لبلاد الشام بين بيزنطة والعرب) ما مر عليها منذ أن فتحها الاسكندر في الثلث الأخير من القرن الرابع قبل الميلاد، الى أيام السيد المسيح، لما لهذه الفترة من أثر كبير في تطور الأوضاع في أواخر العصر البيزنطي، وكمدخل للحديث في هذا الموضوع وضع الباحث أمام القارىء لائحة بأهم المدن التي عرفتها بلاد الشام قبل وصول الاسكندر، ثم ذكر المدن التي أنشأها بعد وصوله ليزيل الحواجز بين المشارقة واليونان، وليتخذ منها مراكز لنشر الحضارة الهلينية، وتحدث بعد ذلك عن المدن التي أنشأها خلفاء الاسكندر وأهم الأسباب التي دفعتهم الى انشاء هذه المدن التي أصبحت مع مرور الزمن كثيرة الخلافات فيما بينها، وهو أمر أدى في النهاية الى تمزق بلاد الشام الى ولايات صغيرة متصارعة ومدن متناحرة مما مكن الرومان من احتلالها.

وقد حاول الرومان وضع حد للفوضى التي انتشرت في بلاد الشام غير أنهم لم يفلحوا

في تبديل الفسيفساء الادارية لهذه البلاد، بل أن الادارة البيزنطية كانت عندما بدأ العرب فتوح بلاد الشام في خلافة أبي بكر على وشك أن تنهار.

وتابع الباحث التطور الاداري لبلاد الشام منذ معركة اليرموك الفاصلة بين العرب والروم فذكر التنظيم الاداري الذي بدأه الخليفتان أبو بكر وعمر لهذه البلاد، وما تلا ذلك من تطورات على هذا التنظيم.

وتأكيد التواصل الحضاري في منطقة بلاد الشام دفع الدكتور جورج عطية الى القيام ببحث عنوانه (الأثر السرياني في الحياة الفكرية والعلمية في بلاد الشام) وصف فيه دور السريان في الحياة الفكرية والعلمية في الفترة التي سبقت ظهور الاسلام، وذلك من خلال حديثه عن المدارس الفكرية والمفكرين في الفترة التي سبقت ظهور الاسلام، حيث تحدث عن المدارس الفكرية والمفكرين السريان الذين كان لهم شأن كبير فيها، وهي المدرسة الرواقية التي أسسها زينون ونشرها بوزيدونيوس الأفامي، والمدرسة الأفلاطونية المحدثة التي أسسها أفلوطين وزرع بذورها نومينيوس ونشرها فورفوريوس وهما من بلاد الشام، ومدرسة قيصرية فلسطين التي اشتهرت بنيميسيوس الحمصي، ومدرسة حران التي أدخلت اتجاهات فكرية استمد منها المعتزلة واخوان الصفا والكندي. ومدرسة أنطاكية التي تخرج فيها رجال عظام في تاريخ الفكر والأدب والتاريخ والعلوم الدينية والعلوم الطبية وغيرها، ومدرسة دير قنسرين التي نشأ فيها عدة رجال عظام اهتموا بالفلسفة والطب والفلك.

وقد أكد الباحث في ختام بحثه أن أكبر حافز لازدهار الحضارة نتج عن التفاعل الحضاري بعد الفتح العربي لبلدان مختلفة، واتصال العرب بشعوب وأفكار عديدة ومتنوعة، وأن الترجمة عن السريانية كانت المعين الرئيسي الذي أمدهم بالمعارف عن الحضارات التي سبقتهم.

واستعرض الدكتور توفيق فهد علاقات العرب المنتشرين بين صحراء سيناء وجبال لبنان بالامبراطورية الرومانية في بحث عنوانه «ماو ية وضجعم أو العرب والرومان في أواخر القرن الرابع» وذلك من خلال حديثه عن ماو ية ملكة العرب التي تغلبت على الجيوش الرومانية في الحروب التي شنتها بين فلسطين وتخوم الجزيرة العربية، وعن ضجعم الذي عاصر ماو ية، وكان يتزعم الضجاعمة الذين أخذوا على عاتقهم حفظ الحدود بين الرومان والفرس.

وقد استنتج الباحث من استقرائه للنصوص الواردة في المصادر التاريخية أن العلاقات العربية الرومانية، ترجع الى منتصف القرن الأول قبل الميلاد، حيث كان رؤساء القبائل العربية يتمتعون بالسلطة على الأقطار الحدودية بين الامبراطورية الرومانية والفارسية. وأن هذه العلاقات كانت قليلة في البداية ثم تكاثرت حتى أسفرت عن انشاء مملكة تدمر القو ية التي أصبحت حصناً منيعاً بوجه الفرس وحلفائهم العرب من اللخميين. غير أن تدمر سقطت سنة ٢٧٢م ولم يبق للروم من يعتمدون عليه من العرب في حفظ الحدود مع الفرس... وظل الأمر كذلك حتى نشط الغساسنة في القيام بهذا الدور، وذلك بعد قرنين من الزمان.

وفي الفترة الواقعة بين سنتي ٢٢٧م و ٥٣٠م برزت شخصية ماو ية، وهي أرملة ملك من الأعراب تعاهد مع الرومان، كما برزت شخصية ضجعم.

وقد بين الباحث الأسباب التي دفعت ماو ية الى نقض العهد مع الرومان بعد وفاة زوجها، كما أبرز الدور الكبير الذي لعبته في أحداث عصرها. وتحدث عن ضجعم وسلالته الذين حكموا ما يقارب المائة عام قبل أن ينتصر عليهم الغساسنة.

وفي بحثه (أضواء على الصناعة والتجارة في مدن بلاد الشام ودورها في التجارة العالمية في العهد البيزنطي) تحدث الدكتور نعيم فرح عن الخطوط التجارية التي امتدت من سواحل البحر الأبيض المتوسط الى الهند والصين عبر آسيا، موضحاً أن السبب الرئيسي الذي يكمن وراء الحروب التي خاضها الاسكندر المكدوني ومن ثم روما و بيزنطة هو السيطرة على هذه الخطوط. ومن خلال عرضه لعدد من المصادر المهمة لتاريخ المنطقة وجغرافيتها أبرز الباحث الازدهار الصناعي والتجاري لمدن بلاد الشام كما أبرز نشاط التجارة البيزنطية الخارجية منذ نشوء بيزنطة حتى ظهور الاسلام.

واختتم بحثه بالحديث عن صناعة الحرير وتجارته موضحاً كيف أن احتكار الدولة البيزنطية لصناعة هذه المادة وتجارتها الحق أضراراً بالغة بصناع الحرير وتجاره في بلاد الشام مما أثار استياء السكان، ودفعهم الى الترحيب باخوانهم العرب المسلمين الذين فتحوا البلاد وحرروها من الاستعمار البيزنطي.

لجنة التحرير والنشر

محمد عدنان البخيت **محمد عصفور**

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة جلالة الملك الحسين المعظم

في افتتاح الندوة الاولى من المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام

ايها الاخوة الكرام ..

يسعدني ان ارحب بكم .. وان احييكم اطيب تحية ، وان ابارك الهدف الجليل الذي حوله تلتقون . وعودا على بدء الى توصيات المؤتمر الدولي الاول لتاريخ بلاد الشام .. حيث الغايات التي تعاهدتم على تحقيقها ، والتزمتم بالسعي الى بلوغها .. لا تزال تستوجب المزيد من البحث ومواصلة الدرس ودأب العلماء ، وبلاد الشام وهي بلادنا ، وكما ارادها الله قدرا ومكانة كانت ابدا اعظم منابع حضارتنا تأكيدا للهوية العربية ، واوفاها اقتدارا على مواجهة التحديات ، وابرزها دورا فاعلا في حفظ كيان الامة .. وخلود رسالتها ، وضمان حقها ، وصون كرامتها ومصيرها ومستقبل اجيالها .

واذا كانت موجات الغزاة المعتدين قبل ظهور الاسلام وبعده قد اندحرت وخلفت بصماتها واثارها فوق اديم بلاد الشام ، فانها جميعا قد انصهرت في بوتقة الحضارة العربية الاسلامية ، وقد تجلى ذلك فيما ال اليه العهد البيزنطي وانحسار ظله امام المد العربي . وان هذه لظاهرة عميقة المعاني والدلالات وجديرة منكم باستقصاء جذورها ومظاهرها واستيعاب دروسها . وانه لشأن كبير الدلالة والمضمون ان تكون بلاد الشام من مطلع العهد البيزنطي الى اواخر العهد الاموي موضوع هذه الندوة . اذ كانت تلك المرحلة بتحولاتها ونتائجها الاساس المكين للوجود العربي على هذه الارض قبل الاف السنين وحتى هذه الساعة والى يوم الدين .. لان الوجود العربي قد انتمى هنا الى مواريث الرسالات والنبوات وتبوأ وحدة الارض العربية ووحدة السكان .. وتأسس على اصفى وابقى ما في حضارة الانسان من قيم العدل والخير والسلام .

وانني بكل الثقة والايمان والاعتزاز لاهنىء هذه الصفوة المختارة من الباحثين والعلماء.. الذين يوحد بينهم نشدان الحق.. وخدمة الحقيقة، وينير لهم طرائق البحث، سداد النهج وعفة المقصد، وروح الاخلاص للعلم التي لا تشوبها شائبة من هوى او تعصب .

وانه لشرف عظيم ان يكون حظ الاردن ودوره في مسيرة تاريخ بلاد الشام بارزا واساسيا .. سواء فيما يمثله هذا البلد من منطقة جغرافية وسكانية .. او فيما يغني كيانه وحياته باستمرار من سمو في رسالته ووفاء ثابت لامته وامجادها .

ومن هنا ايها الاخوة الكرام يتضاعف كل يوم دور جامعاتنا .. وضرورة انفتاحها على افاق المعرفة وتواصلها مع سائر الجامعات ومراكز البحوث والدراسات وتكامل روافدها ومنابعها . وبنفس القدر امنا باوثق التعاون بين جامعاتنا الاردنية وجامعة دمشق كطرف مشارك في تجلية هذا الحدث العلمي الكبير .. وحشد المجاهيد الفكرية لانجاحه وانجازه . كما ستظل الدعوة المخلصة منا موجهة الى جميع العلماء المهتمين بتاريخ هذه المنطقة للمشاركة مع زملائهم من ابناء البلاد العربية في استقراء التاريخ العربي واعادة صياغته بروح علمية امينة .. ونظرة موضوعية منصفة ، وابراز ما حفلت به طبيعة بلاد الشام على مدى التاريخ من بعد عن التعصب والاقليمية .. وتألقها الدائم منارا للهدى وملتقى سمحا للتواصل والحوار .

ولقد آن لجامعاتنا ومؤسساتنا العلمية والتربوية على امتداد الوطن العربي .. ان تتصدى لمسؤولياتها العلمية والقيادية وان تكون على قدر ما تضعه الامة فيها من ثقة وامال وما تتطلع الى تحقيقه من غايات واهداف كبار .

ايها الاخوة الكرام ..

اسأل الله القدير لكم التوفيق في مهمتكم والنجاح في اعمالكم .. وان تكون هذه الندوة خطوة مباركة رائدة على طريق التقدم وتحقيق الهدف المرتجى .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة الأستاذ الدكتور عبد السلام المجالي

في افتتاح الندوة الثانية من المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام

سيدي صاحب الجلالة الحسين العظيم

كما ينتظر الواعد لقاء مرتقبا

تطل علينا اليوم يا مولاي شعاع أمل — في رحاب جامعة حملت اسم الاردن الذي تلازم معك مبنى ومعنى — لتصل لنا حاضرا بماضٍ بعيد ونطلّ باسمك على مستقبل واعد .

ولنذكر معك عقدا مضى حفظنا منه معك أشياء كثيرة كان منها بدء مناسبة عقد ندوات المؤتمر الدولي الأول لتاريخ بلاد الشام في عام ١٩٧٤ .

لتكرر المناسبة والتاريخ — ولنستأذنكم يا مولاي بالترحيب بهذه الصفوة من علماء الانسانيات الذين يسجلون لتاريخ البشرية وينقبون بين صخور الماضي اثارا مكتوبة أو محفورة لاستجلاء صورة العلائق بين بني البشر — فصفحة التاريخ الانساني الكبير — صفحة التأمل والتفكر لتحديد ما يمكن أن يكون مفيدا في حاضر أو مستقبل .

سيدي راعي مسيرة الجامعة والعلم

على صفحة الأردن وبالقرب من (نهره الخالد) — وعلى أرض الشام الممتدة عبر التاريخ — مرّت حضارات — وتلاحقت قيم — وتركت لنا هذه الحضارات — فكرا وأثرا وسجلا — لا يزال بعضه شاهدا على ذلك — ان بلادنا كانت تحت حكم بيزنطة — ونقرأ في كتاب الله العزيز التعاطف الذي كان بين الروم والمسلمين وكيف تمنوا نصرهم على الفرس آنذاك **بسم الله الرحمن الرحيم « الم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين . لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله » . صدق الله العظيم .**

كما نسجل بكل الفخر والاعتزاز كيف دانت هذه البلاد لرسالة الاسلام رسالة جدكم المصطفى (ﷺ) وعلى هدى من الحضارة التي خط بدايتها فتلاحقت على هذه الأرض افكار وحضارات اعطينا وأخذنا ولم نكن في أخذنا وعطائنا الا مثالا للوسطية والمنهجية والاعتدال وتسامح القوى ، ونسجل كذلك كيف كانت العهدة العمرية لأهل القدس كما تقفز بنا الذكريات الى قبر جدّكم هناك لنصل تاريخا بتاريخ وحاضرا بماض .

مولاي أب الجامعة والحاني عليها

أرجو أن تأذنوا لي يا مولاي بأن أذكر ان الجامعات الأردنية على وشك اصدار بحوث المؤتمرات السابقة في عدد من المجلدات رغبة في تعميم الفائدة وحتى تنعكس أثارها على مناهجنا التربوية في هذا البلد وبقية الأقطار العربية .

ويسر الجامعة الأردنية ان تنهي الى علم جلالتكم انها قطعت شوطا بعيدا في مسح وتصوير الوثائق والقيود والسجلات الشرعية العائدة للأوقاف في مختلف بلاد الشام وأصبحت متوافرة لديها للافادة منها في البحث .

أغتنم هذه المناسبة لأرفع الى جلالتكم نيابة عن أسرة الجامعات الأردنية الثلاث وباسمي أصدق آيات الولاء والعرفان ، ولأقدّم بعد استئذانكم للذين جهدوا في المتابعة من لجنة (تاريخ بلاد الشام) وعلى رأسهم وبتوجيه من جلالتكم صاحب السمو الملكي الأمير حسن ولي عهدكم ومن حضرّوا لهذه الندوة شكرا على جهد بذلوه .

راجيا أن تظل جامعاتكم عند حسن ظن مولاي والله أسأل ان يحفظكم ويكلأكم بعين رعايته .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

« بسم الله الرحمن الرحيم »

كلمة الاستاذ الدكتور محمد عدنان البخيت
مقرر لجنة متابعة المؤتمرات والندوات في افتتاح
الندوة الاولى من المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام

سيدي صاحب الجلالة الحسين بن طلال المعظم

صاحب السمو الملكي الامير الحسن بن طلال ولي العهد المعظم رئيس المؤتمر

ايتها السيدات والسادة

بالفرح والسرور تستقبلكم الجامعة الاردنية هذا الصباح الخير في رحابها بمناسبة انعقاد الندوة الاولى من ندوات المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام ، والتي تتناول هذه المرة بلاد الشام في العهد البيزنطي . ومما يزيد في بهجتنا ان هذه الندوة تجيء ثمرة خيرة للتعاون ما بين الجامعات الاردنية من جهة ، وما بينهما وبين هذه النخبة الطيبة من العلماء الافاضل والمؤرخين العدول من جهة ثانية هؤلاء الذين خفوا الى بيت العروبة ودار الاسلام الى عمان ، يحدوهم الشوق اليها ويحفزهم حب الحقيقة للافادة من هذه الاجواء العلمية التي يوفرها الاردن وليشاركوا على اسس متكافئة مع رصفائهم الاردنيين في تبيان الحقيقة والدفاع عنها ، بعد ان تعرضت لكل حملات التشويه والطمس ، واصبح امراً طبيعاً انه كلما ادلهمت الخطوب ، واكفهرت عتمة الظروف اشرأبت الاعناق نحو ضياء الاردن ، لتسترشد بحكمة الحسين ـــ وكما كان الاردن درباً وممراً لحملة الرسالة الاسلامية الى العالم ، وركنا حصنياً من اركان الثورة العربية الكبرى ، فانه سيكون في العام القادم ، خير مرحبٌ بندوة متخصصة تتابع اعمال هذه الندوة ، وموضوعها « **الفتح الاسلامي لبلاد الشام** » وما اصدق قوله تعالى ، « **نصر من الله وفتح قريب** » صدق الله العظيم .

بعض المصادر البيزنطية لتاريخ سورية في العصر البيزنطي

لطفي عبد الوهاب يحيى

(١)

في بداية الحديث عن المصادر البيزنطية لتاريخ سورية في العصر البيزنطي أود أن أورد ثلاث ملاحظات على سبيل تحديد الدائرة التي التزمت بها في هذا البحث. وأول ما أود أن أشير اليه في هذا الصدد هو الامتداد السكاني الذي ينسحب عليه البحث الحالي. وقد جعلت هذا الامتداد يشمل منطقة سورية الطبيعية التي تمتد من جبال طوروس في أقصى الشمال الى الحدود الشرقية لشبه جزيرة سيناء في أقصى الجنوب، أما الحدود الشرقية فقد جعلتها تمتد على طول الخط الذي كان يفصل بين سورية ووادى الرافدين في العصر البيزنطي ، وهو خط كان يسمح باحتواء بعض الأراضي الواقعة الى شرقي القسم الشمالي لنهر الفرات ، وهو خط لم يتأرجح الا في حدود ضيقة عبر المراحل التاريخية المختلفة. والسبب الذي دفعني الى هذا التحديد هو تعدد التقسيمات الادارية التي تعرضت لها المنطقة بين العصر الروماني والعصر البيزنطي ، وما صاحب هذه التقسيمات من تسميات وإعادة تسميات وصلت في بعض الأحيان الى ان تصبح دمشق ـ العاصمة التقليدية والطبيعية لسورية ـ مجرد مدينة من مدن الولاية الفينيقية في العصر البيزنطي .

والملاحظة الثانية تخص الامتداد الزمني الذي اتخذت مصادري من داخله . وهنا أود أن اقول ان تحديد العصر البيزنطي في سورية

بين ٣٣٠م و٦٤٠م أمر لا خلاف عليـه من النـاحية الرسمية(١) ٠ ومـع ذلك فقد أحاطت ببداية هـذا العصر بعضـ الاعتبارات التنظيرية التي تتصل بمقوماته الحضارية ، وهي اعتبارات قد تغري الباحث أن يغض النظر عـن الناحية الرسمية فيقدم هـذه البداية أو يؤخرها بعض الشيء (٢)٠ ورغم وجاهة هذه الاعتبارات وقوتها في بعض الأحيان ، فـانها لم تستقر فيما بينها حتى الآن ، ومن ثـم فقد التزمت بالبداية الرسمية التي لا خـلاف عليها ٠

أمـا الملاحظة الثالثة فهي تتصل بنوعية المصـادر البيزنطية لسورية في العصر البيزنطي٠ وفي هذا الصدد أبادر فاقول ان المصادر التي أقدمها في هذا البحث تدخل ضمن المصادر المدونة كشق يقابل شق المخلفات الأثرية للعصر البيزنطي التي بـدأ الاعتماد عليها يحظى باهتمام متزايد في العقود الأخيرة من القرن الحالي ٠ وبين ما تضمه هذه المصادر المدونة توجـد كتابات المؤرخين والمفكرين ومقررات المجـالس أو المجامـع الكنسية وسير القديسين وأوراق البردي ، بما تحويه هذه من مراسيم حكومية وقوانين وأحكام قضائية وعقود تتصل بالمعاملات التجارية وغيرها من جوانب الحياة اليومية ٠ وفي حدود الجانب الأول من هذه المصادر المدونة ، وهو الكتابات الكلاسيكية التي دونهـا باليونانية واللاتينية المؤرخون والمفكرون الذين تعرضوا للكتابة عن سورية في العصر البيزنطي أقدم في هذا البحث كتابات قـام بهـا مؤرخان : أولهما أميانوس مـاركلينوس Ammianus Marcellinus ، وثانيهما بروكوبيوس Prokopios ، برزا كأهم مؤرخين في العصر البيزنطي(٣) ٠ وهنا يجدر بنا أن نتذكر أن هذين المؤرخين يؤرخان أساسا للامبراطورية البيزنطية لكل أقسامها وولاياتها من خـلال الأباطرة الذين أرخا

لعهودهم ، ومن ثم فان حديثهما عن سورية جاء بالضرورة متناثرا ، ويصبح تجميع الحقائق المتعلقة به في سياق واحد مهمة ملقاة على عاتق الباحث الحديث ٠

وتبقى في نهاية هذه الملاحظات مسألة أود أن أذكر بها ، وهي أن ما أقدمه في هذا البحث لا يستهدف التأريخ لسورية مـن خلال المصادر ، وان كنت قد تعرضت بالضرورة ، وفي مواضع قليلة ، لبعض الأحداث والمواقف من قبيل الاستشهاد أو التوضيح ٠ وانما يدور حديثي ، في أساسه ، حول التعريف بهذه المصادر من حيث الظروف التي أحاطت بالمؤرخين المذكورين ومن ثـم أثرت على نوعية كتابتهما ، ثم المنهج الذي اتبعه كل منهما في عرضه للاحداث والمواقف التي تناولها ـ وذلك حتى يتمكن الباحث المعاصر من استخدام المادة التاريخية التي تحتوي عليها هذه المصادر ،وتقويمها والانتفاع بها في حدود الكتابة التاريخية العلمية السليمة ٠

(٢)

وأول هذين المؤرخين ، وهو أميانوس ماركلينوس ، من أبناء المنطقة السورية ، ولد في أنطاكية من أسـرة يونانية عريقة في ٣٣٠ م ، وهو نفس العام الـذي تؤرخ به بدايـة الامبراطورية البيزنطية ، وعاش حتى ما بعد ٣٩٠ م ، وفي الشطر الأخير مـن حياته كتب تاريخا يغطى فيه الفترة ما بين ٩٦ و٣٧٨ م وهو العام الذي انتهى عنده عهد الامبراطور فالنس Valens ٠ وقد حـرر أميانوس تاريخه هذا باللغة اللاتينية تحت عنوان Res Gestae وهو اصطلاح معناه « الامور التي تم انجازها » ويستخدم مرادفا للفظة اللاتينية المنقولة عـن اليونانية Historia التـي تعنـي

« البحث » أو « التاريخ » ٠ والكتاب يتكون من ٣١ جزءاً أو باباً(٤) ٠ فقدت منها الأجزاء الأربعة عشر الأولى وتبقى لنا منها ١٧ جزءاً يؤرخ فيها أميانوس للامبراطورية البيزنطية بما فيها المنطقة السورية بالضرورة على مدى ٢٥ عاما بين ٣٥٣ في أواسط عهد كونستانتيوس الثاني وعام ٣٧٨ م الذي سبقت الاشارة اليه ٠

وقد توافر لأميانوس ماركلينوس قدر من العوامل او العناصر ، سواء منها الذي يتصل بظروفه العامة أو الذي يتصل بثقافته وحياته الشخصيه مكن له من أن يتخذ مكانه في الصف الأول بين المؤرخين الكلاسيكيين ٠ وأول هذه العوامل هو أنه عاصر وعايش وشارك في الأحداث والمواقف التي امتدت عبر الفترة التي تغطيها الأجزاء المتبقية من كتابه، فقد تمرس بالحياة السياسية والعسكرية وكان على مقربة من مراكز صنع القرار منذ فترة مبكرة من حياته، وفي هذا الصدد نعرف أنه اختير وهو بعد في سن الشباب المبكر ضمن الحرس الخاص للامبراطور Protectores Domestiei وهو مجموعة منتقاة من الحرس الامبراطوري ٠ وفي عام ٣٥٣ ، وكان لا يزال في الثالثة والعشرين من عمره ، التحق بأمر من الامبراطور، بهيئة القيادة التي كان يرأسها أورزيكينوس Ursicinus القائد الأعلى لجيوش المشرق Orien وهو القطاع الشرقي للامبراطورية (٥) ٠ وكانت انطاكية Antiochia هي عاصمته ومدينته الاولى ٠ وقد ظل أميانوس يعمل مع أورزيكينوس سبع سنوات كاملة احتك خلالها بشكل مباشر بجوانب متباينة من الحياة العامة ٠ فقد رافق أميانوس قائده الأعلى الى انطاكية حيث عهد الى أورزيكينوس في ٣٥٤ م بالاشراف على المحاكمات الخاصة بقضايا الخيانة العظمى، كما اشترك معه في العمليات المسعكرية التي وكلت اليه ، وكان

اشتراكه بأكثر من صفة ، سواء كمحارب أو كمفاوض أو كقائم بتنفيذ مهام سرية تتصل بهذه العمليات ٠ بل لقد شارك أورزيكينوس في الاستجواب الذي تعرض له هذا القائد في ٣٥٤ م نتيجة لدسائس الحاشية في القصر الامبراطوري ٠ وحتى بعد عزل أورزيكينوس في ٣٦٠ م نجد أميانوس يشترك سنة ٣٦٣ م في حملة الامبراطور يوليانوس Julianus ضد القوات الفارسية ، وان كنا لانعرف على وجه التحديد الصفة التي اشترك بها في هذه الحملة(٦) ٠

ولم يكن هذا هو الظرف الوحيد الذي جعل من أميانوس بحق شاهدا على عصره ومشاركاً فيه ، وانما تهيأ له ، الى جانب ذلك ، ظرف آخر أدى الى معرفته العميقة الواعية بالاحوال في سورية ٠ فقد ولد في انطاكية ، كما قلنا ، وفيها شب وقضى فترات أثناء عمله بالحياة العامة وبها عاش بعد اعتزاله الحياة العامة حوالي عشر سنوات منذ ٣٦٣ م وحتى رحيله الى رومة ليستقر بها قبيل ٣٨٣ م ٠ كانت أنطاكية ، كما أسلفت ، هي المدينة الرئيسية في المنطقة السورية بأكملها ، وفيها كانت توجد الادارة المركزية لولاية سورية ولكل الولايات الاخرى التي تضمها منطقة سورية الطبيعية(٧) ٠ واليها كان يذهب الامبراطور للزيارة(٨) ٠ أو للاشراف المباشر على بعض الامور أو للاستعداد للحملات الشرقية ضد الامبراطورية الفارسية ـ ومن ثم فقد كانت تنتهي اليها خيوط الأمور العامة بجوانبها المختلفة من أرجاء المنطقة السورية بأكملها ٠ هذا الى جانب أن المدينة كانت ذات تكوين عرقي وثقافي متعدد الجوانب ، فقد كان سكانها ينحدرون من أصول ثلاثة : سورية ويونانية ويهودية : بما يعنيه هذا من مواقف واتجاهات ازاء القضايا التي كانت تطرح بصفة دائمة على الساحة السورية ـ

وهو أمر كان يعطي هذه القضايا أكثر من بعد ،ومن ثم يقترب بها من التجسيد ٠

واذا كان هذا العامل بشقيه : من حيث ظروف التمرس بالحياة العملية وظروف البيئة قد هيأ لأميانوس فرصة الاحتكاك المباشر بالأحداث والمعرفة الواعية بالمواقف في سورية ، فان عاملا آخر قد عمق من استيعابه لهذه الأحداث والمواقف ورسخ قدرته على التأريخ لها ــ هذا العامل هو الثقافة العامة العريضة من جهة والثقافة التاريخية من جهة أخرى ، وهما جانبان من الثقافة اللازمة للمؤرخ حرص عليهما أميانوس حرصا ملحوظا ٠ ونحن نعرف عن ذلك من قراءاته التي يستشهد بها في كثير من المواضع في كتابته أو تلك التي يشير اليها عرضا في أثناء حديثه : ومن بين هذه القراءات ذات الصفة الثقافية العامة أشعار الشاعر اليوناني الملحمي هوميروس وكتابات المفكر والفيلسوف اليوناني أفلاطون ، وكتابات الخطيب والكاتب السياسي ورجل السياسة الروماني شيشرون(٩) ٠ أما ثقافته التاريخية المتخصصة فقد شملت كتابات عدد من مؤرخي الصف الأول ، من بينهم ثوكيديديس Thukydides المؤرخ اليوناني الذي تميز بالتحليل السياسي والاقتصادي والاجتماعي والنفسي ، وتيتوس ليفيوس Tittus Livius المؤرخ الروماني وأعظم مؤرخي الحوليات بين الكتاب الكلاسيكيين ، وسالكوست ، الذي طور الكتابة التاريخية عند الرومان خطوات على طريق المنهج العلمي ، وتاكيتوس Tacitus آخر المؤرخين الرومان العظام الذي امتاز بالمقابلة بين الروايات التاريخيه المختلفة والاختيار فيما بينها بعد المقارنة والتحقيق ٠

واذا كان عامل الثقافة ، سواء العامة منها أو المتخصصة ، قد هيا لأميانوس المقدرة العلمية على التأريخ وعلى أن يكون له منهج تحليلي جمع فيه بين عناصر التحليل والمقابلة وعدم الاقتصار على البعد السياسي وانما السعي وراء ابراز الأبعاد الأخرى الاقتصادية والاجتماعية والنفسية والمتصلة بالعقائد الدينية ، فقد دعم من هذه المقدرة العلمية عامل آخر هو حرصه الصارم على تحري الحقيقة في كتابته عن طريق التحقيق والتدقيق ، ثم الاتزان في حكمه على المواقف بعد استعراض أوجهها المختلفة دون الانفعال السريع بجانب أو بآخر ٠ وقد ساعده على ذلك ظرفان : أولهما أن الفترة التي عاصرها كانت فترة جمعت بين الجانب المشرق والجانب الداكن في مسار الامبراطورية ، فالى جانب عدد من الانتصارات العسكرية شهدت كذلك قدرا من اختلاط الامور والمؤامرات ومحاولات الانقلاب وعددا من الهزائم كان آخرها ، في حياة اميانوس ماركلينوس ، هزيمة الامبراطور فالنس Valens أمام القوط في أدريانوبوليه Adrianopolis عام ٣٧٨ م حيث لقي الامبراطور مصرعه ٠ أما الظرف الآخر فهو أن أميانوس عاصر ، منذ أن شب عن طوقه وأصبح واعيا لما يدور حوله في الحياة العامة، عهود أربعة أباطرة(١٠) كان لكل منهم منهجه في الحكم وشخصيته التي ينفرد بها ــ وهي أمور يحرص أميانوس على ابرازها من عهد الى عهد في كتابته، وهذان الظرفان كانا كفيلين بأن يبتعدا بالمؤرخ عن الاندفاع في الحكم على الأشياء ، وبخاصة اذا عرفنا أن أميانوس لم يعكف على تحضير مادة كتابه وترتيبها إلا بعد أن اعتزل الحياة العامة ، ولم يبدأ في كتابته ونشره الا في خلال العقد الأخير من حياته ــ أي بعد أن توافرت له فرصة الحكم على الامور عن بعد وبقدر كاف من الروية ٠

وفي الواقع فان أميانوس ذاته يحرص على أن يذكرنا في أكثر من مناسبة ، وهو بصدد التعليق على الأحداث ، بمنهجه العلمي هذا في البحث عن الحقائق والتزام الامانة العلمية وهو بسبيل تأريخه للعصر • فنجده يقول في احدى المناسبات « وفي محاولتي للبحث عن الحقيقة قدر استطاعتي فاني أضع الأحداث في ترتيبها الزمني الواضح ، ثم أروى ما تمكنت من مشاهدته أو معايشته ، أو ما تمكنت من أن أعرفه عن طريق السؤال الدقيق المفصل من أولئك المسؤولين عنه بشكل مباشر »(١١) • وفي مناسبة أخرى يقول « ان الرجل الذي لا يذكر كل ما حدث ليس أقل خداعا من ذلك الذي يخترع الأحداث التي لم تقع بالمرة »(١٢) • ثم نجده في مناسبة ثالثة يقول ، وهو يصدر الحديث عن المحاكمات التي تمت في عهد الامبراطور فالنس • وكانت قد أحاطت بهذه المحاكمات بعض المواقف المتداخلة والاعمال الغامضة » أن الامور اختلطت كما يحدث عادة في أوقات الظلام ، وحيث اني ، بسبب ذلك ، لا أستطيع أن أتذكر بالكامل كل ما حدث ، فسأكتفي بأن أقدم تقريرا موجزا لما أستطيع أن أذكره »(١٣) • كما يعلق في موضع آخر في كتابه على مناسبة كان الامبراطور يوليانوس قد نسب فيها الى أهل انطاكية ، وهو في لحظة غضب ، عددا من الأخطاء ، فيقول في وصفه لحديث الامبراطور « ان من بين ما تضمنه ما يجاوز حدود الحقيقة »(١٤) •

على أن حرص أميانوس على السعي وراء الحقيقة بكل تفاصيلها حتى ولو أدى هذا الى الاطالة ، وهو أمر يفخر به أمام قرائه ونقاده دون مواربة(١٥) ، قد جرفه في بعض الأحيان الى الاستطراد الذي قد يفيد القاريء من حيث المعلومات العامة ولكنه لا يخدم

مع ذلك مسار الأحداث أو شرح المواقف في كثير أو قليل • وعلى سبيل المثال ففي بداية الحديث عن اشتباك بين القوات الفارسية والحامية الرومانية حول مدينة باتناي Batnae في القسم الشمالي الشرقي من المنطقة السورية عام ٣٥٤م يذكر أميانوس أن القوات الفارسية تعرضت لعددمن الغارات من قبيلة مجاورة• ولكنه بعدأن ينتهي من الحديث عن اللقاء العسكري الفارسي البيزنطي يفرد فصلا للحديث عن قبائل « سكان الخيام » Saraceni وهم قبائل الأعراب الضاربة على تخوم المناطق الحضرية ، فيتحدث عن طباعهم وعاداتهم وطرق زواجهم وطبيعة أرضهم وترحالهم من منطقة لأخرى وهكذا ، ثم يعود في نهاية الحديث ليستأنف ما كان بسبيل سرده أو شرحه فيقول،ولكن لنعد الآن الى موضوعنا Nunc ad Textum Propositum Revertamuru (١٦) والشيء ذاته يكرره أميانوس في مناسبة أخرى عم فيها الذعر سورية وكل مناطق القسم الشرقي من الامبراطورية على أثر كسوف للشمس عام ٣٦٠ م وهنا سرعان ما يستطرد أميانوس الى عرض كل ما كان يعرفه سواء عن طريق الدراسة أو السؤال ، عن ظاهرة كسوف الشمس واسبابها ثم عن ظاهرة خسوف القمر ، ثم مراحل نموه وهكذا ، مخصصا فصلا كاملا لهذا الحديث قبل أن يعود الى ما كان قد بدأه من قبل(١٧) •

كذلك ينبغي ان يكون قاريء أميانوس ماركلينوس على قدر من الحرص فيما قد يستنتجه أو يتبادر الى ذهنه للوهلة الاولى من بعض الأوصاف التي يعطيها المؤرخ وهو بسبيل الحديث عن بعض جوانب الحياة في سورية، فهو حين يتحدث عن عدد من المدن السورية واصفا اياها بانها وصلت الى قمة الازدهار Florentissimae (١٨) لا يعني أكثر من الاطار الذي كان يتحدث بداخله في هذا الموضع، وهو توفر

السلع في هذه المدن دون أن يعني هذا بالضرورة ليونـة الحياة والرخـاء بالنسبة لكل طبقات السكان ، عـلى نحو ما سنرى في مناسبة قادمة(١٩) ٠

(٣)

ورغم أن حديث أميانوس عن سورية ليس حديثا متصلا بحكم طبيعة الموضوع الذي يؤرخ للامبراطورية بأكملها، الا أننا نستطيع أن نشير الى عدد من الجوانب التي طرقها أميانوس فيمـا يتعلق بالمنطقة السورية ، وأحد هذه الجوانب هو التقسيم الاداري للمنطقة(٢٠) ، والذي يعرفنا المؤرخ أنه كان يشمل خمس ولايات هي : يوفراتنسيس Euphratensis أو « منطقة الفرات » وسورية وفينيقيه وفلسطين والعربية Arabia التي كانت تتاخم ولايـة فلسطين من الشرق وتتطابق في قسم منها مع المملكة الاردنية في الوقت الحاضر ٠ ولايتوقف المؤرخ عند التقسيم الاداري الجاف او عند الوصف الجغرافي لكل ولايـة بما تشمله مـن تضاريس وأنهار وآبار وعيـون وأنواع متتـالية من التربة ، ولكنه يشفع وصفه هذا بقدر من المعلومات التي تجسد هذا التقسيم بأكثـر من وسيلة من وسائل التأصيل والاستقصاء ٠ فهو يذكر القاريء بأن ولاية يوفراتنسيس كانت تسمى قبل عصره باسم كوماجيني Commagene ، كما يذكر لنا أن عددا كبيرا مـن مـدن المنطقة السورية أصبحت لها أسماء يونانية منذ عهـد سلوقس نيـكاتور Seleukes Nikator الذي آل اليه ملك المنطقة على أثـر تقسيم امبراطورية الاسكندر الاكبر في أعقاب وفاته ، ولكنه يذكرنـا بأن الأسماء القديمة لهذه المدن لم تندثر رغم ذلك ٠ كذلك يورد أميانوس بعض المعلـومات الهـامة عن هذه المـدن مثـل النشاط

التجاري سواء فيما يخص السلع الداخلية أو المستوردة من الخارج والذي تتميز به أنطاكية Laodikia واللاذقية وأبـامية Apomia وسلوقية Seleuxia ٠ كذلك نعرف ان دمشق وحمص Emissa كانتا تقعان ، في عصر الكاتب ، ضمن ولاية فينيقية ، شأنهما في ذلك شأن مدن صيدا Sidon وصور Tyre وبيروت Berytus ٠ وحين يتحدث عن فلسطين يشير الى زراعتها التي تحظى بقدر وافر من العناية ، والى عظمة مدنها التي لا تقل أية واحدة منهـا عن الاخريات ، ثم يعطي معلومات سريعة ولكنها مفيدة عن هذه المدن، فغزة وعسقلان Askalon همـا أقدمهـا ، وايوثروبوليس (مدينـة الحـرية) Eleutheropolis ونابلس (المدينة الجديدة) Neapolis أحدث من الأولين، وقيصريه Caesarea بناها هيرودس Herodes على شرف الامبراطور أوكتافيانوس Octavianus، أما القدس Hirosolyma فقد ضمها القائد الروماني بومبيوس Pompeius ، الى هذه المدن ليجعل منها ولاية واحدة نصب عليها حاكما ٠ ويمضي الكاتب ليذكر لنا أن المنطقة ، رغم خلوها من الأنهار ، الا أن بها عددا من العيون التي تفيض بالمياه الدافئة وهي مياه يستخدمها السكان في أغراض العلاج الطبي ٠ وحين يأتي أميانوس الى ذكر القسم الاخـير من المنطقة السورية وهو ولايـة « العربية » يشير بوجه خاص الى مدنهـا الـرئيسية : بصـرى Bostra وجرش Gerasa وعمـان Philadelphia والى حصونها القوية المرتفعة التي أقامها سكانها ليصدوا بها غـارات القبائل المجاورة ، والى وفرة السـلع التي تنتجها هذه المدن ، ثم الى ضم المنطقة الى الامبراطورية الرومانية في عهـد الامبراطور ترايانوس في اثنـاء حربـه مـع الميديـين والفرثيين ٠

ويشكل الحديث عن النظام السياسي الذي كان سائداً في المنطقة السورية جانبا آخر من الجوانب التي طرقها أميانوس • ولا يفرد الكاتب هنا فصلا أو حتى بضع فقرات يصف فيها هذا النظام بشكل مباشر ـ وهذا في حد ذاته امر مفهوم اذ أن أميانوس كان يعيش في قلب النظام ويكتب لمعاصريه الذين كانوا على علم به • ولكنا مع ذلك نعرف من سياق الحديث قدرا من تفاصيل هذا النظام • فالامبراطور يمثله في انطاكية واحد من أفراد البيت الامبراطوري يحمل لقب قيصر Caesar (٢١) • كذلك كان يقيم بأنطاكية مندوب من قبل الامبراطور لشؤون المشرق Comes Orientis (٢٢) وحاكم لسورية Consularis Syriae (٢٣) ومجلس للشيوخ أو الاعيان Ordo (٢٤) يشترك بشكل تشريعي في تسيير الأمور في سورية •

ولا يكتفي أميانوس بذكر هذه الوظائف ، وانما يظهر لنا ما كان يدور حولها وبين شاغليها من الناحية العملية المعلنة أو التي كانت تدور خلف مسرح الاحداث • فرغم أن القيصر كان يمثل الامبراطور في أنطاكية ، الا ان عين الامبراطور كانت دائما على تصرفاته ، وكان الامبراطور يحاول تحديد صلاحياته بطرق غير مباشرة كلما وجد منه جنوحا في استخدام هذه الصلاحيات (٢٥) • كذلك نجد مندوب الامبراطور لشؤون المشرق يقف بحزم عند اللزوم في وجه القيصر اذا جانبت أوامره مجرى العدل بشكل صارخ (٢٦) • كذلك يبين لنا أميانوس بعض الجوانب التي يظهر فيها جشع الولاة وجريهم وراء الثروات على حساب اهتمامهم بأمور الشعب وأمور الحدود مع الامبراطورية الفارسية (٢٧) • وهي حدود كانت تشكل نقطة استنزاف مستمر لقوة الامبراطورية البيزنطية •

والطريقة ذاتها يتبعها المؤرخ ليدخلنا في تفاصيل العلاقة الفعلية بين القيصر أو حتى الامبراطور من جهة وبين مجلس الشيوخ من جهة أخرى فنجد أن المسألة لم تكن حقوقا تشريعية خالصة لهذا المجلس ، كما لم تكن أوامر من جانب تقابلها طاعة من الجانب الآخر ، وانما كانت تدور المناقشات جادة حامية الوطيس بين الطرفين في بعض الاحيان • وقد وصل احتدام النقاش في احدى المناسبات عام ٣٥٤م لدرجة خرج فيها القيصر جالوس عن طوره فأصدر أمراً باعدام جميع أعضاء المجلس ، وان كان هذا الامر لم يتم تنفيذه نتيجة لتدخل مندوب الامبراطور لشؤون المشرق (٢٨) • كما يروي لنا أميانوس نقاشا آخر في ٣٦٣م ولكن هذه المرة كان الامبراطور يوليانوس هو الطرف المقابل لمجلس الشيوخ ، ولم يصدر أمرا باعدام أعضاء هذا المجلس ، وانما دبج في أهل أنطاكية جميعا مقالا أسماه « الانطاكي » Antiochensis ندد فيه بأخلاقهم ورماهم بعدد مبالغ فيه من الصفات الرديئة (٢٩) •

وفي الواقع فان أميانوس يذهب في تاريخه كافة المذاهب ليجعلنا نلمس واقع العلاقة ليس بين المسؤولين الاداريين أو بين الجهاز الاداري والجهاز التشريعي فحسب ، بل سيحاول أن يورد كل ما يعرفه من تفاصيل ليلقي الضوء على العلاقة بين الحكام والشعب في جانب أو آخر من جوانب هذه العلاقة • يدلنا على ذلك ما ذكره المؤرخ بعد أن روى حادث اللقاء العاصف بين يوليانوس ومجلس الشيوخ ـ وهنا يروي لنا أن أهالي أنطاكية كانوا يتناولون شخصية الامبراطور بالغمز في كثير من الاحيان ، فيصفونه بأنه شبيه بالقردة وأنه قزم وأن له لحية تشبه لحية العنز ، وكان الامبراطور يضطر أحيانا أن يتجاهل هذه الغمزات ، لكنه حين يغادر

أنطاكية أخيرأ يعين حاكماً على سورية يتسم بالقسوة وسرعة الغضب ويذكر لأهل المنطقة أن الحاكم الجديد ليس أهلا لهذا المنصب « ولكن أهل أنطاكية الجشعين المتمردين لا يستحقون خيرا منه » • وحين يشيعه أهل المدينة داعين له بالنجاح والعودة منتصرا ، وأن يكون أكثر هدوءاً وتعاوناً معهم نجده يرد عليهم في خشونة – وكان لا يزال متأثرا باهاناتهم – انهم « لن يروه بعد ذلك(٣٠) •

وبنفس الطريقة التي يتجاوز بها أميانوس السرد العادي للأمور ليجوس بالقارىء بين ما يجري في خلفية المسرح التاريخي، يبين لنا المؤرخ التوجس المستمر من جانب الحاكم ازاء المؤامرات التي كان يخشاها من أهل أنطاكية أو من غيرهم • وقد كانت فترات التوجس هذه تنتهي عادة بالمحاكمات ، التي يروي لنا أميانوس أمثلة منها مرة في عهد كونستانتيوس الثاني عام ٣٥٣م(٣١) ومرة أخرى في ٣٧١م في عهد ڤالنس(٣٢) • ان أميانوس لا يكتفي بوصف هذه المحاكمات مهما كانت تفاصيلها وانما يطلعنا كذلك على الجو النفسي الذي أحاط بهذه المحاكمات وهو يحدثنا عن طرق التجسس التي كان يلجأ اليها القيصر في هذه الظروف ، فيذكر لنا في احدى هذه المناسبات أن القيصر « كان يوظف لجمع الأحاديث المتناثرة رجالا من سوقة الشعب ممن لا يثيرون شكا أو تخوفا لدى أحد ، ثم يقدم هؤلاء ما سمعوه • وكان هؤلاء الرجال يتنكرون عادة في هيئة مسافرين حتى يتمكنوا من الاختلاط بأعيان المدينة في اجتماعاتهم ومن الدخول الى بيوت الاثرياء على أنهم عملاء ذوي حاجات ، ثم يدخل (هؤلاء الجواسيس) بعد ذلك خفية من باب خلفي للقصر ليرووا ما سمعوه أو عرفوه •• بل انه (في بعض

الاحيان) كان رب البيت يهمس بشيء الى زوجته وهو بداخل منزله ، وفي غير حضور أحد من الخدم ، فاذا بالامبراطور يعرف عن ذلك في اليوم التالي•••وهكذا أصبح الناس يخشون الجدران، وهي الاشياء الوحيدة التي كانت تشاركهم اسرارهم »(٣٣) •

ومن الجوانب التي كانت تستدعي انتباه أميانوس الجانب الاقتصادي الذي كان يستعرض أبعاده ويبدي تعليقاته عليه في أكثر من مناسبة • وقد سبق ان أشرت الى وصف المؤرخ لانطاكية وعدد آخر من المدن السورية بالازدهار التجاري الذي كان يتمثل في توفر السلع المحلية والمستوردة ولكنه مع ذلك يتحدث عن مناسبتين احداهما في ٣٥٣م والاخرى بعد عقد واحد من الزمان في ٣٦٣م تفشت فيه الحاجة والمعاناة بين أهالي انطاكية ، وفي احدى هاتين المناسبتين شكا العامة صراحة من شبح المجاعة فعلا(٣٤)• وقد حاول القيصر جالوس في المناسبة الاولى كما حاول الامبراطور يوليانوس في المرة الثانية أن يحل الأزمة بتخفيض الأسعار ، ويعلق أميانوس على هذا الاجراء بقوله « ان تخفيض الاسعار في غير الظروف المناسبة لذلك قد يؤتي نتائج ضارة ، كما يقول في المناسبة الاخرى ان الطريقة السليمة لرفع المعاناة هي أن يستورد الحاكم المنتجات الناقصة من منطقة أخرى حتى يغطي احتياجات السوق المحلية(٣٥) وقد يبدو في حديث أميانوس عن الوضع الاقتصادي بعض التناقض بين وصفه للازدهار التجاري للمدن ووصفه من جهة أخرى لاحوال المعاناة التي كان يمر بها العامة • ورأيي أن القارىء يجب أن يحترس في قراءة أميانوس في بعض الاحيان فلا يحمّل ألفاظه أكثر من معانيها المباشرة ، فالازدهار التجاري في نظر المؤرخ لا يعني أكثر من توفر السلع وهو يشير الى هذا المعنى بألفاظ صريحة ومحددة ، كما نستشف من كلامه أن

قسما ملحوظا من هذه السلع هو من الكماليات بحكم استيراده من الخارج الذي يعني بالنسبة للكاتب بلاد الهند والصين • أما مقدرة العامة على تغطية ضرورات حياتهم اليومية فمسألة يبدو أن الكاتب يفصل بينها وبين الازدهار التجاري وهو حكم ليس من الصعب أن نفهمه وانما أردت مع ذلك أن أشير اليه ليدخله الباحث في اعتباره وهو يقرأ كتاب أميانوس في التاريخ •

وأخيرا ، وليس آخرا ، يتطرق أميانوس الى الحياة الدينية في سورية في عدد من جوانبها وهنا نستنتج من حديث أميانوس أنه ، بغض النظر عن السياسة الدينية المعلنة من جانب الادارة المركزية للامبراطورية في القسطنطينية ، سواء أكانت اعتناق المسيحية كدين رسمي للامبراطورية مع التسامح مع العبادات الوثنية ، أو كان التمسك بالمسيحية على المذهب الارثوذكسي هو اتجاه هذه السياسة ، أو كان الرجوع الى الوثنية كما حدث في عهد يوليانوس، فان انتشار المسيحية والوثنية بين أفراد الشعب في سورية يبدو أنه كان على قدم المساواة • ونحن نستطيع أن نتوصل الى هذا الافتراض من عدد من الشواهد • فحين يذهب الامبراطور يوليانوس في زيارة الى انطاكية في ٣٦٢م ويدخل المدينة يصادف ذلك الاحتفال بعيد أدونيس ، وهذه العقيدة كانت هي العقيدة الوثنية الاساسية في سورية وكان الاحتفال بهذا العيد يتضمن قدرا من الحزن على أساس أن هذا الاله قتله خنزير بري — وهنا يصف أميانوس هذا الجو الحزين فيذكر أن « الولولة » وصرخات الحزن كانت تأتي من كل جوانب المدينة »(٣٦) وهو وصف يشير صراحة الى انتشار هذه العقيدة الوثنية في المدينة الرئيسية بسورية ، ومع ذلك فعلى الجانب الآخر يروي لنا أميانوس حادثة أخرى هي أنه

عندما شب الحريق الكبير في دافني Daphne احدى ضواحي انطاكية، في عام ٣٦٣م والتهم معبد الآله أبوللو ، غضب الامبراطور الذي اعتقد ان المسيحيين هم الذين أحرقوا المعبد بسبب ما أثاره الاعتناء الفائق بمعبد أبوللو من غيرة وحقد لديهم ، وكانت نتيجة غضبه أن أغلق أكبر الكنيستين الموجودتين في أنطاكية(٣٧)• ومن هذا الحديث نستطيع أن نستنتج أن المسيحية انتشرت بين قسم كبير من سكان المدينة التي كانت أعظم المدن السورية في ذلك الوقت ، فأن تكون هناك كنيستان احداهما يصل حجمها وتصل أهميتها الى أن يجعل الامبراطور من اغلاقها تجسيدا لعقابه للمسيحيين أمر يدل على مدى انتشار هذه العقيدة ، كذلك فان انتشار الخبر الذي يقول ان المسيحيين هم الذين أحرقوا المعبد — بغض النظر عن صحته أو عدم صحته كما يميل أميانوس الى الاعتقاد بشيء من التحفظ — معناه أن الجالية المسيحية كانت من القوة والظهور بحيث تنسب اليها الشائعات — صدقاً أو كذباً — هذا الحريق •

أما الجانب الآخر الذي أود أن أشير اليه من خلال معالجة أميانوس للحياة الدينية في سورية فهو موقف الادارة الحكومية من المسيحية في عهد يوليانوس • وهنا يشير لنا الكاتب من خلال بعض ما رواه من أحداث الى أن هذا الموقف لم يكن يسير دائما في اتجاه واحد ، ولكنه كان غير مجحف في عمومه • ذلك أن يوليانوس انسجاما مع ارتداده بالدين الرسمي للدولة الى الوثنية ، « منع معلمي الخطابة والأدب من ممارسة مهنتهم اذا كانوا من اتباع الدين المسيحي » ، ولكننا نجد الكاتب يذكر في موضع آخر ان يوليانوس حين كان ينظر في بعض القضايا في انطاكية عندما كان

يقضي فصل الشتاء بها في ٣٦٣م كان يسأل في بعض الاحيان عن ديانة واحد أو الآخر من بين المتقاضين « ومع ذلك فان التزام الامبراطور بالطريق السوية للعدل لا يمكن أن تترك مجالا للقول بأن أحدا قد أدين بسبب عقيدته الدينية »(٣٨) ٠

(٤)

واذا كان أميانوس ماركلينوس قد تحدث الينا في تفصيله وتحليله عن تاريخ المنطقة السورية خلال ربع قرن حافل بالاحداث انتهى بنهاية الفترة الاولى من مسار الامبراطورية البيزنطية ، وهي الفترة التي حكمت فيها أسرة قسطنطين ، فان المؤرخ الكبير الثاني الذي أرخ لسورية من خلال تاريخه لفترة أخرى من حياة الامبرآطورية ، وهو بروكوبيوس Prokopios ، قد جاء من المنطقة ذاتها وغطى تاريخه عصر يوستنيانوس (جستنيان) Justinianus فيما عدا السنوات الخمس الاخيرة ، أي على مدى ثلاث وعشرين سنة بين عامي ٥٢٧ و ٥٦٠ ، كانت حافلة هي الاخرى سواء بالحروب الخارجية أو بالاعمال الداخلية ، وقد ظهرت المنطقة السورية من خلال هذه الحروب والاعمال متأثرة ايجابا في بعض الأحيان وسلبا في أحيان أخرى ٠

وكما كان الحال مع أميانوس ماركلينوس فان الظروف التي أحاطت ببروكوبيوس قد أسهمت الى جانب شخصيته ، في أن يكون هو الآخر شاهدا على عصره ، واعيا له ومشاركا فيه ٠ فقد ولد بروكوبيوس في قيصرية بفلسطين في أواخر القرن الخامس الميلادي وذهب في سن مبكرة الى القسطنطينية حيث عين مستشارا قانونيا وأمينا خاصا للقائد بليزاريوس Belisarius (٣٩) الذي قدر له أن

يخوض كل حروب الامبراطورية البيزنطية في عهد يوستنيانوس ٠ وقد صاحب بليزاريوس فعلا في كل هذه الحروب سواء على الساحة الافريقية أو الساحة الايطالية أو الساحة الفارسية ، ومن خلال هذه الحروب الاخيرة مرت المنطقة السورية بفترة نشطة وساخنة من تاريخها في مجال الدفع والجذب بين الامبراطورية البيزنطية والامبراطورية الفارسية في أكثر من جانب ٠ كذلك أصبح بروكوبيوس ، في احدى فترات حياته أحد رجال البلاط الامبراطوري ، ومن هذا الموقع تيسر له أن يكون على معرفة وثيقة بعدد من أصحاب الحل والعقد من بين كبار المسؤولين في الادارة الامبراطورية(٤٠) بما فيها المنطقة السورية ٠

واذا كان تمرس بروكوبيوس بالاعمال العامة سواء في ساحة القتال أو في المجال السياسي والاداري قد هيأ له المعرفة الدقيقة بأحوال الامبراطورية واذا كانت نشأته في المنطقة السورية ووجوده مع بليزاريوس على الساحة الشرقية التي كانت سورية ميدانا ساخنا لها في أغلب الأحوال قد هيأت له معرفة داخلية بأحوال هذه المنطقة من مناطق الامبراطورية ، فان دراسته القانونية التي انغمس فيها في فترة شبابه(٤١) قد تركت بصماتها عليه في سعيه نحو التحقيق والتدقيق في أغلب الكتابات التي أقدم عليها ، أو على وجه التحديد في كتابه الذي نشره تحت عنوان « عن الحروب » Hyperton Polemon والذي يغطي القسم الاول منه الحروب الفارسية في جزأين من أجزائه الثمانية ، وهي الحروب التي تمت على الساحة الشرقية ومست أحوال المنطقة السورية في الصميم سواء في الناحية العسكرية أو في الجوانب الأخرى من أمورها العامة السياسية وغيرها رغم الصفة الحربية الخاصة التي توحي بها تسمية الكتاب للوهلة الاولى ٠

وفي الواقع فان بروكوبيوس نفسه يبدو حريصا في هذا العمل بالذات على ابراز فكرة معاصرته لما يكتبه وفكرة توخيه الحقيقة في تسجيله ، فهو يقول في هذا الصدد بعد السطور الأولى من الجزء الاول « ٠٠٠ وان الكاتب (يقصد نفسه) متأكد من أنه مؤهل بوجه خاص لكتابة تاريخ هذه الأحداث ، فقد قدر له حين عين مستشارا للقائد بليزاريوس أن يكون شاهد عيان على كل الاحداث التي وصفها فعلا ٠ كذلك فانه على قناعة تامة بأنه اذا كان الذكاء مناسبا لفن الخطابة ، واذا كان الخيال المبدع مطلوبا في نظم الشعر، فان الحقيقة وحدها هي اللازمة لكتابة التاريخ وتطبيقا لهذا المبدأ فانه (مرة أخرى يقصد نفسه) لم يخف أي اخفاق في الانجاز حتى فيما يخص أقرب الذين عرفهم الى نفسه ، ولكنه سجل بدقة تامة كل ما قاموا به سواء وفقوا في ذلك أم جانبهم التوفيق »(٤٢)٠

وأود هنا أن أقف لحظة عند هذا التأكيد على الالتزام بالحقيقة، فقد قدم بروكوبيوس ، الى جانب كتابه « عن الحروب » عملين آخرين ثار حولهما بعض النقاش وأول هذين العملين هو كتابه « عن المباني » Peri Ktismaton الذي يصف فيه المنشآت العامة في أرجاء الامبراطورية في عصر يوستنيانوس ٠ وفي هذا العمل يلاحظ الباحثون المعاصرون أن الكاتب ابتعد فيه عن منهجه الذي اتبعه في كتابه « عن الحروب » من حيث أنه حاول اطراء الامبراطور بشكل ظاهر فنسب اليه القيام بكل المنشآت ٠٠ العامة التي تمت في عهده وليس الى من قاموا بها فعلا سواء أكانوا ولاةً أو مهندسين أو اداريين أو غيرهم ٠ أما العمل الثاني فقد ظهر بعد موت يوستنيانوس تحت عنوان « مذكرات غير معلنة » Anekadota ، وهو الكتاب الذي اصطلح الباحثون المعاصرون على تسميته باسم

« التاريخ السري » وفيه يتناول الكاتب تاريخ يوستنيانوس وزوجته الامبراطورة ثيودوره Theodora وعددا ممن أحاط بهما من الحاشية والمقربين بشيء كثير من القدح في شخصياتهم بلغ في أحيان كثيرة الى حد الشراسة التي تعري مساوئهم الخلقية في صراحة غير معهودة ، تبدو ، على الاقل ظاهريا على قدر كبير من المبالغة ، كما تنضح بقدر غير قليل من المرارة ٠

والمقارنة تثير دون شك قدراً من الحيرة ، ان لم يكن من الحيرة الفعلية ، فالكتاب الاول «عن الحروب» يبدو فيه التأصيل والاتزان والتحليل الموضوعي بشكل واضح للأحداث والمواقف والشخصيات سواء أكان الحديث يتعلق بالامبراطور أو بغيره ممن ورد ذكرهم في الكتاب ، ومن ثم فلا يوجد أدنى سبب للشك في مطابقته لما أعلنه بروكوبيوس من التزامه بالحقيقة الكاملة في كتابته ٠ أما كتابه الثاني عن المباني فرغم ما أثاره من مناقشات حول السبب الذي جعل الكاتب يحاول فيه أن يتقرب بشكل ظاهر ومبالغ فيه من الامبراطور ، وذلك عن طريق نسبة كل المنشآت اليه بصفته الشخصية ، بل والاشارة أحيانا الى ان العناية الالهية هي التي كانت تقوده وتهديه الى اقامة هذه المنشآت(٤٣) الا أن الذي يهمنا في الكتاب هو الحديث عن المنشآت ذاتها ، بما في ذلك تلك التي نفذت في المنطقة السورية ، لا يتأثر بهذا التقرب سواء أكان سببه التزلف الى الامبراطور أو غير ذلك ، فهو حديث تقريري يصف هذه المنشآت وأماكنها وشيئاً من تاريخها اذا كانت تجديداً أو اصلاحا لمبان قديمة أو مناسبتها اذا كانت مباني جديدة ، أما الكتاب الثالث عن « التاريخ السري » فقد اختلف المعلقون عليه بين مؤيد لما جاء فيه أو لقسم منه على الاقل ، ومتشكك في نسبته الى

بروكوبيوس أساسا وبين مبرر لما جاء به على أنه رد فعل عنيف من جانب الكاتب ازاء الحياة الجوفاء التي كانت تسود البلاط البيزنطي(٤٤) ، وهو أمر لا نستبعده ، على الاقل لدرجة معينة، في ظل ما نعرفه عن المؤامرات العديدة التي يشير اليها أكثر من مؤرخ بيزنطي بما في ذلك أميانوس ماركلينوس ذاته الذي عرضت لكتابه في القسم الاول من هذا البحث(٤٥) ورأيي ، فيما يخص « التاريخ السري » هو أنه ان لم يكن يشكل في كل الاحوال حقائق تاريخية، فهو يشكل الشائعات وحديث القيل والقال التي كانت تحيط بحياة القصر في عصر يوستنيانوس ، ومن هذه الناحية فهو يؤرخ للعقلية البيزنطية وما كانت تنحو اليه من تفسيرات وتأويلات ، وهذا في حد ذاته حقيقة من نوع خاص ومن ثم فهو بعد ثالث من أبعاد فهم الجو العام الذي لا يتعارض بالضرورة مع البعدين السابقين ولا ينبغي أن يلقى الشك عليهما ـ ولكنه مع ذلك ليس البعد الذي نريده أو نعتمد عليه كمصدر للتاريخ الواقعي لسورية وعلى هذا فسيقتصر حديثي في هذا البحث على العملين الاولين لبروكوبيوس، وهما : « عن الحرب » في جزأيه الاول والثاني و «عن المباني » ٠

(٥)

والكتاب الاول ، كما يدل عليه عنوانه ، يدور حول الحروب التي خاضتها الامبراطورية في عهد يوستينانوس على نحو ما أسلفت ، والجزءان اللذان يخصان موضوعنا يتخذان محوراً لهما الصراع مع الامبراطورية الفارسية وهو صراع كانت سورية في قلبه دائما ٠ والجزءان لا يقتصران على الناحية العسكرية فحسب وانما يتناول الكاتب فيهما موضوعات أخرى سياسية واقتصادية واجتماعية وان كانت مناسبة الحديث عنها تتصل

بالحرب أو الاعداد لها بشكل مباشر أو غير مباشر ٠ ومن أهم الموضوعات التي طرقها الكاتب في هذين الجزأين : الحديث عن أنطاكية وما تعرضت له بسبب هذه الحروب ، والحديث عن دولة الغساسنة في عهد الحارث بن جبلة ٠ والموضوع الاول الذي يتخذ محورا له مدينة انطاكية يتحدث عنه بروكوبيوس باستفاضة ظاهرة ـ وهو أمر غير مستغرب ، فأنطاكية كانت ، كما يروي لنا هذا المؤرخ ، مرة على لسانه ومرة على لسان غيره ، أكبر مدن المشرق البيزنطي وأعظمها وأغناها وأكثرها تعداداً للسكان(٤٦) ٠ وهو يفصل لنا في الحديث عن موقعها والمسافة بينها وبين المدن القريبة منها وحتى عن الهزة الارضية التي تعرضت لها في السنة السابقة لاعتلاء يوستنيانوس عرش الامبراطورية ، ثم يكرس أغلب حديثه عنها للهجوم الذي تعرضت له من جانب خسرو ، الامبراطور الفارسي، فيبين لنا كيف استعان المنذر بن ماء السماء Alamound Aras في التعرف على نقاط الضعف التي تمكنه من اجتياحها وكيف تمت مهاجمة أسوارها من قبل القوات الفارسية ثم سقوطها في أيديهم ، ثم تدميرها ـ فيما عدا كنيستها التي تركها الفرس بعد ان استولوا على ما فيها من كنوز ٠ ويسهب بروكوبيوس في وصفه لما أصاب المدينة بعد ذلك من حريق على اثر اضرام الفرس للنار فيها ، ومن تقتيل لقسم من سكانها ومحاولة لبيع قسم آخر في أسواق الرقيق ثم عدوله عن ذلك بعد أن تلقى رسالة من يوستنيانوس حول اتفاقية سلام بينه وبين الامبراطور الفارسي(٤٧) ٠

على ان بروكوبيوس لا يكتفي في هذا العرض بذكر الحقائق بشكل سردي جاف ، وانما يتعرض في أثناء حديثه الى مواقف وآراء تلقى شيئاً من الضوء على طبيعة سكان المدينة بشكل متوازن

فهو يروي لنا في احدى المناسبات حديثا دار بين المنذر (ملك الحيرة) والامبراطور الفارسي ، يصف فيه المنذر هؤلاء السكان بانهم « لا يهتمون بشيء سوى أعيادهم وحياتهم المترفة ومنافساتهم الدائمة في المسارح »(٤٨) ومن ثم فالمدينة « تفتقر الى الحراسة والى المقاتلين »• ولكنه في مناسبة أخرى ، يروي لنا أنه بعد أن انسحب الجنود الرومان من المدينة واقتحمها الجنود الفرس « اشتبك عدد من شبان المدينة في معركة مع هؤلاء (الجنود الفرس) وبدا في بداية الامر ، أنهم قد أحرزوا اليد العليا في المعركة ، وقد كان بعضهم مسلحا بالسلاح الثقيل ،ولكن أغلبهم لم يكن مسلحا وانما كانوا يستخدمون المقاليع والاحجار ــ وهكذا دفعوا جنود العدو الذين تراجعوا أمامهم »(٤٩) •

أما الموضوع الثاني الذي تناوله الكاتب بقدر من التفصيل ، وهو موضوع الحارث Arthas بن جبلة Gabalas أمير بني غسان فيروي لنا بروكوبيوس في مواضع متناثرة قصة علاقته بالبيزنطيين • فنعرف أن الامبراطور يوستنيانوس قد عقد معه تحالفا وأضفى عليه لقب الملك Basileus وأنه اشترك بجنوده العرب مع القوات الرومانية بقيادة بليزاريوس ضد القوات الفارسية ، كما يروي لنا مسار هذه العلاقة بين الحارث والبيزنطيين بعد ذلك ، وكيف نشب الصراع بينه وبين المنذر ملك الحيرة الذي كان متحالفا مع الفرس ، ثم كيف تطور هذا الصراع ليصبح صراعاً بين الغساسنة والمناذرة الى جانب صفته الاخرى كصراع بين حليفين لكل من القوتين الكبيرتين : البيزنطيين والفرس • ويغطي الكاتب مناسبات عديدة في هذا الصراع دون أن يغفل الحديث عن شخصية كل من الملكين العربيين ، أو عن بعض المواقف الشخصية

المأساوية التي تمت بينهما مثل ذلك الموقف الذي اختطف فيه المنذر ابن الحارثة وضحى به قربانا للالهة أفروديتي Aphrodute ــ وهي التسمية التي أعطاها الكاتب للمعبودة العزى العربية سيرا على العادة اليونانية الرومانية في مقابلة أسماء الآلهة التي يعبدها الآخرون بأسماء آلهة من عندهم(٥٠) •

وتبقى في نهاية الحديث عن هذا المصدر الذي تركه لنا بروكوبيوس ملحوظتان : الاولى هي أن الكاتب لا يسير في كتابه في تتابع زمني مستمر مع الاحداث • ولكنه ــ يبدأ الحديث عن موضوع ويسير معه الى نهايته ، ثم يتحدث عن موضوع آخر مبتدئا من بدايته الزمنية الخاصة به وواصلا به الى نهايته الزمنية كذلك • وهكذا يجدر بنا عند قراءة هذا المصدر أن ندخل في حسابنا هذا الاعتبار تجنبا لأي اختلاط في الترتيب الزمني للاحداث وهو أمر يزيد من ضرورة التنبه له أن الكاتب لا يكتب عن سورية وحدها ولكنه يتحدث عن موضوعات متعددة على ساحة الامبراطورية البيزنطية بأكملها ، أما الملحوظة الاخرى فهي أن بروكوبيوس يتحدث في بعض الاحيان عن ظواهر غيبية على أنها نذر أو علامات الهية تشير الى المستقبل ، وهو يورد حديثه في هذه المواضيع بما يدل على ايمانه بها بصورة لا تدع مجالا للشك ، مثل حديثه عن « العلامة التي أظهرها الله لسكان المدينة (يعني أنطاكية) والتي أشار بها الى الاتجاه الذي ستتخذه الامور » ثم يتحدث بعد ذلك عن أن رايات المواقع العسكرية كانت متجهة نحو الغرب ثم اذا بها تدور دون أن يمسها أحد لكي تتجه نحو الشرق ثم تعود وحدها لتتجه نحو الغرب مرة أخرى ــ وهو أمر أخذه بروكوبيوس على أن السيادة على انطاكية ستؤول الى الشرق (أي الامبراطورية

الفارسية) بعد أن كانت في يد الغرب (أي الامبراطورية البيزنطية)(٥١) ٠

ومع ذلك فان الكاتب يتأرجح بين هذا الايمان العميق من ناحية وبين التحقيق العلمي الذي لا بد أن يجد لكل شيء سببا فيقول في هذه المناسبة : « ان الدوار يصيبني وأنا أكتب عن هذه الكارثة العظيمة وأوصلها الى (قراء) الازمان القادمة ، واني عاجز حقيقة عن أن أفهم السبب الذي من أجله ترفع ارادة الله من شأن رجل أو مكان ، ثم تهوي بهم وتحطمهم لغير سبب ظاهر لنا ٠ فانه من الخطأ أن نقول ان الأمور عند الله لا تتم دائما بغير سبب »(٥٢) ٠

* * *

وأنتقل الآن الى الحديث عن العمل الثاني من أعمال بروكوبيوس وهو كتابه « عن المباني » والكتاب يتبع الاسلوب التقريري فيعدد لنا المباني التي تم تشييدها أو كانت موجودة من قبل وتم اصلاحها في عهد يوستنيانوس : وهي تشمل مجموعة متكاملة من الحصون والأسوار والصهاريج والأديرة والكنائس والآبار ومجاري المياه المسقوفة والعدد الهائل من هذه المباني الذي يتحدث عنه الكاتب يدلنا على أنه استقى معلوماته من أكثر من مصدر وفي هذا الصدد نجده يذكر لنا في نهاية الكتاب « لقد وصفت على قدر استطاعتي كل ما تمكنت من التوصل الى معرفته من المباني التي شيدها يوستنيانوس ، سواء تلك التي شاهدتها بنفسي أو التي سمعت عنها ممن شاهدوها » ٠ على أننا نستطيع أن نضيف الى هذين المصدرين اللذين يذكر الكاتب أنه اعتمد عليهما ، وهما المشاهدة الشخصية والسؤال ، مصدرا ثالثا هو الوثائق أو المحفوظات الرسمية التي كانت تحتفظ بها العاصمة وقد كانت هذه مفتوحة أمامه بحكم موقعه في الادارة أو البلاط

الامبراطوري ، وهو موقع اسلفت الاشارة اليه ويدلنا على اعتماد الكاتب على هذا المصدر الثالث القوائم الثلاث التي ترد فيها نوعية المباني وأماكنها التفصيلية مرتبة حسب الولايات أو المناطق ــ وقد أورد بروكوبيوس ثلاث قوائم من هذا النوع ، اثنتان في الجزء الرابع من الكتاب(٥٣) والثالثة وهي تخص المنطقة السورية ، في الجزء الخامس(٥٤) ٠

ولا يقتصر المؤرخ على تعداد أو وصف المباني التي تناولها بالحديث في كتابه ٠ ولكنه يذكر في ثنايا وصفه ، في كثير من الأحيان المناسبات التاريخية التي أدت الى تشييد البناء أو الى اصلاحه وبين العيوب التي كانت به قبل الاصلاح ، والمزايا التي عادت عليه بعد ذلك ، مضيفا بذلك نوعا من الحيوية والتجسيد في ذهن القارىء للمبنى الذي يتحدث عنه ٠ وأنقل هنا شيئاً من وصفه لسور أنطاكية على سبيل المثال لتصوير ما أعنيه « وفوق كل ذلك فانه (يعني الامبراطور يوستنيانوس) قد جعل أنطاكية ، التي أصبح اسمها الآن ثيوبوليس Theopolis (مدينة الله) أعظم وأقوى مما كانت عليه قبل الآن ٠ ففي العصور القديمة كان السور المحيط بها أطول من اللازم ، كما كانت به تعرجات تحيط ، دون أن تخدم غرضا معقولا ، ببعض الاراضي المسطحة وبعض قمم الجبل ، ولهذا السبب فقد كانت معرضة للهجوم من أماكن متعددة ٠ ولكن الامبراطور يوستنيانوس اختصر من طول السور بحيث أصبح يخدم الهدف من وجوده ، وهكذا أعاد بناء أجزاء منه حتى يحمي المدينة نفسها ، وليست كل المناطق السابقة ٠٠٠ أما عن نهر الاورونيتس Orantes (العاصي) الذي كان يمر بعيدا عن المدينة فقد حوله بحيث أصبح يحتضن السور ٠ وقد قام بذلك عن طريق حفر مجرى صناعي (للنهر) يقترب من السور الى أقصى حد

مستطاع ، وبهذه الطريقـة أبعد عن المدينـة الخطر النـاتج عن مساحتها الشاسعة واستعداد (يقصد : كسب) حماية النهر لها ٠٠٠ أما عن الجزء الاعلى (من المدينة) على قمة الجبل ٠٠٠ لقد كانت توجد خارج السور صخرة هائلة تكاد تعادل في ارتفاعها ارتفـاع السور ومن ثم تجعله نقطة ضعف (أمام المهـاجمين) ٠ وبالفعل فان هذه النقطة بالذات كانت هي النقطة التي استولى من خلال خسرو Chosroes (الامبراطور الفارسي على المدينة كما ذكرت من قبل في وصفي لهذا الحدث ٠٠٠ وهكذا تخلص (الامبراطور) من الصخرة الهائلة التي كان قربها من السور يجعل استيلاء(المهاجمين) على المدينة أمرا سهلا ٠٠٠ »(٥٥) ٠

والكتاب بالصورة التي كتبه بها بروكوبيوس يخدم في الواقع أكثر من غرض من أغراض الباحث الذي يتصدى للتأريخ للمنطقة السورية ، فالاماكن التي يتحـدث الكاتب عن وجـود حصون أو أسوار منيعة بها تشير الى المناطق التي كانت تتعرض للهجوم أكثر من غيرها ومن ثم ترسم خطوط الدفاع عن المنطقة ٠والمناطق التي حفرت بها آبار صنـاعية تشير الى طرق القوافل التجـارية والمحطات التي كانت تتوقف عنـدها للتزود بالماء وكثـافة عـدد الكنائس والأديرة أو قلة هذا العدد تشير الى مدى انتشار المسيحية أو التمسك بها وهكذا ٠ وكذلك تساعدنا أوصاف بعض المباني على التعرف على الطراز المعماري السائد في ذلك الوقت ٠ هذا الى أن الكاتب لا يقتصر في الحقيقة على وصف الاحداث التي أدت الى تشييد عدد كبير من هذه المباني أو على التأصيل التاريخي للمواقع التي وجدت بها ، ولكنه يضيف الى ذلك استطرادات تاريخية ، سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية ، تجعل الكتـاب يتجاوز قيمته التعريفية المحضة بهذه المباني ٠

على أن هناك عددا من النقاط التي ينبغي أن يتنبه اليها الباحث الذي يستعين بهـذا المصدر ٠ وأول هذه النقـاط يشير اليهـا بروكوبيوس نفسه ، وهي أن كتابه ليس جامعا مانعا فيذكر لنا في صراحة ووضوح « اني مدرك كل الادراك أن هناك مباني أخرى عديدة لم أذكرها ٠ اما لأني لم أنتبه اليها وسط الأعداد الكبيرة للمنشآت ، واما لانها غير معروفة لي أساسا » بل انه يستطرد هنا استطراداً له مغزاه فيقول : « وهكذا ، فان أي شخص (يعني باحث) يستطيع أن يبذل جهدا نحو استيعاب كل (ما لم أذكره) منها ، ثم يضيف ذلك الى بحثي الحالي،سيكون قد قدم عملا مطلوبا واكتسب اسما كمحب للانجازات النبيلة »(٥٦) كذلك فهناك عدد غير قليل من أسماء الاماكن فيـه قدر من الخطـأ اما لأن الوثائق والسجلات التي اعتمد عليها الكاتب كمصدر من مصادره لم تعن بتدوين الاسماء تدوينا دقيقـا ، أو ان الخطـأ جـاء أثناء نسخ الأسماء جيلا بعد جيل ، أو لأن بروكوبيوس ذاته قد أخطأ أساسا في نقلها ٠ وعلى هذا فان هذه الأسماء المغلوطة تحتاج الى جهد كبير في تحقيقها والى تنبه الى ما قد يترتب على وضعها الحالي من اختلاط يؤدي الى الخطأ في التأريخ ٠ كذلك فان الكاتب قد استخدم بعض ألفاظ معمارية لتعني بشكل عام أكثر من معنى تخصصي ويصبح على الباحث أن يتنبه الى المعنى الدقيق للفظه من خلال سياق الكلام، وأخيراً ، وليس آخراً ، فان الكاتب لم يفصل في الحديث عن كل مبنى من هذه المباني بنفس العناية والتطويل ، ولكنه كثيراً ما كان يمر بالمبنى ليصفه وصفا عابراً بأنه رائع وعظيم أو أن الامبراطور زاد به من جمال المدينة وهكذا(٥٧) ٠

الحواشي

* فيما يخص الأسماء اليونانية واللاتينية التي أوردت صورتها الافرنجية بجوار صورتها العربية ، فاني قد كتبت الأسماء اللاتينية الصرفة بهجائها وحروفها اللاتينية كما هي ٠ وفي حالة الأسماء التي أوردها أميانوس ماركلينوس باللاتينية وكان لها أصل يوناني (مثل : سليوقوس وسلوقية) فقد أوردتها بالحروف اللاتينية تسهيلا على القارىء الذي لا يعرف الحروف اليونانية ، ولكني التزمت بهجائها الاصلي في اللغة اليونانية ٠ كذلك قمت بشيء مشابه في كتابة اسماء الكتب التي ألفها بروكوبيوس باليونانية فقد كتبتها بالحروف اللاتينية ولكني التزمت بالهجاء اليوناني ٠

١ ـ في ١١ مايو عام ٣٣٠م تم الافتتاح الرسمي لمدينة القسطنطينية (وهو الاسم الذي حل منذ ذلك التاريخ محل اسم بيزنطة) وانتقل الامبراطور قسطنطين مع بلاطه ومجلسه الامبراطوري Consistorium وبلاطه وادارته المركزية ليتخذ مكان اقامته الرسمي هناك في العاصمة التي سميت باسمه ٠ وكان هذا في حد ذاته احتفالا ببدء قيام الامبراطورية البيزنطية من الناحية الرسمية ٠ وفي اكتوبر عام ٦٤٠م سلمت قيصرية (في فلسطين) للعرب بعد مقاومة دامت سبع سنوات كاملة ، وباستيلاء العرب عليها أصبحت سورية بأكملها في قبضتهم وانتهى بذلك آخر مظهر من مظاهر السيطرة البيزنطية ٠

٢ ـ من بين هذه الاعتبارات المقوم الشرقي للحضارة البيزنطية الذي تمثل في الثقافة اليونانية في موطنها الجديد الذي امتزجت فيه بالاتجاه الشرقي ومن بينها وحدة الامبراطورية (أو التطلع الى وحدتها) وازدواجيتها ٠ لتراث المنطقة ٠ ومن بينها اتخاذ المسيحية عقيدة رسمية « ثابتة » للامبراطورية ٠ ومن بينها وحدة الامبراطورية (أو التطلع الى وحدتها) وازدواجيتها ٠

٣ ـ يعتبر كثير من الباحثين في التاريخ البيزنطي يوسبيوس اسقف قيصرية Caesarearea (في فلسطين) أول مؤرخ بيزنطي ٠ وفي الواقع فان

« الحوليات » التي كتبها في جزأين والتي ينتهي بها عند ٣٢٥م ، وكتابه عن « التاريخ الكنسي » الذي يقع في عشرة أجزاء تنتهي عند ٣٢٤م يعتبران تقديما لا يمكن الاستغناء عنه لفهم عدد من مقومات العصر البيزنطي ٠ ولكنه يبقى خارج الحدود الزمنية الرسمية للامبراطورية البيزنطية ـ راجع حاشية (١) أعلاه ٠

٤ ـ التسمية اللاتينية Liber ومعناها على وجه الدقة «كتاب» ولكن «الكتاب» لم يكن طوله يزيد على الفصل أو الباب بمفهومه الحالي ٠ والأصل هو ان المؤلف كان يكتب على عدد من لفائف البردى ، ومن هنا درجت لفظة «كتاب» لتعني جزءا من مؤلف ٠ وقد استخدمت في البحث الحالي لفظة «جزء» حرصا على عدم اختلاط المعنى القديم والمعنى المعاصر لكلمة «كتاب» ٠

٥ ـ Ammianus Marcellinus : Res Gestae Xiv q.l

ملحوظة : الاشارات اللاحقة الى كتاب أميانوس ماركلينوس ستكون خالية من اسمه وعنوان كتابه ، وسأكتفي للتدليل على مكانها بالارقام ـ الرقم الأول من اليسار (المكتوب بالارقام اللاتينية) سيكون رقم الجزء ، والرقم الذي يليه سيكون رقم الفصل ، والرقم الاخير الى اليمين سيكون رقم الفقرة حسب الترقيم المعمول به في الكتابات الكلاسيكية ٠

٦ ـ يشير أميانوس الى هذه المراحل من حياته في مناسبات متناثرة في كتابه راجع: XIV, 9,1; XIV, 11.4; XVI, 10,21; XVIII, 6, 8-12.

٧ ـ راجع القسم الثالث من هذا البحث فيما يخص اشارات أميانوس الى النظام السياسي والتقسيمات الادارية للمنطقة السورية ، راجع كذلك أميانوس : XIV, 8.9 حيث يصف انطاكية بأنها « التاج الجميل للشرق » Orientis Apex Pulcher راجع كذلك : XIV, 8.8; XIV, 1.9.

٨ ـ XXII, 10,1

٩ ـ عن هوميروس ، على سبيل المثال ، XXI, 14.5 XXII, 14,33 عن افلاطون XXIII, 6.32 عن شيشرون XXVII, 4,8;9,10.

١٠ـ الأباطرة الاربعة هم : كونستانيوس الثاني Constantius II (٣٣٧ ـ ٣٦١م) ، ويوليانوس Julianus (٣٦١ ـ ٣٦٣م)

ويوفيـانوس Joviamus (٣٦٣ – ٣٦٤م) ، وفـالنس Valens (٣٤٦ – ٣٧٨) وجميعهـم حكمـوا القسطنطينيـة ، وقـد استبعـدت الامبراطور ڤالنتنيانوس Valentinianus الذي لم يلبث في القسطنطينية الا شهراً واحداً (فبراير الى مارس ٣٦٤) ثم غادرها الى الغرب بعد أن أقام أخاه ڤالنس امبراطوراً على الشرق ٠

١١– XV, 1,1

١٢– XXIX, 1,15

١٣– XXIX, 1,23

١٤– XX11, 14,2

١٥– XV, 1.1

١٦– XIV, 4, 1-7

١٧– XX, 3,1-12

١٨– XIV, 8,8

١٩– راجع أواخر القسم الثالث من هذا البحث ٠

٢٠– XIV, 8,5-13

٢١– XV, 1,1; 7.10

٢٢– XIV, 7.2

٢٣– XIV, 7,5

٢٤– XIV, 7,2

٢٥– XIV, 7,9

٢٦– XIV, 7,2

٢٧– XV, 13,2; XV, 13.4

٢٨– XIV, 7.2

٢٩– XXII, 14,1-2

٣٠– XXII. 14,3; XXIII, 2,3-4

٣١– XIV, 1,4-5

٣٢– XXIX, 1,23-44

٣٣– XIV, 1,6-7

٣٤– XIV, 7,5; XXII, 14,1

٣٥– المواضع نفسها كما في الحاشية السابقة ٠

٣٦– XXII, 9,15

٣٧– XXII, 13.1-3

٣٨– XXII,10,2

٣٩– Prekopios : Hyper Fon Polemon, I, 12,24

بعد هذه الحاشية ستكون الاشارات في الحواشي بالارقام فقط (راجع الملحوظة في حاشية رقم ٥) دون الاشارة الى اسم المؤرخ بروكوبيوس ، أو الى اسم الكتاب الذي ورد ذكره في هذه الحاشية ٠

٤٠– انظر : Harold Mattingly : Procopius (Oxford Classical Dictionary; H. B. Dewing; Procopius, (Loeb Classical Library) Vol. I, pp. VII-VIII

٤١– H. B. Dewing : op. cit., p. VII

٤٢– I, 1.3-5

٤٣– على سبيل المثال : Peri Ktismatov, II, 9.11

٤٤– عن التأييد والتشكك راجع Harold Mattingly ، المقال ذاتـه ٠ عـن التبرير راجع H. B. Dewing ذاته ، ص XI

٤٥– على سبيل المثال : Res Gestaae XIV, 1,2; XXIX, 1,20

٤٦– على لسانه : Hyper tov Polemon : II, 10,5

على لسان غيره : ذاته I, 17,36

II. 6,10; 7,2; 8,1, 20-21, 34; 9,15-16,

٤٧ـ II, 6,10; 7,2;8,1, 20-21,34; 9,15-16,18; 11,1; 13,2.

٤٨ـ I, 17,36-7

٤٩ـ II, 8,28-9

٥٠ـ I, 17,47; 18,7; 18,26; 18.35; II, 1,3-7; 16,5; 19,15; 28,12-14; 28,13.

٥١ـ II, 10,1-3

٥٢ـ II, 10,4-5

٥٣ـ الاشارة تشمل كل الفصل الرابع وكل الفصل الحادي عشر بعد الفقرة ١٨ : IV, 4; IV, 11

٥٤ـ V, 9 1-38

٥٥ـ II, 10,2-14

٥٦ـ VI, 7,19-20

٥٧ـ على سبيل المثال حديث الكاتب عن كنيسة أم الاله ، وكنيسة القديس ميخائيل في انطاكية II,10,24-25 حيث يقول الكاتب « كذلك فقد بنى (يعنى يوستفيانوس) كنيسة عظيمة لأم الاله ، وان جمالها وروعتها من كل الجوانب يستعصى على الوصف ، وقد خصص لها كذلك دخلا كبيرا وكذلك فقد شيد كنيسة كبيرة للقديس ميخائيل » وواضح أن الحديث هنا ينقصه التأصيل والتفصيل الذي وجدناه في وصف سور المدينة ، راجع أعلاه وحاشية (٥٥) •

عناصر حضارية بيزنطية

في حفريات البتراء لعام ١٩٨١

نبيل ابراهيم الخيري

مقـدمة :

بدأت حفريات البتراء في الخامس عشر من حزيران عام ١٩٨١ ، في موقع « الكتوتة » الى الجنوب من قصر البنت • وقد نفذ هذا المشروع قسم الآثار في الجامعة الاردنية بالتعاون مع مديرية الآثار العامة في عمـان ،وكان كاتب هذه المقـالة مشرفاً عـلى أعمال الحفر •

إن الغرض الأساسي مـن هـذه الحفريات هو الحصول عـلى معلومات أثرية ذات صلة وثيقة بالحياة الاجتمـاعية للأنبـاط كالتعرف على مساكنهم : أشكالها ، وأنواعها ، ومخططـاتها اذا كان هذا ممكنا • ومن هنا فان موضوع هذه المقالة هو دراسة المخلفات البيزنطية التي أمكن العثـور عليها في حفريـة الموسم المذكور •

ولا شك أن معلوماتنـا المتعلقـة بالعصر البيزنطي في البتراء غامضة وناقصة الى حد كبير • وربمـا يرجع هذا الى افتقـارنا للأبحاث المتخصصة في هذا المجال • إن هذا الحكم صحيح بالرغم مما اشتملت عليه جميع الحفريات التي أجريت في المواقع النبطية المختلفة خلال السنوات الخمسين الماضية من مخلفـات حضارية بيزنطية • إن علينا أن ننوه في هذا المجال بحفريات كل من بيتر بار Peter J . Parr التي أجريت في البتراء فيالفترة ما بينالأعوام ١٩٥٨ و١٩٦٤ ، وحفريات كولن ـ بيلي T. J. Collin-Baly

في منطقة النقب(١) ، وابراهام نقب A. Negev (٢) ، وونت ريد F. Winnett and W. Reed (٣) ، اللذين قاما بالحفر في منطقة ذيبان، وقد تابع أعمالهما الأثري الكندي تشنجهام A. D. Tushingham (٤) ·

دلت الحفريات السابقة جميعها ، وبصورة واضحة على أن المسيحية قد انتشرت في أرجاء المملكة النبطية في أواخر القرن الرابع وبداية القرن الخامس الميلاديين · ومما يدعم صحة هذا الحكم وجود عدد من الكنائس في المواقع النبطية المنتشرة في منطقة النقب · أما في مدينة البتراء فان هناك نصاً يونانياً كتب بالطلاء الأحمر القاتم على أسفل الواجهة الداخلية لضريح الجرة في البتراء (انظر اللوحة ٤) ، وترجع هذه الكتابة الى عام ٤٤٧م · وقد ورد في هذا النص اسم أسقف البتراء بيوس جاسون Pius Jason (٥) ، مما يثبت أن الضريح المذكور قد استعمل ككنيسة في ذلك الوقت · وفي وسع المرء أن يشاهد على الجدران الداخلية لعدد من الأضرحة النبطية في البتراء عددا غير قليل من الصلبان المحفورة لا سيما في المنطقة المعروفة اليوم باسم « مغر النصارى » وهي تسمية تكشف عن السمة المسيحية لهذه الكهوف ·

إن في وسعنا أن نقول في ظل الوقائع السابقة ان بعض الأنباط قد اعتنق المسيحية في أواخر القرن الرابع الميلادي ، أو انه كانت في البتراء – على أقل تقدير – جالية مسيحية في تلك الفترة(٦) · ومما يتفق مع الاحتمال الأخير ما ذكره مور A. Moore من أنه لا يستبعد أن تكون مدينتا البتراء وأيلة (العقبة) من الأماكن التي كان بعض النصارى يُنفى اليها في العصر البيزنطي(٧) ·

أما فيما يتعلق بحفريات البتراء لعام ١٩٨١ فان ما أسميناه الطور الخامس Phase. V. يشمل الطبقات العليا ذوات الأرقام

١ـ٣ في المناطق (ب، ج، د) · لقد تم تأريخ هذا الطور في ضوء النقود البيزنطية التي عثر عليها في هذه الطبقات الى فترة حكم الامبراطور جستنيان الأول (٥٢٧ ـ ٥٦٥م) ، والسنة العاشرة من حكم جستين الثاني (٥٧٤م) · وهكذا فان جميع القطع الأثرية التي يتناولها هذا البحث بالدراسة ترجع في الواقع الى الربعين الثاني والثالث من القرن السادس للميلاد ·

لقد تم العثور في المنطقة (ج) على حنية كنيسة ترجع الى الطور الخامس المذكور أعلاه · ويبلغ قطر هذه الحنية ستة أمتار، وتتجه نحو الشمال الغربي (أنظر اللوحة ٧ أ) · ومما يلفت النظر في هذه الحنية أن معظم حجارتها مأخوذ من تيجان نبطية تمتليء بالزخارف النباتية ، وقد قسم كل تاج الى أربعة أقسام متساوية بحيث يكون الجانب الأملس من الجهة الخارجية ، بينما جعل الجانب الآخر المليء بالزخارف النباتية من الجهة الداخلية · وربما رمى البناء من وضع الزخارف النباتية الجميلة في الجهة الداخلية الى اخفاء كل ما يمكن ان يذكر المعتقدين الجدد بعناصر وثنيتهم القديمة ·

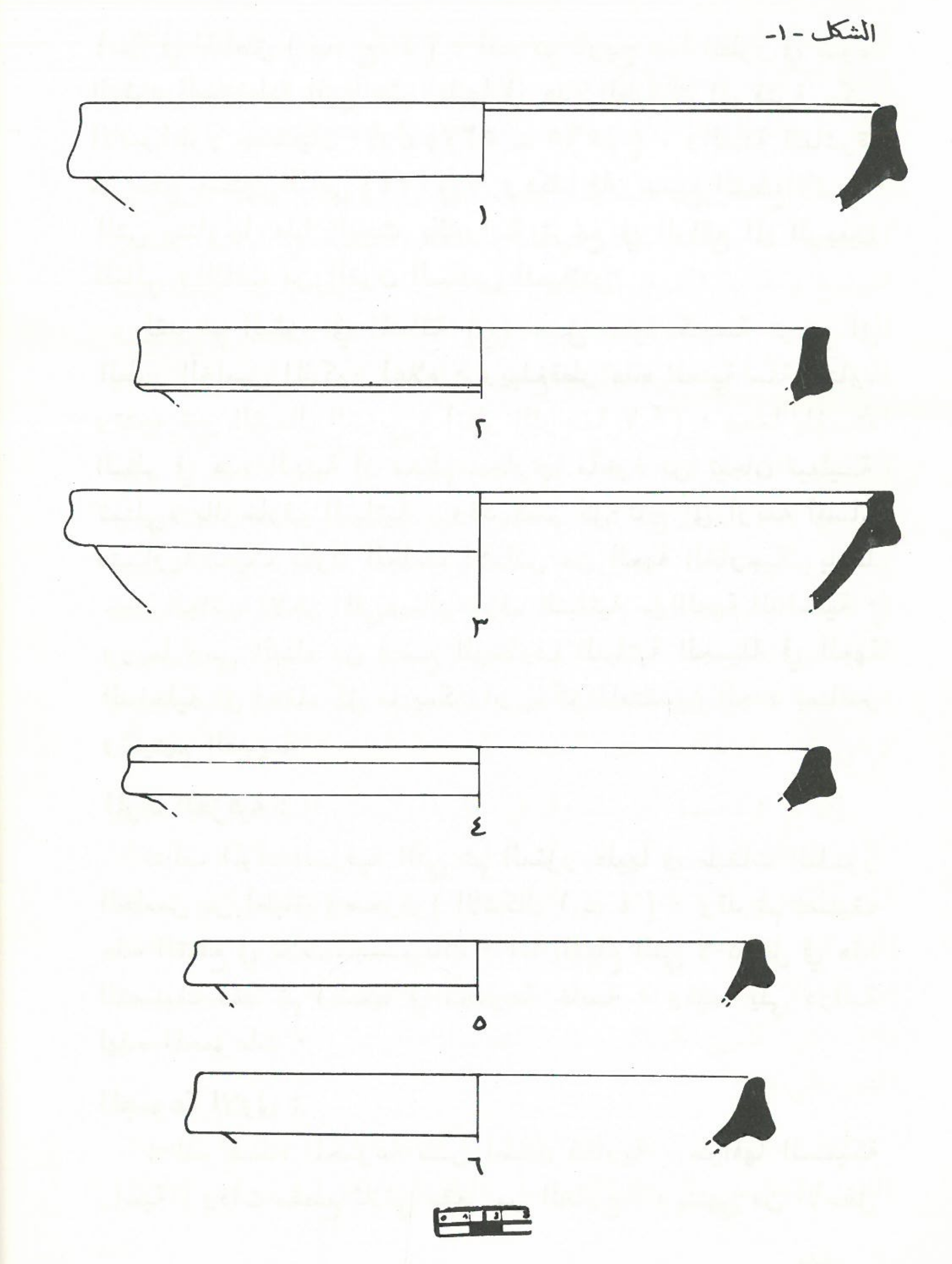
المواد الخزفية :

تتألف المواد الخزفية التي تم العثور عليها في طبقات الطور الخامس من أطباق وصحون (الأشكال ١ ـ ٤) · وقد تم تصنيف هذه القطع في ثلاث مجموعات · أما القطع التي لا تدخل في هذا التصنيف فقد تم وضعها في مجموعة خاصة · وفيما يلي دراسة لهذه المجموعات ·

المجموعة الاولى :

تتألف هذه المجموعة من أطباق فخارية ، حوافها السميكة رأسية ، وذات مقطع ثلاثي مقعر من الخارج ، وينتهي من الأسفل

الشكل -١-



ببروز يقع تحت الحافة مباشرة • ويمكننا أن نصف مقطع هذه المجموعة على النحو التالي :

١ ـ كسرة من فوهة طبق فخاري (الشكل ١ : ١) : قطرها ٢٦ سم ، وهي مصنوعة من عجينة حمراء فاتحة اللون ، ومكسوة من الداخل والخارج ببطانة حمراء قاتمة • ويلاحظ وجود بقايا شريط من الدهان الأبيض يلتف حول حافة الطبق الخارجية •

٢ ـ كسرة من فوهة طبق فخاري (الشكل ١ : ٢) : قطرها ٢١٫٨ سم وهي مصنوعة من عجينة حمراء ، فاتحة اللون ، ومكسوة من الداخل والخارج ببطانة حمراء قاتمة •

٣ ـ كسرة من فوهة طبق فخاري (الشكل ١ : ٣) : قطرها ٢٢ سم ، وهي مصنوعة من عجينة جيدة ، ناعمة ، وخالية من الحصى والشوائب ، ومحروقة جيدا ومكسوة من الداخل والخارج ببطانة أرجوانية قاتمة •

٤ ـ كسرة من فوهة طبق فخاري (الشكل ١ : ٤) : قطرها ٢٢ سم ، وهي مصنوعة من عجينة بنية ، فاتحة اللون ، خالية من الشوائب ، ومحروقة جيدا ، ويغطي الكسرة من الخارج ترسبات كلسية •

٥ ـ كسرة من فوهة طبق فخاري (الشكل ١ : ٥) : قطرها ١٨ سم ، وهي مصنوعة من عجينة بنية ، فاتحة اللون ، ومكسوة من الداخل والخارج ببطانة حمراء لامعة مصقولة •

٦ ـ كسرة من فوهة طبق فخاري (الشكل ١ : ٦) : قطرها ١٨ سم ، وهي مصنوعة من عجينة خالية من الحصى والشوائب، ومحروقة جيدا ، ومكسوة من الداخل والخارج ببطانة حمراء تظهر عليها آثار ترسبات كلسية بيضاء •

النماذج المشابهة :

لعل أفضل النماذج المشابهة للقطعة رقم (١) النموذج الذي كتب عنه هورسفيلد كونوي Horsfield and Conway الذي يرجع تاريخه الى القرن الرابع والخامس الميلاديين[٨] ، وكذلك النموذج الذي كتب عنه جون هيز J. Hayes ، الذي يرجع تاريخه الى نهاية القرن الخامس الميلادي[٩] ٠

كما يمكن مقارنة القطعة رقم (٢) مع كل من النموذج الذي كتب عنه كلسو وبرامكي Kolso and Braamki الذي يرجع الى أواخر العصر البيزنطي[١٠] ، والنموذج الذي كتبت عنه كنيون K. Konyon [١١] ، والنموذج الذي كتبعنه جون هيز الذي يرجع تاريخه الى ٤٦٠ ـ ٤٨٥م[١٢] ٠

أما القطعة رقم (٣) فيمكن مقارنتها بثلاثة نماذج كتب عنها كولون بيلي[١٣] ، ونموذج آخر كتب عنه ديلوجاس وهينز Delougaz and Haines الذي يرجع تاريخه الى أواخر العصر البيزنطي[١٤] ٠ كما يزودنا جون هيز بنموذج آخر مشابه يرجع تاريخه الى ٤٥٠ ـ ٤٧٥م[١٥] ٠ ومن النماذج الأخرى المشابهة للقطعة رقم (٣) ذلك النموذج المكتشف في سبسطية[١٦] ، الذي يرجع تاريخه الى القرن الثالث والرابع الميلاديين والنموذج المكتشف في ساحة الندوة في أثينا الذي يرجع تاريخه الى أواخر القرن السادس للميلاد[١٧] ٠

وفيما يتعلق بالقطعة رقم (٤) فاننا نجد لها نظائر عشر عليها في كل من طبقة فحل[١٨] ، وقد أرجع تاريخ هذا النموذج الى الفترة الواقعة ما بين القرن الرابع والقرن السابع الميلاديين ، وهذا تحديد غير دقيق ، كما نجد لها نظائر في نسانه في أرض النقب[١٩] ،

وخربة الكرك[٢٠] وجبل نبو[٢١] ، وساحة الندوة في أثينا[٢٢] ، وقد حدد منتصف القرن السادس للميلاد كتاريخ للنموذج الأخير

لقد زودنا جون هيز بنموذج مشابه لقطعة رقم (٥) وقد حدد تاريخ هذا النموذج بالثلث الأول من القرن السادس للميلاد[٢٣] ٠

ان أكثر النماذج المشابهة للقطعة رقم (٦) هي التي كتب عنها كل من سيليرز وبرامكي Sellers and Baramki [٢٤] ، وروبنسون H. Robinson الذي حدد تاريخ النموذج الذي كتب عنه بأواخر القرن السادس الميلادي[٢٥] ، وواجي F. Waage [٢٦] ، وفتسجيرالد G. Fitzgerald [٢٧] ، وكولن بيلي[٢٨] ، وديلوجاس وهينز اللذان يرجعان تاريخ أنموذجهما الى أواخر العصر البيزنطي[٢٩] ٠

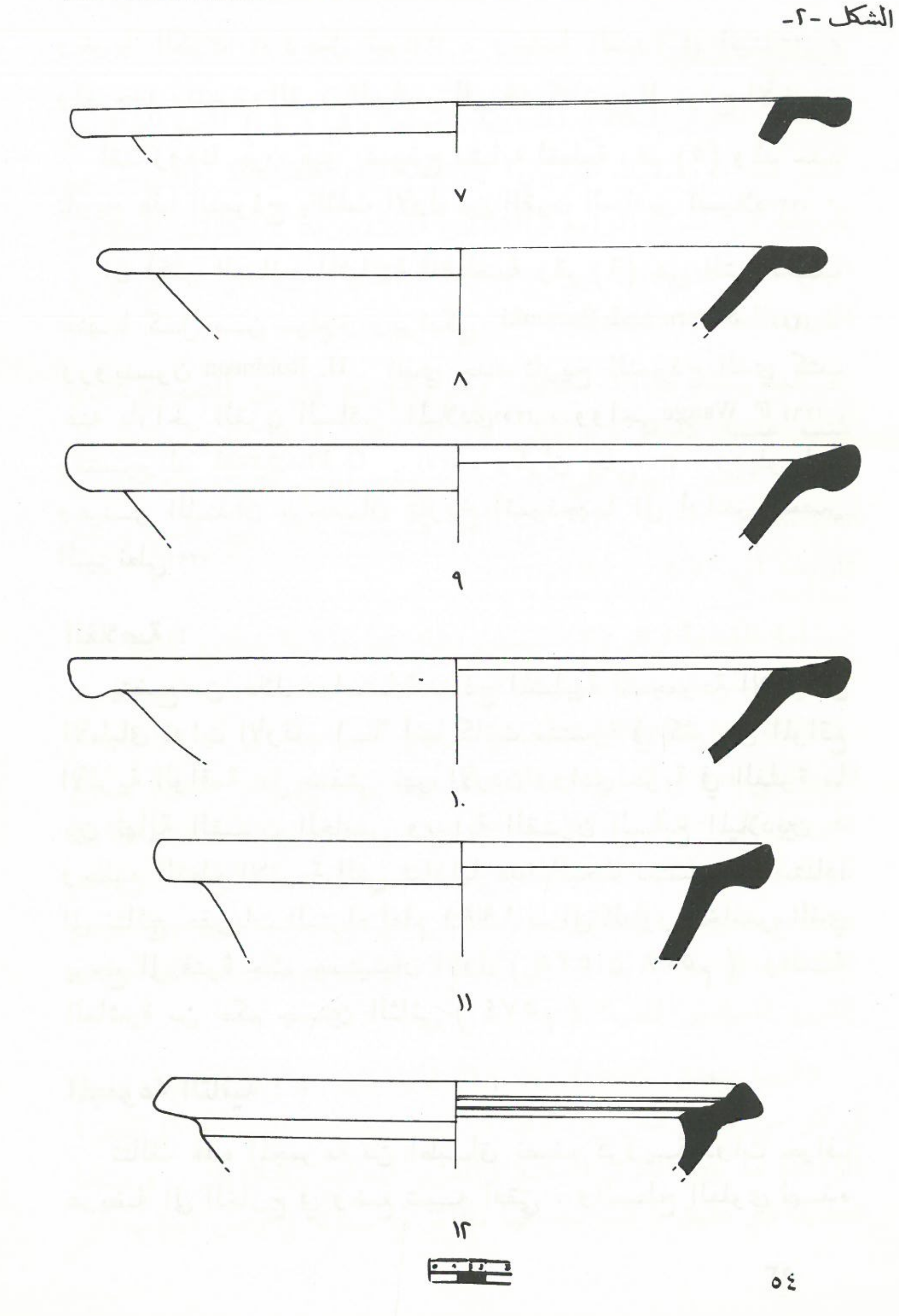
الخلاصة :

يتضح من خلال دراستنا للنماذج المشابهة للمجموعة الاولى من الأطباق ذوات الأرقام ١ـ٦ أنها كانت منتشرة في كثير من المواقع الأثرية الواقعة على ضفتي نهر الأردن ووادي عربة في الفترة ما بين نهاية القرن الخامس وبداية القرن السابع الميلاديين ٠ وجميع القطع الاثرية التي تناولها هذا البحث تنتسب ـ استناداً الى نتائج حفريات البتراء لعام ١٩٨١ ـ الى الطور الخامس الذي يرجع الى فترة حكم جستينيان الأول (٥٢٥ ـ ٥٣٨م) ،والسنة العاشرة من حكم جستين الثاني (٥٧٤م) ٠

المجموعة الثانية :

تتألف هذه المجموعة من أطباق نصف كروية ذوات حواف عريضة الى الخارج في وضع شبه أفقي ، والسطح العلوي لهذه

الشكل -٢-



الحواف منبسط بينما سطحها السفلي محدب وفي وسعنا أن نصف هذه المجموعة على النحو التالي :

٧ ـ كسرة من فوهة طبق فخاري بالاضافة الى جزء من جسم الطبق (الشكل ٢ : ٧) : قطرها ٢٨ سم ، وهي مصنوعة من عجينة حمراء فاتحة اللون ، محروقة جيدا ، ومكسوة من الداخل والخارج ببطانة حمراء قاتمة اللون • وللكسرة ملمس ناعم يدل على أنها صقلت جيدا •

٨ ـ كسرة من فوهة طبق فخاري بالاضافة الى جزء من جسم الطبق (الشكل ٢ : ٨) : قطرها ٢ر٢٦ سم ، وهي مصنوعة من عجينة أرجوانية اللون ، خالية من الشوائب ومحروقة جيدا ، ومكسوة من الداخل والخارج ببطانة حمراء • وتوجد بعض الترسبات الكلسية على بعض أجزاء السطح الخارجي للكسرة •

٩ ـ كسرة من فوهة طبق بالاضافة الى جزء من جسم الطبق (الشكل ٢ : ٩) : قطرها ٢٨ سم ، وهي مصنوعة من عجينة أرجوانية اللون ، خالية من الشوائب والحصى ومحروقة جيدا ، ومكسوة من الداخل والخارج ببطانة حمراء قاتمة اللون •

١٠ـ كسرة من فوهة طبق بالاضافة الى جزء من جسم الطبق (الشكل ٢ : ١٠) : قطرها ٢٨سم ، وهي مصنوعة من عجينة حمراء أرجوانية ، خالية من الشوائب ، ومحروقة جيدا ، ومكسوة من الداخل والخارج ببطانة حمراء قاتمة ، وتوجد عليها بعض الترسبات الكلسية •

١١ـ كسرة من فوهة طبق بالاضافة الى جزء من جسم الطبق (الشكل ٢ : ١١) قطرها ٢٢ سم ، وهي مصنوعة من عجينة حمراء ـ بنية ، ومكسوة من الداخل والخارج ببطانة حمراء سميكة ، وتوجد عليها بعض الترسبات الكلسية ٠

١٢ـ كسرة من فوهة طبق بالاضافة الى جزء من جسم الطبق (الشكل ٢ : ١٢) : قطرها ٥ر٢٠ سم ، وهي مصنوعة من عجينة حمراء خالية من الشوائب ، ومحروقة جيدا ، ومكسوة ببطانة رقيقة ذات لون أحمر قاتم ٠ وتوجد على الكسرة بعض الترسبات الكلسية ، وقد زين السطح العلوي من حافة الطبق بزخارف غائرة Rouletted Decoration ٠

النماذج المشابهة :

اننا نجد في الشكل الذي نشره جون هيز المنسوب الى « الفخار الافريقي ذي البطانة الحمراء African Red Slip Ware الذي يرجع تاريخه الى بداية القرن السادس الميلادي(٣٠) ، نموذجا قوي الشبه بالقطعة رقم ٧ ٠

كما في وسعنا أن نقارن القطع ذوات الأرقام (٨ ـ ١١) بالنموذج الذي نشره واجي ، الذي يرجع تاريخه الى القرن السابع الميلادي(٣١) ٠ كما يمكننا مقارنتها باحدى القطع التي عثر عليها في نسانة في النقب ، التي كتب عنها كولن بيلي(٣٢) ، وبنموذجين آخرين كتب عنهما جون هيز الذي اقترح تاريخهما للفترة ما بين ٦٠٠ ـ ٦٥٠ م(٣٣) ٠

أما القطعة رقم (١٢) فيمكن مقارنتها بكل من النموذج الذي تحدث عنه فيفريه P. Fevrier (٣٤) ، الذي يرجع الى أواخر القرن

الرابع ، وأوائل القرن الخامس الميلاديين والنموذج الذي كتب عنه هيز الذي يرجع تاريخه الى منتصف القرن السادس الميلادي(٣٥) ٠

الخلاصة :

يتبين لنا من دراسة النماذج المشابهة للمجموعة الثانية من الأطباق ذوات الارقام ٧ ـ ١٢ ، التي تمتاز بحافتها العريضة المتجهة الى الخارج في وضع أفقي ، وبجسم نصف كروي ، المصنوعة من عجينة حمراء خالية من الشوائب ـ أن تاريخها يرجع في غالبية الحالات الى الفترة ما بين عام ٥٣٠ ـ ٦٥٠م ، ولا يتعارض هذا التاريخ مع تأريخ قطعنا الذي يرجع الى الربعين الثاني والثالث من القرن السادس الميلادي ٠

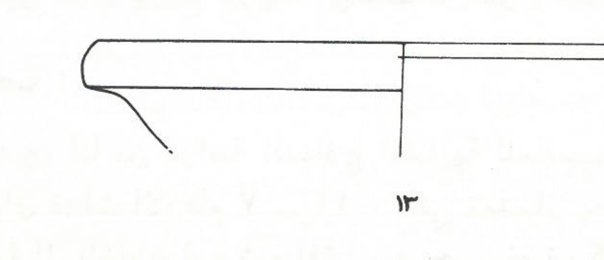
المجموعة الثالثة :

تتألف هذه المجموعة من عدد الأطباق الغميقة ذوات الحواف المستديرة والمقطع الثلاثي ٠ ويمكن وصف قطع هذه المجموعة على النحو التالي :

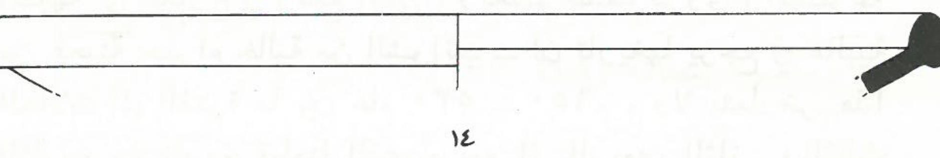
١٣ـ كسرة من فوهة طبق فخاري مع جزء من جسم الطبق (الشكل ٣ : ١٣) : قطرها ٢٢ سم ، وهي مصنوعة من عجينة حمراء أرجوانية ، خالية من الشوائب والحصى ومحروقة جيدا ، وتغطي الترسبات الكلسية بعض أجزاء الكسرة ٠

١٤ـ كسرة من فوهة طبق فخاري مع جزء من جسم الطبق (الشكل ٣ : ١٤) : قطرها ٤ر٣٣ سم ، وهي مصنوعة من عجينة أرجوانية ، فاتحة اللون ، خالية من الشوائب ومحروقة جيدا ومكسوة من الداخل والخارج ببطانة حمراء قاتمة ، وتوجد على الكسرة بعض الترسبات الكلسية ٠

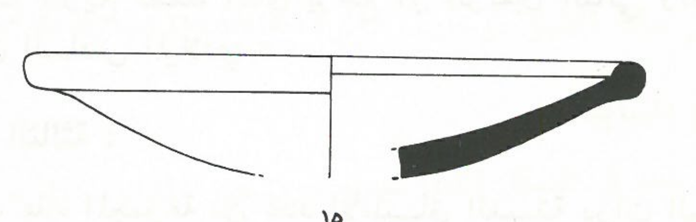
الشكل -٣-



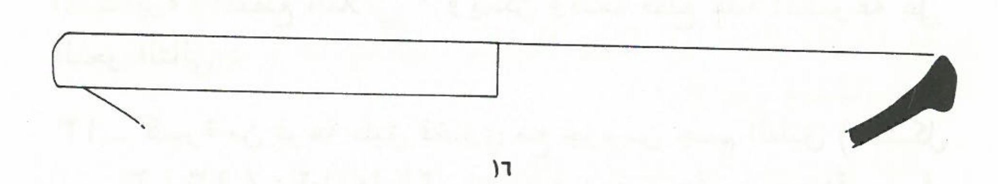
١٣



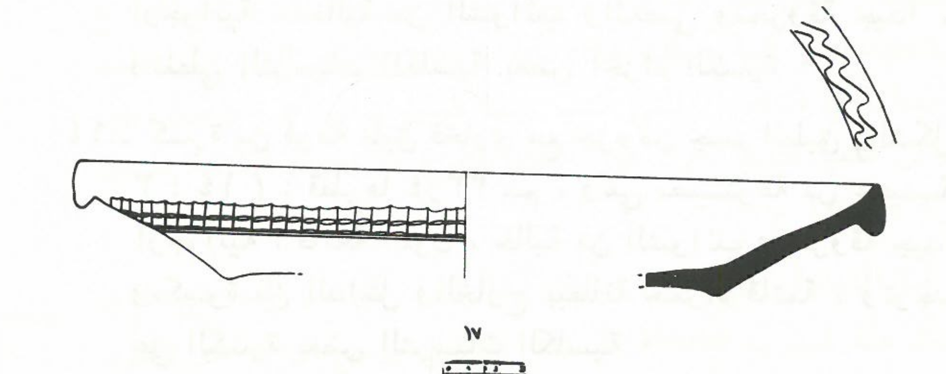
١٤



١٥



١٦



١٧

١٥ـ كسرة من فوهة طبق فخـاري بالاضـافة الى جزء من جسم الطبق (الشكل ٣ : ١٥) : قطرها ٢٢ سم ، وهي مصنوعة من عجينة حمراء ، فاتحة اللـون ، وخاليـة من الشوائب ، ومحروقة جيدا ، ويلاحظ أن جسم الطبق يزداد سماكة كلما اقتربنا من قاعدته، بينما يصير رقيقا عند النقطة التي يلتقي فيها جسم الطبق مع الحافة المستديرة الشكل للآنية ، التي تشبه العقدة ، وجسم الطبـق مكسو من الداخل والخـارج ببطانة بنية ، فاتحة اللون ، وتوجد على هذا الجسم بعض الترسبات الكلسية ٠

١٦ـ كسرة من فوهة طبق فخـاري بالاضـافة الى جزء من جسم الطبق (الشكل ٣ : ١٦) : قطرها ٣١ر٢ سم ، حافة الفوهة ذات مقطع ثلاثي ، مستدق أعلاها ، وللحافة بروز يتجه نحو الاسفل ، وهي مصنوعة من عجينة بنية ، فاتحة اللون ،خالية من الشوائب ، محروقة جيدا ، والكسرة مكسوة من الداخل ببطـانة حمراء ، ومن الخـارج ببطـانة بيضاء ضاربة الى الصفرة ٠ أما جسم كسرة الطبق فمزينة من الخارج بزخارف على هيئة أشرطة أفقية تتألف من خطوط غائرة في وضعمائل٠

١٧ـ كسرة كبيرة من فوهة طبق فخاري بالاضافة الى جزء من جسم الطبق وقاعـدته (الشكل ٣ : ١٧) : قطرهـا ٢٨ر٦ سم ٠ وحافة الفوهة شبيهة بحافة القطعـة رقم ١٦ الا أنها أكثـر استطالة ، وقاعدتها حلقية قليلة العمق ، وهناك حفر غائر متموج على السطح الخارجي من جسم الطبق ، بالاضافة الى زخارف غائرة تلتف حول السطح الخارجي لفوهة الطبق ، والكسرة مصنوعة من عجينة بنيـة فاتحة اللـون ، محروقة بطريقة جيدة وهي خالية من الشوائب والحصى ، والكسرة مكسوة من الداخل والخارج ببطانة حمراء ٠

النماذج المشابهة :

من النماذج التي يمكن مقارنتها بالكسرة رقم (١٣) القطعة رقم (٣٠٨٥) التي كتب عنها سالير S. Saller ، التي ترجع الى أواخر العصر البيزنطي[٣٦] ونموذج سمث R. Smith ذو الرقم (١٢٤٤) الذي يرجع تاريخه الى الفترة ما بين القرن السادس والسابع الميلاديين[٣٧] ، ونموذج واجي المؤرخ بنهاية الربع الأول من القرن السادس للميلاد[٣٨] ، وطبق مشابه كتب عنه هيز وحدد له النصف الثاني من القرن الخامس للميلاد كتاريخ موثوق[٣٩] •

أما القطعة رقم (١٤) فيمكن مقارنتها مع النموذج الذي كتب عنه هيز ، وأرجع تاريخه الى بداية القرن السادس للميلاد[٤٠] ، والنموذج الذي عثر عليه في جبل نبو ، وأرجعه شنايدر H. Sahneider الى العصر البيزنطي[٤١] • ومن الضروري أن نشير أيضا الى نظير آخر كتب عنه سمث ويحمل الرقم (١٢٤٠) ، وأرجعه الى الفترة الممتدة ما بين القرن الرابع والقرن السابع للميلاد[٤٢] ، وهذا تأريخ غير دقيق البتة ، ونموذج سالير الذي أرجعه الى العصر البيزنطي دون تحديد تاريخ معين[٤٣] •

لقد زودتنا حفريات البتراء بنموذج مماثل تماما للنموذج المتمثل في القطعة رقم (١٥) ، وقد تحدث عنه موريه واليس Murray and Ellis دون أن يحددا له تاريخا معينا[٤٤] ، وقد عثر في طبقة فحل على نموذج آخر يحمل الرقم ١٣٠٩ ، وقد تحدث عنه سمث وأرجعه الى الفترة الواقعة ما بين القرنين الرابع والسابع للميلاد[٤٥] • كما زودنا شنايدر بنموذج آخر من جبل نبو وقد أرجعه الى القرن السادس الميلادي[٤٦] ، أما النموذج الذي عثر عليه في خربة الكرك فيرجع الى أواخر العصر البيزنطي[٤٧] •

ان هناك بالواقع نماذج أخرى مشابهة للقطعة رقم (١٥) ، وقد عثر عليها في أماكن مختلفة كالنقب[٤٨] ، وساحة الندوة في أثينا[٤٩] ـ ويرجع تاريخ هذا النموذج الى أواخر القرن السادس الميلادي ، وسبسطية ـ ويرجع تاريخ النموذج المنسوب اليها الى القرن الخامس للميلاد[٥٠] ، وبيسان ـ حيث يرجع فتسجيرالد تاريخ هذا النموذج الى العصر البيزنطي دون تحديد دقيق[٥١] ، وأنطاكية ـ حيث عثرت جامعة برنستون على نموذج يحمل الرقم (٨٠٥)وكتب عنه واجي وأرجعه الى نهاية القرن السادس الميلادي[٥٢] • وقد أطلق جون هيز على النماذج المشابهة لقطعتنا رقم (١٥) « الشكل ١٠٤ ب، ج، القطع ذوات الأرقام ١٥ـ١٦ ، ٢٣ ، ٢٩» ، وقد حدد لهذه النماذج تاريخا دقيقا يقع ما بين الأعوام ٥٥٠ـ٦٢٥م[٥٣] •

أما فيما يتعلق بالقطعة رقم (١٦) فقد عثر على نظائر مشابهة لها في كل من سبسطية ـ حيث يرجع تاريخ النموذج المنسوب اليها الى القرن الخامس للميلاد[٥٤] وخربة الكرك ـ حيث أرجع كل من ديلوجاس وهينز تاريخ النماذج التي عثر عليها هناك الى أواخر العصر البيزنطي[٥٥] ، وجبل نبو ـ حيث يرجع تاريخ النموذج الذي عثر عليه هناك الى القرن السادس الميلادي[٥٦] ، يضاف الى هذا نموذجان مطابقان للقطعة رقم (١٦) ، وقد أرجعهما جون هيز الى القرن السابع للميلاد[٥٧] ، أما كولن بيلي فقد كتب عن نموذج عثر عليه في نسانة من أرض النقب ، وأرجعه الى العصر البيزنطي دون تحديد أفضل[٥٨] •

وأخيرا في وسعنا أن نقارن القطعة رقم (١٧) مع كل من القطعة التي عثر عليها في كهف كورنوس Cornos في جزيرة قبرص ، التي تنتمي الى أواخر العصر البيزنطي[٥٩] ، والقطع

التي وجدت في كل من خربة الكرك[٦٠] ، ورامات راحيل[٦١] ، وبيسان[٦٢] ، التي ترجع الى العصر البيزنطي عموما • الا أن جون هيز يرجع تاريخ القطع الفخارية البيزنطية المشابهة لقطعتنا رقم (١٧) الى القرن السابع للميلاد[٦٣] •

يرجع تاريخ النماذج المشابهة لقطع المجموعة الثالثة ـ كما حدده الباحثون الى الفترة ما بين بداية الربع الثاني من القرن السادس ونهاية القرن السابع للميلاد • وفي وسعنا أن نلاحظ أن هذا التأريخ لا يتعارض والتاريخ الذي أعطيناه لقطع الطور الخامس •

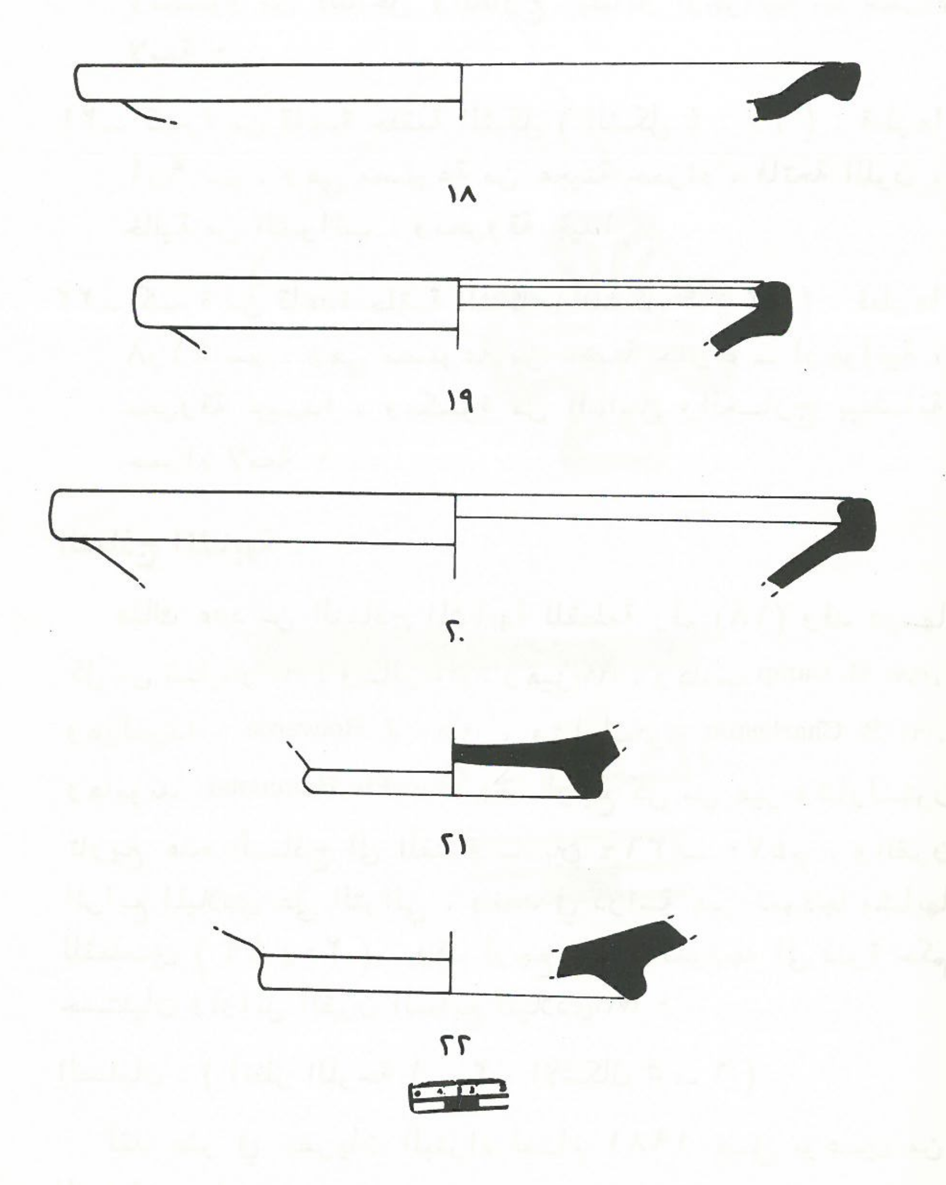
أشتات :

١٨ ـ كسرة من فوهة طبق بالاضافة الى جزء من الجسم (الشكل ٤ : ١٨) : قطرها ٢٤ سم،والسطح العلوي للحافة مبسط، أما الجسم فغير عميق ، والكسرة مصنوعة من عجينة أرجوانية ، فاتحة اللون ، وخالية من الشوائب ومحروقة جيدا ، ومكسوة من الداخل والخارج ببطانة حمراء داكنة ومصقولة جيدا •

١٩ـ كسرة من فوهة طبق بالاضافة الى جزء من الجسم (الشكل ٤ : ١٩) : قطرها ٢٠سم ، والحافةرأسية وسميكة ومبسطة السطح العلوي ، وهي مصنوعة من عجينة بنية خالية من الشوائب ، ومحروقة جيدا ، ومكسوة من الداخل فقط ببطانة حمراء مصقولة •

٢٠ـ كسرة من فوهة طبق بالاضافة الى جزء من الجسم (الشكل ٤ : ٢٠) : قطرها ٢٤ر٨ سم ، والحافة رأسية وسميكة

الشكل - ٤ -



كما في القطعة رقم (١٩) ، وهي مصنوعة من عجينة حمراء قاتمة ، خالية من الشوائب ، ومحروقة جيدا ، ومكسوة من الداخل والخارج ببطانة أرجوانية ـ حمراء لامعة ٠

٢١ـ كسرة من قاعدة حلقية الشكل (الشكل ٤ : ٢١) : قطرها ١ر٩ سم ، وهي مصنوعة من عجينة حمراء ، فاتحة اللون ، خالية من الشوائب ، ومحروقة جيدا ٠

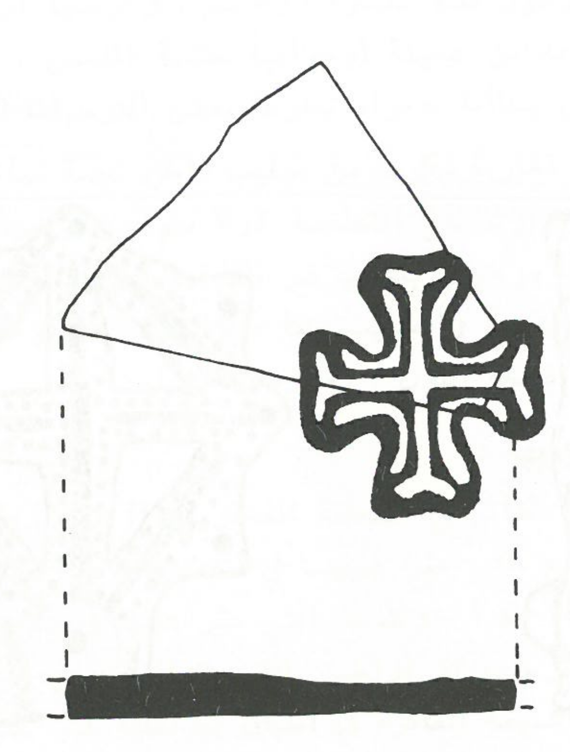
٢٢ـ كسرة من قاعدة حلقية الشكل (الشكل ٤ : ٢٢) : قطرها ٨ر١١ سم ، وهي مصنوعة من عجينة حمراء ـ أرجوانية ، محروقة جيدا ، ومكسوة من الداخل والخارج ببطانة حمراء لامعة ٠

النماذج المشابهة :

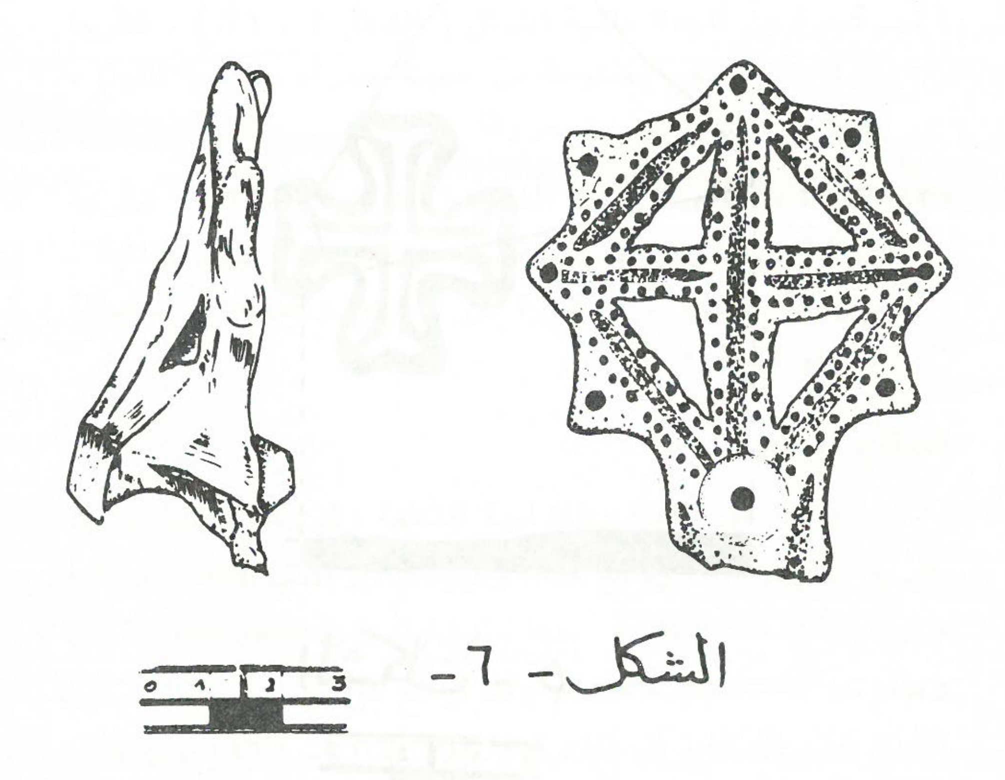
هناك عدد من النماذج المشابهة للقطعة رقم (١٨) وقد درسها كل من شنايدر[٦٤] ، وسالير[٦٥] ، وهيز[٦٦] ، وكامب G. Camp [٦٧]، وهولفيردا J. Holwerda [٦٨] ، وشارلستون R. Charleston [٦٩]، وهاموند Ph. Hammond [٧٠] ، وقد أرجع كل من هيز وشارلستون تاريخ هذه النماذج الى الفترة ما بين ٣٦٠ ـ ٤٧٠م ، والقرن الرابع الميلادي على التوالي ، ونجد في دراسة هيز نموذجا مشابها للقطعتين (١٩ و٢٠) ، وقد أرجع تاريخ نموذجه الى فترة حكم جستنيان وأوائل القرن السابع الميلادي[٧١] ٠

الصلبان : (أنظر اللوحة ١ ـ ٢ ، الأشكال ٥ ـ ٦)

لقد عثر في حفريات البتراء لعام ١٩٨١ على نوعين من الصلبان هما :



الشكل ـ ٥ ـ



الشكل - ٦ -

أ ـ صليب غائر في السطح الداخلي لقاعدة كسرة طبق (الشكل ٥) ، وطول هذه الكسرة ٦ر٥ سم ، وعرضها ٣ر٤ سم ،وهي مصنوعة من عجينة أرجوانية خشنة الملمس ، ومكسوة من الداخل ببطانة حمراء تعلوها بعض الترسبات الكلسية .

ب ـ قطعة فخارية مكونة من صليب داخل نجمة ثمانية (الشكل ٦) ، وارتفاع القطعة ٢ر٧ سم ، وعرضها ١ر٥ سم ، ووجهها مزخرف بثقوب غير نافذة وخطوط غائرة تمتد فوق سطح النجمة والصليب معا ، والقطعة مصنوعة من عجينة حمراء فاتحة اللون ، ومحروقة جيدا .

النماذج المشابهة :

للصليب الغائر في القطعة الفخارية (أ) نماذج مشابهة من بينها القطع التي عثر عليها في القدس[٧٢] ، وتحمل الرقمين ٣٠٧٧ ، ٣٠٧٧ أ ، وتلك التي عثر عليها في ساحة الندوة في أثينا ، وترجع الى أواخر القرن السادس الميلادي[٧٣] ، والصلبان السبعة الغائرة في أطباق بيزنطية عثر عليها في نسانة من أرض النقب[٧٤] . يضاف الى هذه النماذج المشابهة التي وجدت في بيسان[٧٥] ، وسبسطية ، وقد أرجعت كاثلين كنيون تاريخ نموذج سبسطية الى القرن الخامس الميلادي[٧٦] ، وقد عثر في أحد أضرحة القويسمة جنوب عمان على صليب غائر في سطح قطعة زجاجية[٧٧] .

ان في وسعنا أن نقارن بين الصليب (ب) ونظيره الذي عثر عليه في كورنثا ، ويرجع تاريخه الى الفترة الممتدة ما بين القرنين الرابع والسادس للميلاد[٧٨] ، كما يمكن مقارنته مع نموذج من سبسطية[٧٩] ، وآخر من ساحة الندوة في أثينا ، وهو الذي يرجع الى الفترة ما بين القرنين الخامس والسابع للميلاد[٨٠] .

خلاصة :

يرجع الصليبان (أ،ب) الى عهد جستنيان الأول والسنة العاشرة من حكم جستين الثاني ، ولا يتعارض هذا مع التاريخ المعطى للنماذج المشابهة ٠

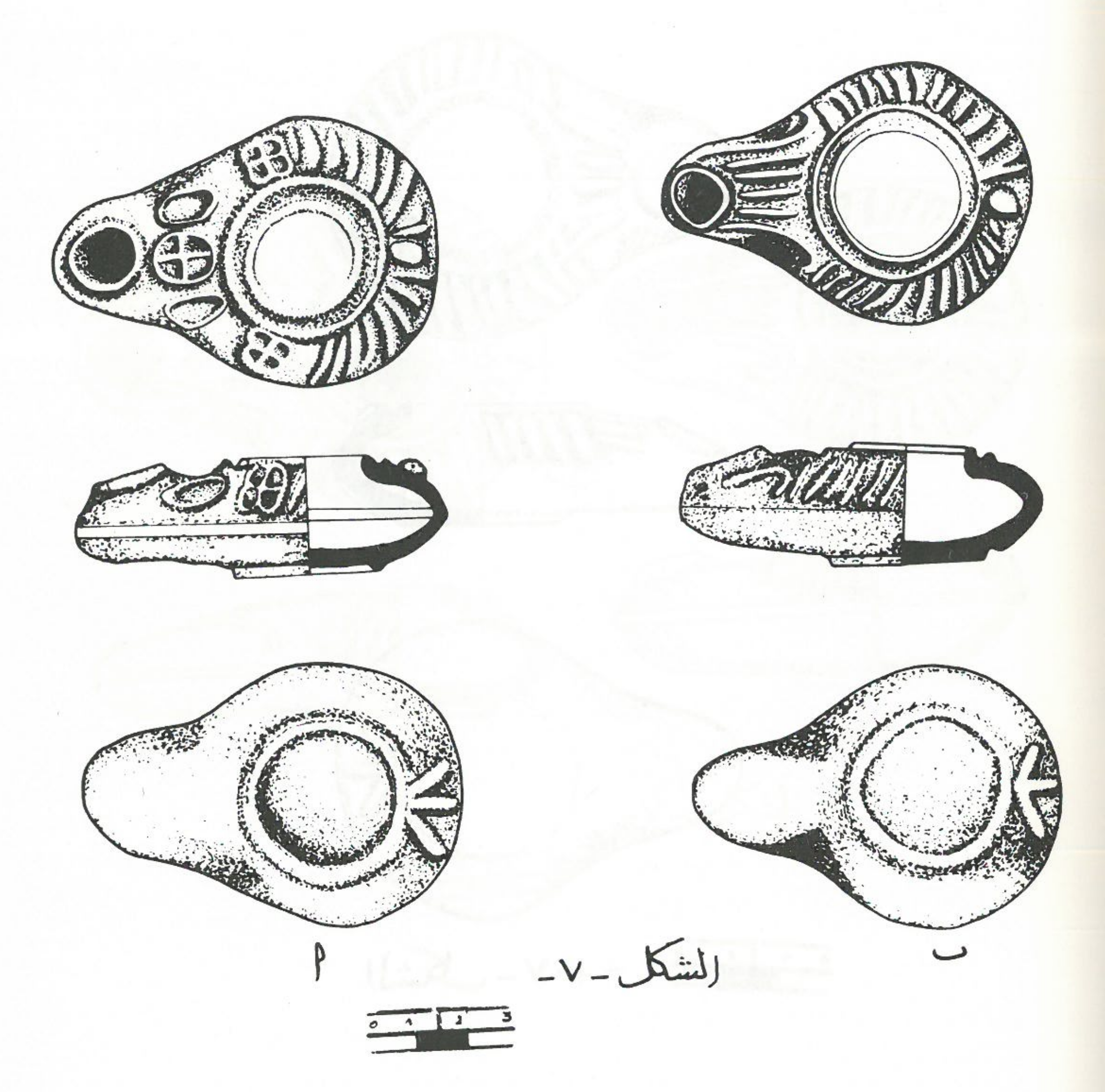
الأسرجة الفخارية :

تم التعرف في حفريات البتراء لعام ١٩٨١م على نوعين مختلفين من الاسرجة الفخارية ٠ أما النوع الأول فهو المعروف باسم الخف Slipper Lamps (أنظر اللوحة ٣ أ ــ هـ ، الشكل ٧ أ ــ هـ) ٠ وقد تمت صناعة هذا السراج بواسطة قالب مؤلف من قطعتين منفصلتين ٠ أما النوع الثاني فأسرجة مخروطية الشكل Cone-Like Lamps (اللوحة ٤ أ ــ ج) ، ولها قواعد مستديرة مبسطة ويد السراج حلقية في وضع رأسي ، وقد صنع هذا النوع من الأسرجة بالدولاب ٠

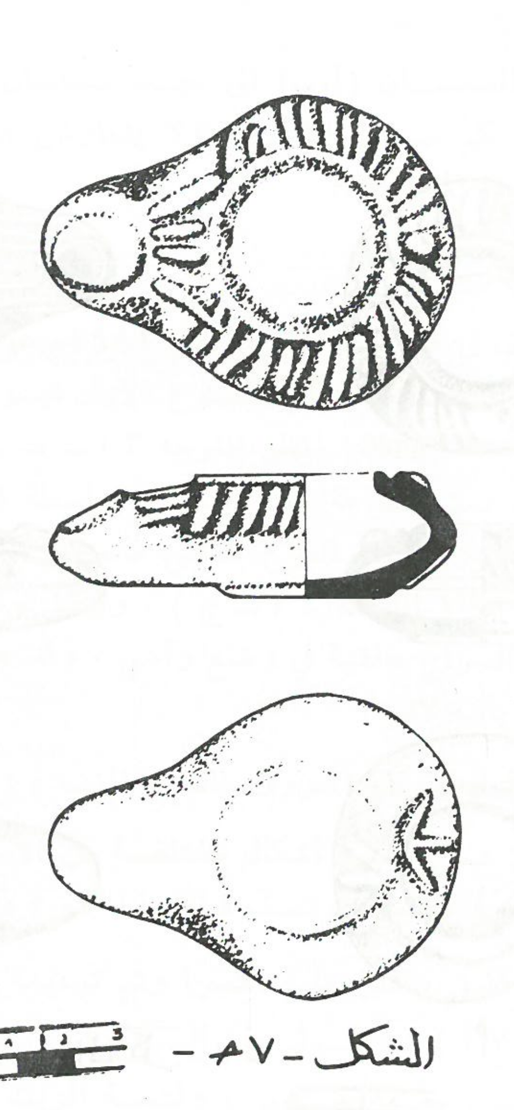
النوع الأول ، وهو المعروف باسم « الخف » :

لقد عثر على خمسة أشكال مختلفة من الأسرجة الفخارية البيزنطية ، وفي وسعنا أن نصف قطع هذا النوع على النحو التالي :

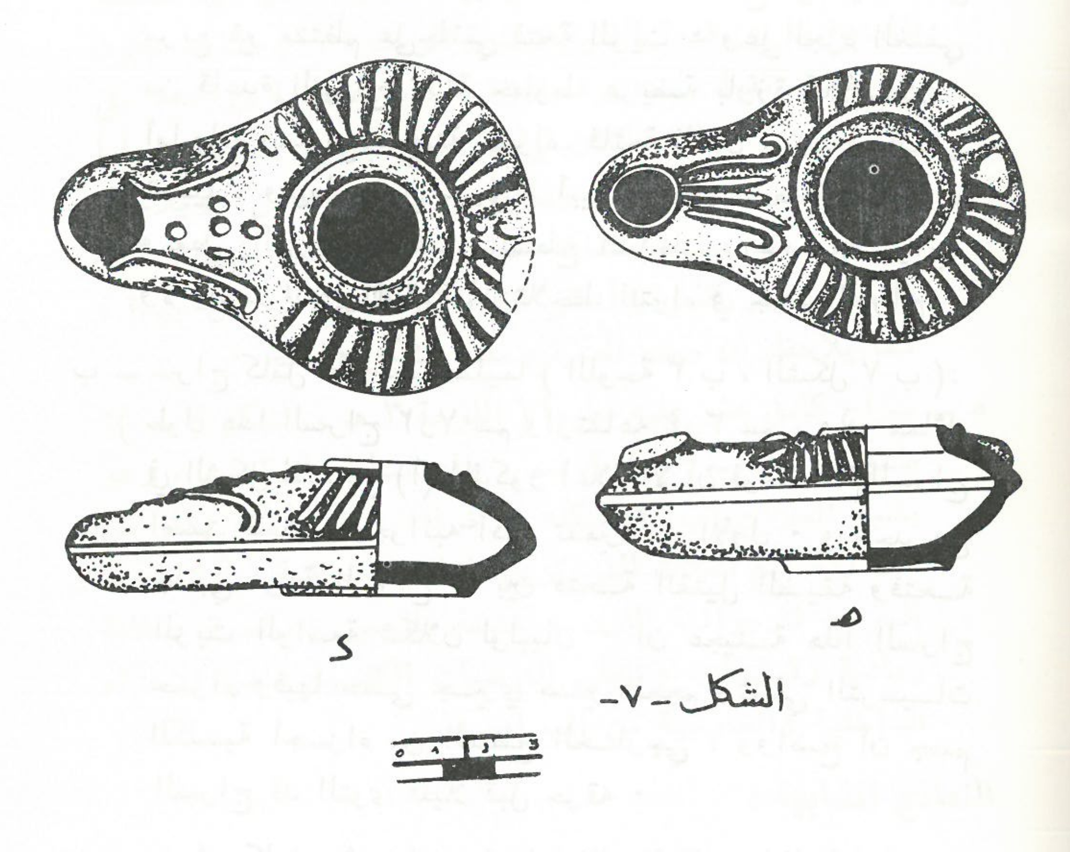
أ ــ سراج كامل ، عثر عليه مكسرا وتم ترميمه (اللوحة ٣ أ ، الشكل ٧ أ) : وطول هذا السراج ٧٫٦ سم ، وارتفاعه ٣٫٤ سم ، جسمه مستدير ، وفتحة الزيت واسعة وفوهة الفتيل مستدقة مع شيء من الاستطالة Stretched Nozzle وتنتهي من الأعلى بفتحة ضيقة للفتيل ٠ أما السطح العلوي للسراج ، فمحدب ، وهناك نتوء كروي صغير Pellet في أعلى مؤخرة السراج في موضع اليد ٠ لقد زخرف السراج بخطوط



الشكل -٧-



الشكل -٧هـ-



الشكل -٧-

شعاعية بارزة تمتد ما بين فتحة الزيت وكتـف السراج ، وقد زين الجزء العلوي بثلاثة صلبان ، يقع الأول على السطح الخارجي للفوهة ما بين فتحة الفتيل وفتحة الزيت ، وهو محاط بدائرة • أما الصليبان الآخران فقد وضع كل منهما داخل مربع غير منتظم على جانبي فتحة الزيت • وعلى الجزء الخلفي من قاعدة السراج ثلاثة خطوط عريضة بارزة كالأصابع • أما مادة السراج فعجينة حمراء، فاتحة اللون ، خشنة الملمس نسبيا ، وفيها حصى جيري ، أبيض اللون ، صغير الحجم ، وتغطي الترسبات الكلسية السطح الداخلي والخارجي للسراج، ولا يفوت العين المدققة أن تلاحظ التواء في جسم السراج •

ب ـ سراج كامل عثر عليه سليما (اللوحة ٣ ب ، الشكل ٧ ب): طول هذا السراج ٢ر٧ سم وارتفاعه ٤ر٣ سم ، وهو مماثل في الشكل للسراج (أ) المذكور أعلاه الا أن فوهة هذا السراج أضيق قليلا ، وجوانبه أكثر تقعرا من الأول • ويوجد على جانبي فوهة السراج ما بين فتحة الفتيل الضيقة وفتحة الزيت الواسعة شكلان لولبيان • ان عجينـة هذا السراج حمراء وفيها حصى جيري صغير الحجم وتغطي الترسبـات الكلسية أجـزاء من السطح الخـارجي ، وواضح أن جسم السراج قد التوى قليلا قبل حرقه •

ج ـ سراج كامل عثر عليه سليما (اللوحة ٣ ج ، الشكل ٧ ج) طول هذا السـراج ٢ر٧ سم ، وارتفـاعه ٢ر٢ سم ، وهو مماثل في الشكل والزخرفة للسراج (ب) الا أن هناك خمسة خطوط نافرة كالأصابع في المنطقة الواقعة بين فتحة الفتيل وفتحة الزيت ، انعجينة هذا السراجحمراء، خشنة الملمس، وسطحها مغطى بطبقة رقيقة من الكلس الأبيض •

د ـ سراج كامل عثر عليه مكسورا وتم ترميمه (اللوحة ٣ د ، الشكل ٧ د) طولهذا السراج ٣ر٩ سم، وارتفاعه ٦ر٢سم، وهو مماثل للأسرجة الثلاثة السابقة (أ ـ ج) ، الا أن هذا أكبر حجما ، اضافة الى وجود الزخارف التالية في المنطقة الممتدة ما بين فتحة الفتيل وفتحة الزيت : (١) صليب مكون من خمس نقط مستديرة بارزة ، ثلاث عمودية وواحدة على كل جانب • (٢) شكلان لولبيان على جانبي الفوهة • أما عجينة السراج فبيضاء ـ رمادية ، وملمسها خشن ، ويلاحظ في الجزء الأوسط منسماكة الجسم Core وجود طبقة رمادية قاتمة ، الأمر الذي يدل على أن عملية الحرق لم تكن جيدة ، كما يلاحظ أن جسم السراج ملتو بشكل واضح •

هـ ـ سراج كامل عثر عليه سليما (اللوحة ٣ هـ ، الشكل ٧ هـ): طـول هذا السراج ٨ر٤ سم ، وارتفـاعه ٨ر٢ سم ، وهو يشبه السراج (ب) في شكله وزخرفته ، غير أنـه يخلو من تلك الأصابع الثلاث التي تزين القاعدة الحلقية ، أما عجينة السراج فأرجوانية اللون ، خشنة الملمس ، مكسوة ببطانة رمادية رقيقـة ، وتغطي الترسبات الكلسية بعض الاجزاء الداخلية والخارجية من السراج •

النماذج المشابهة :

تزودنا البتراء بنموذجمشابه للسراج (أ) كتبعنه هورسفيلد وكونوي حيثذكر أنه أثر نبطي يرجعالى القرنالرابعللميلاد(٨١)، وهناك نمـوذج آخر تحـدث عنـه سالـر ، وأرجعـه الى الفترة الممتدة ما بين القرن الرابع والسادس للميلاد(٨٢) •

وهناك نماذج من البتراء مشابهة للسراج (ب) ، فقد كتب هورسفيلد وكونوي عن نموذج أرجعاه الى الفترة ما بين القرن

الثالث والقرن الرابع للميلاد[٨٣] ، كما كتب فيليب هاموند عن نموذج آخر دون أن يؤرخه[٨٤] ، يضاف الى هذا نموذج عثر عليه في طبقة فحل ، ويرجع الى القرن السادس للميلاد[٨٥] ٠

أما السراج (ج) ، فيمكن مقارنته مع كل من النموذج الذي كتب عنه أڤيجاد N. Avigad ، ويرجع الى منتصف القرن الرابع للميلاد[٨٦] والنموذج الذي كتب عنه سالير ، ويعود الى الفترة الممتدة ما بين القرن الرابع والقرن السادس للميلاد[٨٧] ٠

وفي وسعنا أن نقارن السراج (د) مع النماذج التي كتب عنها كروفوت[٨٨] ، وساليري[٨٩] ، وأحروني Y. Aharoni الذي أرجع نموذجه الى الفترة الممتدة ما بين القرن الخامس والسادس للميلاد[٩٠] ٠

لقد تم العثور في المواقع النبطية على نماذج مماثلة للسراج (هـ) ، ومن بين هذه النماذج ذاك الذي عثر عليه في خربة التنور[٩١] ، والآخر الذي عثر عليه هورسفيلد وكونوى خلال عمليات التنقيب في البتراء عام ١٩٢٩ ، وقد أرجعا تاريخ هذا النموذج للقرن الرابع للميلاد[٩٢] ٠

الخلاصة :

واضح مما سبق أن النوع الأول من الأسرجة التي عثر عليها في حفريات البتراء عام ١٩٨١ (الشكل ٧ أ ، ــ هـ) ، لم توجد الا في المواقع النبطية وأن وجود شبه بيّن بينها وبين النماذج التي عثر عليها في المواقع غير النبطية لا يحول دون ملاحظة بعض الاختلافات الرئيسية : ان أجسام الأسرجة التي عثر عليها في البتراء أقل سماكة وخشونة من أجسام الأسرجة البيزنطية التي عثر عليها في المواقع غير النبطية ٠ واذا نحينا السراج الرابع

(د) جانبا فان مجموعة الأسرجة التي نتحدث عنها تمتاز بصغر حجمها اذ يتراوح طول الواحد منها بين ٢ر٧ ــ ٤ر٨ سم ، كما يتراوح ارتفاعها بين ٢ر٢ ــ ٨ر٢ سم ٠ كما أن حافتي الفوهة مقعرة قليلا ، بينما تتصف الأسرجة التي عثر عليها خارج المواقع النبطية بحواف مستقيمة تبدأ من الكتفالدائريللسراج وتنتهي عند حافة الفوهة الامامية اضافة الى ثلاثة خطوط عريضة بارزة كالأصابع على الجزء الخلفي من قاعدة السراج وربما تكون دلالة هذه « الاصابع الثلاث » دينية أكثر منها زخرفية ، أي أنها ربما ترمز للثالوث الأقدس في العقيدة المسيحية ، أو هي علامة مميزة للشخص الذي صنع قالب السراج ، وهي في هذه الحالة شكل من التوقيع ولقد أخفقت تماما في العثور على حالة أخرى لهذه العلامة بحيث بدت الأسرجة التي تحملها فريدة على نحو واضح ، الأمر الذي يشير الى كونها نتاج « مدرسة » واحدة لها خصائص خزفية وفنية متميزة رغم الشبه الجزئي بينها وبين تلك الأسرجة البيزنطية التي عثر عليها خارج المواقع النبطية ٠ ان الأمر المرجح ، والحالة هذه ، أن الأسرجة التي عثر عليها في حفريات البتراء لعام ١٩٨١ محلية وليست مستوردة من جهة ما ٠ كما يمكن القول أنها ترجع الى الربعين الثاني والثالث من القرن السادس الميلادي ٠

انه لأمر هام أن نذكر أنه قد عثر في معظم المواقع الاثرية ، غير النبطية ، في فلسطين والاردن على كميات كبيرة من الأسرجة التي تعرف باسم « الخف » ، وربما يكون طراز « الخف » خارج البتراء هو النموذج الذي استلهمه صانع أسرجة البتراء في العصر البيزنطي ، ناقلا بعض العناصر البيزنطية كالشكل والأسلوب ، مضيفا اليها عناصر ذاتية خالصة ٠

النوع الثاني من الأسرجة :

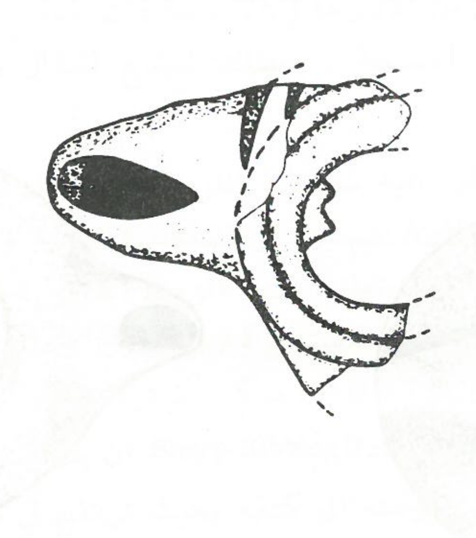
يتمثل هذا النوع من الاسرجة في الاسرجة ذات الجسم المخروطي، والقاعدة المستديرة المبسطة ، وهناك نماذج أشكال مختلفة من هذا النوع هي :

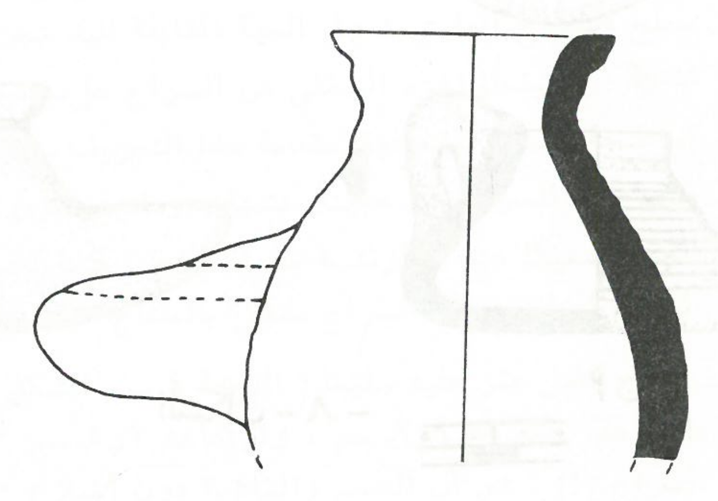
أ ـ سراج كامل عثر عليه سليما (اللوحة ٤ أ ، الشكل ٨ أ) : طول السراج ٧ر٨ سم ، وارتفاعه ٤ سم ٠ ويتميز هذا السراج بجسم قمعي تعلوه فتحة الزيت الدائرية ذات الحافة المبسطة ٠ أما قاعدته فمستديرة ومبسطة ، وعليها من الجهة الخارجية دوائر بارزة ذوات مركز مشترك ٠ أما الجسم فقد غطي بأضلاع أفقية حادة Sharp Ribbing ان يد السراج حلقية صغيرة وتمتد من فوهته الى كتفه بحيث ترتفع في ذروتها عن سطح السراج العلوي ٠ وفي الجهة المقابلة لليد تجويف صغير Spout أضيف الى الجزء السفلي من السراج على مستوى القاعدة أما فتحة الفتيل فتقع فوق مقدمة هذا التجويف مباشرة ٠ لقد صنع هذا السراج من عجينة خشنة ، رمادية اللون ٠ ويبدو الجسم سميكا عند مقارنتــه مع السراج ، كما يلاحـظ أن السطح الخارجي من السراج مغطى بالسناج ٠

ب ـ سراج كامل عثر عليه سليما (اللوحة ٤ ب ، الشكل ٨ ب) : طول هذا السراج ٩ر٨ سم ، وارتفاعه ١ر٥ سم ٠ ويشبه السراج (أ) ، غير أن الجسم والقاعدة دون أضلاع ٠ كما أن الفوهة تتسع كلما اتجهنا نحو الأعلى لتأخذ في النهاية شكل المحقان ٠ وعجينة السراج رمادية اللون ، سميكة ، مكسوة ببطانة رمادية فاتحة ورقيقة ٠ وهناك ترسبات كلسية فوق أجزاء من الجسم الخارجي للسراج ٠

ب أ

الشكل - ٨ -







الشكل - ٨ ج -

ج ـ كسرة كبيرة من سراج (اللوحة ٤ ج ، الشكل ٨ ج) : يشبه هذا السراج القارورة ، وله فوهة قمعية تتجه نحو الخارج ، والسطح العلوي للفوهة مبسط أما عجينة الكسرة فحمراء من الجهتين الداخلية والخارجية ، وتأخذ لونا رماديا قاتما في الوسط ٠ وتبدو فوق الجسم أضلاع أفقية حادة غير بارزة ، ويكسو السناج بعض أجزاء السطح الخارجي للكسرة ٠

هناك نماذج مشابهة للسراج (أ) في دراسات كل من ماكلستر R. Macalister (٩٣) ، وفتسجيرالد(٩٤) ، وأحروني الذي عثر في الطبقة الثانية من رامات راحيل على نموذج مشابه يرجع الى الفترة ما بين القرن الخامس والسادس للميلاد(٩٥) ، أما مقالة كولن ـ بيلي فتتحدث عن نموذج مشابه عثر عليه في موقع نسانة ، وقد أرجع الباحث تاريخ هذا النموذج الى أواخر العصر البيزنطي وأوائل العصر الاسلامي(٩٦) ، كما نجد نموذجا مشابها كتب عنه كوربو V. Corbo دون أن يحدد تاريخه(٩٧) ٠ وينطبق ذات الحكم على النموذج الذي عثر عليه في جزيرة قبرص ونشره أوزيول وبويلوكس Oziol and Pouilloux (٩٨) ٠ الا أن روزينثال وسيفان Rosenthal and Sivan قد أرجعا تاريخ هذا النموذج من الأسرجة الى أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع الميلادي (٩٩) ، غير أن سيليرز وبرامكي قد ذهبا الى صعوبة ارجاع تاريخ هذا النموذج الى ما قبل القرن الرابع للميلاد(١٠٠) ٠

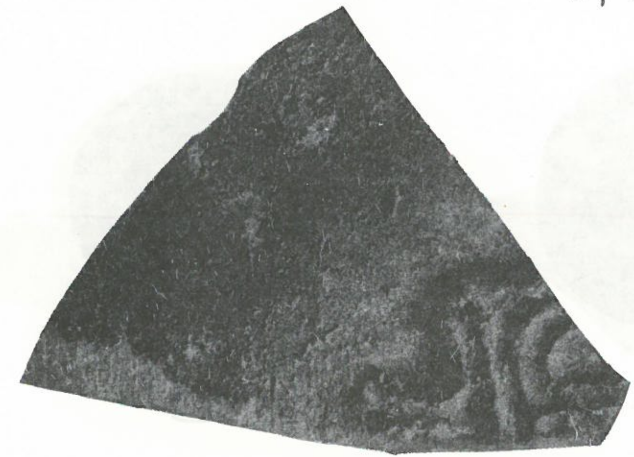
أما بالنسبة للسراج (ب) فان له نظيرا عثر عليه في سبسطية ، وقام كروفوت J. Crowfoot بدراسته حيث أرجع تاريخه الى الفترة ما بين القرن الثالث والرابع للميلاد(١٠١) ٠ كما عثر في تل النصبة على نموذج يحمل الرقم ١٦٥٠ وقام ماكوين C. MacCown

بدراسته(١٠٢) • وقد أرجع كولن بيلي تاريخ النموذج الذي عثر عليه في نسانة الى أواخر العهد البيزنطي وأوائل العصر الاسلامي(١٠٣) • وفي وسعنا أن نشير أخيرا الى ذلك النموذج الذي تحدث عنه ماكلستر وأرجع تاريخه الى أواخر العصر البيزنطي(١٠٤) •

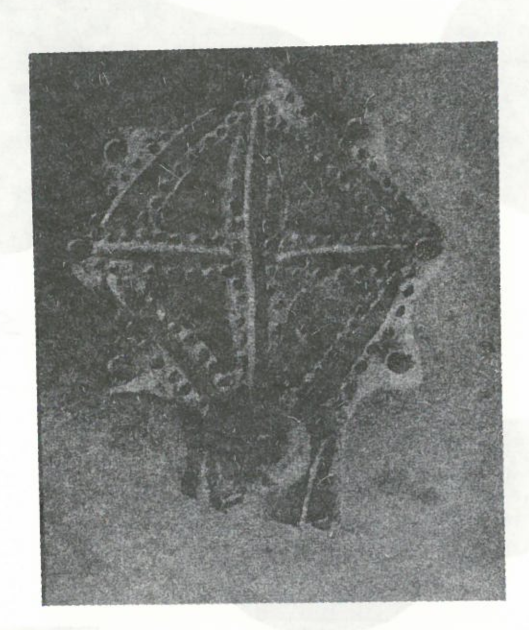
الخلاصة :

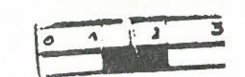
لقد عثر على النماذج الثلاثة من الأسرجة المؤلفة للنوع الثاني ذي الشكل القمعي في الطور الخامس من حفريات البتراء لعام ١٩٨١ ، ويرجع تاريخ هذه النماذج الى الربعين الثاني والثالث من القرن السادس للميلاد • ومن الملاحظ أن هذا التاريخ لا يتعارض مع التاريخ الذي أعطى لمعظم النماذج المشابهة •

اللوحة - (١ ، ٢) -



اللوحة - ١ أ -



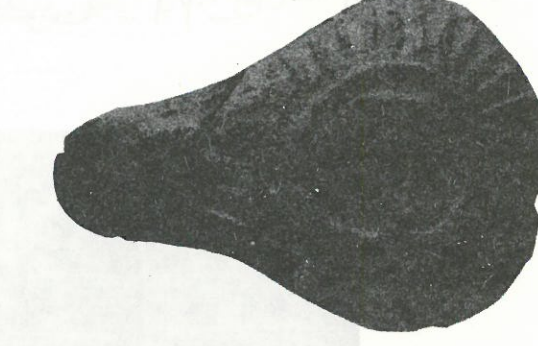


اللوحة - ٢ ب -

اللوحة - ٣ -

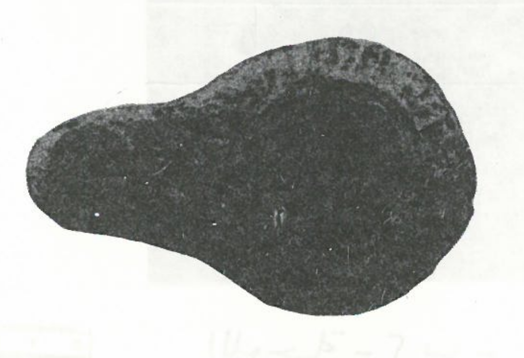
ب

أ



د

ج



هـ

اللوحة - ٤ -

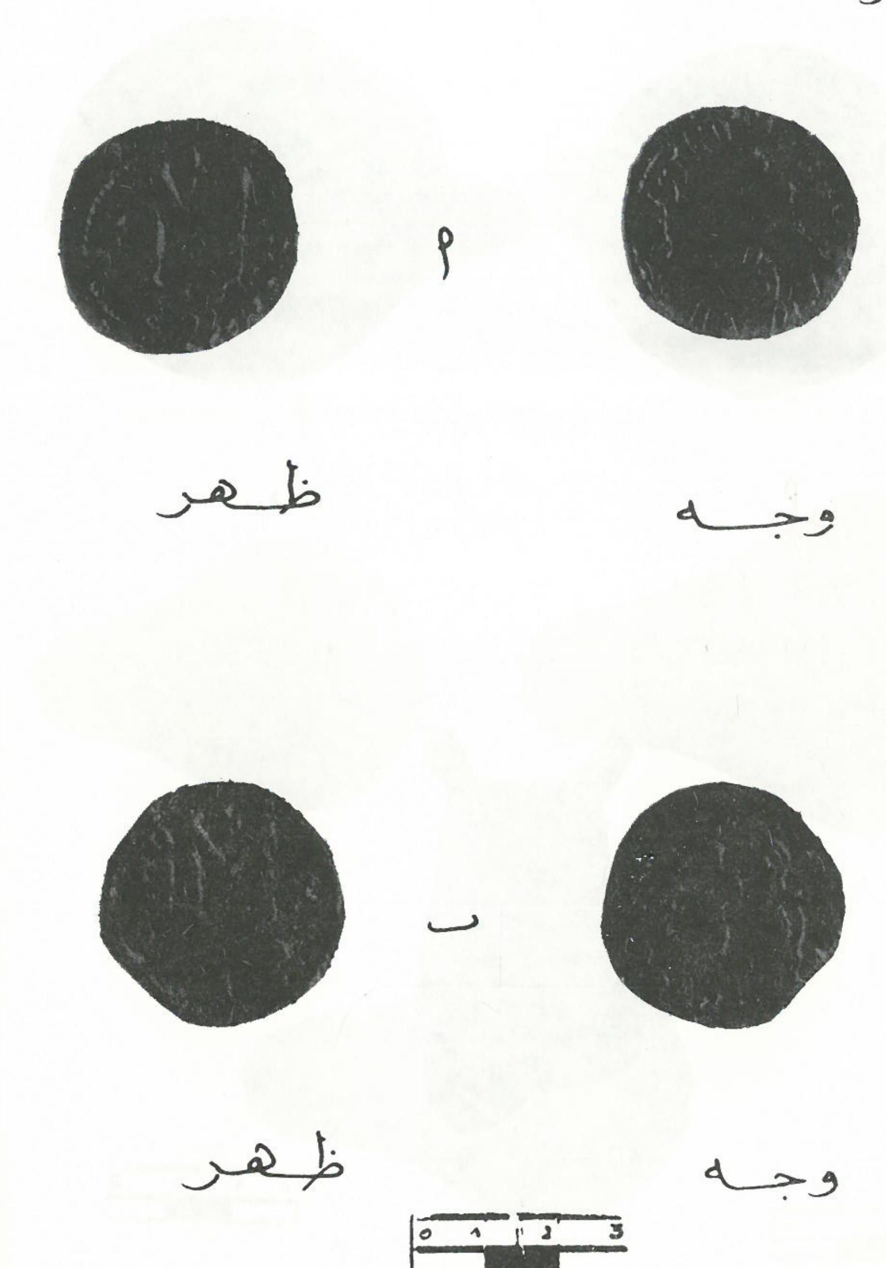
ب

أ



ج

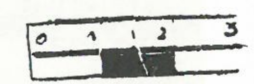
اللوحة - ٥ -



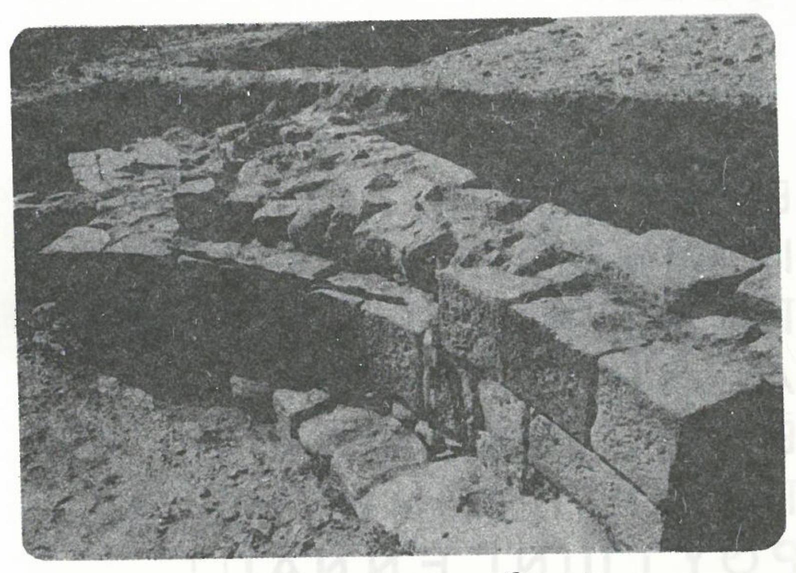
اللوحة - ٦ -

ΕΠΙΤΟΥΟϹΙΩΤΑΤΟΥ
ΙΑϹΩΝΟϹΕΠΙϹΚΟ
ΠΟΥΘΥΧΑΡΙΤΙΗΓΙ
ΑϹΘΗΟΤΟΠΟϹΤΗ
ΕΛΩΟΥΤΟΥЄΤΜΑ
ΠΑΡΟΝΤΟϹΝUΥΜΕ
ΡΟΥΤΩΝΓΕΝΝΑΙΟ
ΤΑΤΩΝΤ///ΤΙΛ/ΡΑΜΛ
ΤΩΝΚΑΙΙΟΥΛΙΑΝΟΥΔΙ
ΑΚΟΝΟΥΑϹ|ΤΛΝΙΑϹ+
ΧΡϹΩϚΟΝΤΟΙ///Λ////

نقش قبر الجرة

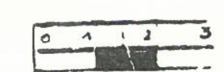


اللوحة -٧-



أ- الحنية





ب- ربع تاج نبطي

الهوامش

١ – T. J. Collin Baly, **Excavations at Nessana**, Vol. I, (ed.) H. Dunscombe Coltt, (London : Colt Archaeolgical Institute,, 1962). Collin Baly, **Nassana :**
سيشار لهذا المصدر فيما بعد

٢ – A. Negev, "The Churches of the Central Negev-An Archaeolical Survey," **Revue Biblique**, Vol 81. (1974), pp. 400 - 421.

٣ – F. Winnett and W. Reed, "The Excavations at Dibon (Dhiban)) in Moab, **The Annual of the American School of Oriental Research**, Vols. 36-37, (1964).

٤ – A. D. Tushingham, "The Excavations at Dibon (Dhiban) in Moab,' **The Annual of the American Schools of Oriental Research**, Vol. 40, (1972).

٥ – R. Brunnow and A. Domaszewski, **Die Provincia Arabia**, Strassburg : Verlag Von Karl J. Trubner, 1904), p 46; I. Browning, **Petra**, (London : Chatto and Windus, 1973), p. 57.

٦ – M. A. Murray, **Petra**, (London : Blacki and Son Limited, 1939 pp. 54-55.

٧ – A. Moore, **The Early Church in the Middle East**, (Beirut : Aleph, 1968), pp. 1-30.

٨ – G. Horsfield, and A. Conway, "Sela-Petra, The Rock of Edom and Nabatone", **The Quarterly of thte Department of Antiquities in Palestine**, Vol. 9. (1942), p. 155, Fig. 19 215.
Horsfield and Conwny, **Sela - Petra :**
سيشار لهذا المصدر فيما بعد

٩ - J. W. Hayes, **Late Roman Pottery**, (London : The British School at Rome, 1972), pp. 332-338, Form 3E, Fig 68.
16. Hayes. **Pottery** :
سيشار لهذا المصدر فيما بعد

١٠- J. L. Kelso and D. C. Baramki "Excavations at New Testament Jaricho and Khirbet En Nitla", **Annual of the American School of Oriental Reseorch**, Vols. 29 - 30 (1955), p. 26, pls. 23.42.

١١- J. W. Crowfoot et. al. **The Objects from Samaria : Samaria Sebaste**, Vol. 3, (London : Palestine Exploration Fund, 1957), p. 359. Fig. 84. 13.
Crowfoot, **Samaria Sebaste**.

١٢- Hayes, **Pottery**, pp. 332 - 338, Fig 67. 7.
سيشار لهذا المصدر فيما بعد

١٣- Collin-Baly, **Nessana**, pl 6, Group 14. C1, C2, C3.

١٤- P. Delougaz and R. C. Haines, "A Byzantine Church at Kharbet al -Kerak, **"The University of Chicago Oriental Institute Puplications**. Vol 85, (Chicago : University of Chicago Press, 1960), p. 31, pl. 52. 15.

Dolougaz and Haines, **Khirbet Kerak** :
سيشار لهذا المصدر فيما بعد

١٥- Hayes, Pottery, pp. 330 - 338, From 3C, Fig. 68. 10.

١٦- Crawfoot. **Samaria-Sebaste**, pp. 358-359. Fig 84.11.

١٧- H. S. Robinson, **The Athenian Agora**, Vol. 5 : Pottery of the Roman Period - Chronology, (Princeton : American School of Oriental Research, 1959) p. 84, pl. 71. m 350
Robinson. Athenian Agora :
سيشار لهذا المصدر فيما بعد

١٨- R. H. Smith, **Pella of the Decapolis**, Vol. 1, (Wooster : The College of Wooster, 1973), p. 217, pl. 43. 1240.
Smith, Pella :
سيشار لهذا المصدر فيما بعد

١٩- Collin Baly, **Nessana**. pl. 6, Group 14. C3.

٢٠- Delougaz and Haines, **Khirbet Kerak**, p. 31, pl. 52. 15.

٢١- H. Schneider "The Memorial of Moses. on Mount Nebo" Vol.3, **Studium Biblicum Franciscanum**, Vol. 1, (Jerusalem : Franciscon Printing Press, 1950), pp. 104-105, Fig. 12. 3.
Schneider, **Mount Nebo** :
سيشار لهذا المصدر فيما بعد

٢٢- Hayes, Pottery, pp 334 - 338, Fig. 68.28.

٢٣- Hayes, Pottery, pp. 332 - 338, From 3H, Fig. 68. 28.

٢٤- O. R. Sellers and D. C. Baramki."A Roman - Byzantine Burial Cave in North Palestine" **Bulletin of the American School of Oriental Rescearch, Supplement Studies,,** Vols. 15 - 16, (1953), pp. 26-28, Fig. 30. 3.
Sellers and Baramki, **Burial Cave** :
سيشار لهذا المصدر فيما بعد

٢٥- Robinson. Athenian Agora, p. 117, pl. 36. M 351.

٢٦- F. O. Waage, **Antioch on - the Orontes**, Vol. 4.1 ; **Ceramics and Islamic Coins**, (Princeton : Princeton University Press. 1948), p. 53, pl . XI, Shape 944.
Waage, **Antioch** :
سيشار لهذا المصدر فيما بعد

٢٧- G. M. Fitzgerald, **Beth - Shan Excavations 1921 - 1923 : The Arab and Byzantine Levels**, (Philadelphia : University of Pennsylvania Press, 1931), pl.. XXXI. 15. 16.
Fitzgerald. **Beth Shab** :
سيشار لهذا المصدر فيما بعد

Collin - Baly, **Nessana,** pl. XLVIII, Shape 14. A3. ـ٢٨

Delougaz and Haines, Khirbet Kerak, pls, 31. 10, 33.2, 54.7-9. ـ٢٩

Hayes. **Pottery,** pp. 146 - 147. From 93, Fig. 27.19. ـ٣٠

Waage, **Antioch.** pl. IX, Shape 852 p. ـ٣١

Collin - Baly, **Nessana,** pl. 6. Group 9.1, ـ٣٢

Hayes, **Pottery,** pp. 170 - 172, From 107. Fig. 33. 1-2. ـ٣٣

P. A. Fevrier, **Fouilles de Setif : Les Basiliques Chretiennes du Quartier Nord - Ouest,** (Paris, 1065), p. 127, Fig. 28. G-H. 1-2. ـ٣٤

سيشار لهذا المصدر فيما بعد

Hayes, **Pottery,** pp. 339 - 340. From 58, Fig. 70.3. ـ٣٥

S. J Saller, "Excavations at Bethany 1949-53", **Studium Biblicum Franciscanum,** Vol. 1, (Jerusalem : Franciscan Printing Press, 1957), pp. 257 - 258, Fig. 49, No. 3085. ـ٣٦

Saller, **Bethany.**

سيشار لهذا المصدر فيما بعد

Smith, **Pella,** p. 218, pl. 43, 1244. ـ٣٧

Waage, **Antioch.** p. 57. ـ٣٨

Hayes, **Pottery,** pp. 134 - 136, Form 87A, Fig. 24.2. ـ٣٩

Hayes, **Pottery,** pp. 134 - 136, Fig. 24.4. ـ٤٠

Schneider, **Mount Nebo,** p. 195. Fig. 12.4. ـ٤١

Smith, **Pella,** pl. 43. No. 1240. ـ٤٢

Saller. **Bethany,** pp. 257 - 258, Fig. 49, No. 5355. ـ٤٣

M. A. Murray and J.C. Ellis, **A Street in Petra,** (London : British School of Archaeology in Egypt, 1940), p. 21, pl. XXVI. 21. ـ٤٤

Smith. **Pella,** p. 218,pl. 42.1309. ـ٤٥

Schneider, **Mount Nebo,** p. 62. Fig. 5 - 11. ـ٤٦

Delougaz and Haines, **Khirbet Kerak,** p. 31, pl. 52.57 - 62. ـ٤٧

Collin - Baly, **Nessana,** pl. 7, Group 28. 1 - 4. ـ٤٨

Robinson, **Athenian Agora,** p. 84. pl. 71 M352, From "Layer" XIIIV. ـ٤٩

Crowfoot, **Samaria - Sebaste,** pp. 359 - 361, Fig. 84. 24. ـ٥٠

Fitzgerald, **Beth - Shan,** p. 38, pl. XXXIV. 47. ـ٥١

Waage, **Antioch,** p. 48, Fig. 31 top, pl. VIII, Shape 805u. ـ٥٢

Hayes. **Pottery,** pp. 162 - 163, Form 104 B and C. Fig 30.15-16, 23,29. ـ٥٣

Crowfoot, **Samaria - Sebaste,** pp. 359 - 360, Fig. 84.24. ـ٥٤

Delougaz and Haines, **Khirbet Kerak,** p. 32, pl. 53. 9 - 15. ـ٥٥

Schneider, **Mount Nebo.** pp. 62 - 105, Figs. 5.9. 12,1A. ـ٥٦

Hayes, **Pottery,** pp. 378 - 380, Form 9, Figs. 81.9. 82.12. ـ٥٧

Collin - Baly, **Nessana,** pl. 6, Group 12.A 11. ـ٥٨

W. Catling and A. Dikigoropoulos, "The Kornos Cave : an early Byzantine Site in Cyprus". **Levant,** Vol. 2 (1970), pp. 40 - 47. ـ٥٩

Dolougaz and Haines. **Khirbet Kerak,** pl. 52. 32 - 38, 53.2, 54.4. ـ٦٠

Y. Aharoni et. al **Excavations at Ramat Rahel, Seasons 1959 and 1960,** Vols. L 11. (Rome : Centro di Studi Semitici, 1962, Fig. 17.5. ـ٦١

Fitzgerald. **Beth - Shan.** pl. XXXIV. 46. ـ٦٢

Haves, **Pottery,** p. 371 ff., Form 9. Fig 81.5. ـ٦٣

Schneider, **Mount Nebo**, p. 105 Fig 12.2. ـ٦٤

Saller, **Bethany**. pp. 257 - 258, Fig 49, No 3486. ـ٦٥

Hayes, **Pottery**, pp. 112 - 116, Form 67, Fig. 19. 6, 17. ـ٦٦

G. Camp, "La necropole de Draria el-Achour", **Libyca**, Vol 3. 225 - 264. ـ٦٧

J. Holwerda, **Het Laat - grieksche en Romeinsche gebruiks - aarde-Week uit het Middellansche-zee gebied in het Rijksmuseum van Oudheden te Leiden**, (Gravenhage, 1936), Nos. 652 - 653, Fig. 14, pls. V and X. ـ٦٨

R. J. Charleston, **Roman Pottery**, (London : Faber and Faber, 1955), pp. 21-24, pl. 22 B. ـ٦٩

P. C. Hammond, **The Excavation of the Main Theater at Petra 1961 - 1962, Final Report**, (London : Colt Archaeologgical Institute, 1965), p. 17. pl. LIII. 3a-b. ـ٧٠

Hayes, **Pottery**, pp. 408 - 409, Fig. 92.3. ـ٧١

Saller, **Bethany**, p. 258, Fig. 49, Nos. 3077 and 3077A. ـ٧٢

Robinson, **Athenian Agora**, pp. 84, 117, pl. 36. M 351. ـ٧٣

Collin - Baly, **Nessana**, pl. 20, Group C. 1-7. ـ٧٤

Fitzgerald, **Beth-Shan**, pl. XXXIV. 47. ـ٧٥

Crowfoot, **Samaria-Sebaste**, pp. 359, 361, Fig. 48.24. ـ٧٦

N. I. Khairy, "Al-Quweismeh Family Tomb", **Palestine Exploration Quarterly**, No. 112 (1980), pp. 51-61, Fig. 7 b. ـ٧٧

G. R. Davidson, Corinth, Vol. 12 : **The Minor Objects**, (Princeton, 1952), p. 7, No. 579 and pl. 53. ـ٧٨

Crowfoot, **Samaria - Sebaste**, p. 376, Fig. 89a. ـ٧٩

J. Perlzweig. **The Athenian Agora** Vol. 7 : **Lamps of the Roman Period**, (Princeton : American Schools of Oriental Research, 1961, p. 200, Nos. 2948 - 2949 and pl. 48. ـ٨٠

Horsfield and Conway, **Sela-Petra**, p. 137, pl. VI. 125. ـ٨١

Saller, **Bethany**, pp. 52-53, Fig. 16.3. ـ٨٢

Horsfield and Conway, **Sela-Petra**, p. 159, pl. XXIX. 239. ـ٨٣

P. C. "Hammond, Pottery from Petra", **Palestine Exploration Quarterly**, No. 105 (1973), p. 37, No. 143 on p. 49. ـ٨٤

Smith, **Pella**, p. 219, pl. 66, No. 369. ـ٨٥

N. Avigad, **Beth She'arim**, Vol. 3, (Jerusalem : Massada Press, 1976), p. 184, pl. LXXXI. 33. ـ٨٦

Saller, **Bethany**, pp. 52 - 53, Fig. 16.6. ـ٨٧

Crowfood, **Samaria- Sebaste**, p. 376, Fig. 89.5. ـ٨٨

Saller. **Bethany**, p. 181, Fig. 16.10. ـ٨٩

Y. Aharoni, "Excavtions at Ramat Rahel 1954 :Preliminary Report", **Israel Exploration Journal**, Vol. 6 : 2(1956), p. 108, Fig 4.2. ـ٩٠
Aharoni, **Ramat Rahel** :

سيشار لهذا المصدر فيما بعد

N. Glueck, **Deities and Dolphins**, (London : Cassel, 1965), p. 183, pl. 82a. ـ٩١

Horsfield and Conway, **Sela - Petra**, p. 137, pl. VI.5. ـ٩٢

R. Macalister, **The Excavation of Gezer**, Vols. 1-3, (London Palestine. Exploration Fund, 1912), pl. LXXII. 11. ـ٩٣
Macalister, **Gezer** :

سيشار لهذا المصدر فيما بعد

Fitzgerald, **Beth-Shan**, pl. XXXVI. 25. ٩٤-

Aharoni, **Ramat-Rahel**, p. 108, Fig. 4.3. ٩٥-

Collin-Baly, **Nessana**, pp. 63-64, pl. XXVIII. 23. ٩٦-

V. Corbo, **Richrche Archaeologicle al Monte degli Ulivi**, (Jerusalem, 1965), pl. 25.21. ٩٧-

T. Oziol and J. Pouilloux, **Salamine de Shypre Vol. 1 : Les Lampes**, (Paris : Universite de Lyon-Institut F. Courby, 1969), p. 115, No. 475, pls. XI, XXV. ٩٨-

R. Rosenthal and R. Sivan, "Ancient Lamps in the Schloessinger Collection" **Qedem** : Monograph of the Institute of Archaeology, (Jerusalem : The Hebrew University of Jerusalem, 1978) pp. 122-123, Nos. 506-507. ٩٩-

Sellers and Barmaki, **Burial Cave**, pp. 40-41, Fig. 42, Nos 208, 399. ١٠٠-

Crowfoot, **Samaria- Sebaste**, pp. 376-377, No. 10, Fig. 89. 10. ١٠١-

C. MacCown, **Tell en-Nasbeh** 1-3, (Berkley : The Palestine Institute of Pacific School of Religion and the American Schools of Oriental Research, 1947), pl. 72. 1650. ١٠٢-

Collin1Baly. **Nessana**, pp. 63-64, pl. XXVIII. 22. ١٠٣-

Macalister, **Gezer**, pl. C1 (a). 11. ١٠٤-

التطور الاداري لبلاد الشام
بين بيزنطة والعرب

نقولا زيادة

(١)

بلاد الشام ، في دلالتها الجغرافيــة وأبعــادها التاريخية ، هي الرقعة التي تمتد من جبــال طوروس ، عــلى حدود آسية الصغرى شمالا ، إلى صحراء سينا ومشارف الشراة جنوبا ؛ ومن البحر المتوسط غربا الى بادية الشام شرقا • وهذه الرقعة تتباين سطحا وتختلف مناخا وتتنوع حياتها نتيجة لهذين الأمرين ، بحيث أن تاريخها الطويل يبدو في غاية الغرابة اذا قوبل ، مثلا ، بتاريخ مصر أو أرض الرافدين المعاصر له ــ فترة فترة •

يصاقب (يقارب) البحر المتوسط سهل ساحلي يمتد من الاسكندرونة الى رفح • الا انه ليس سهلا متصلا ؛ هو أقرب لأن يكون جيوبا سهلية ساحلية تتعاقب من سهل الاسكندرونة الى سهل اللاذقية فطرابلس فبيروت فصيدا وصور وعكا وحيفا • وهذه جميعها تفصل بينها نتوءات صخرية تنحدر من الجبل الواقعة شرقها الى البحر • وبعض هذه السهول لا تتجاوز بضعة كيلو مترات عمقــا في الداخل من الشاطيء • وبعد جبل الكرمل يبدأ سهل ساحلي تصح تسميته كذلك • ويبدأ ضيقا لكنــه يتسع تدريجــا حول طولكرم ويزداد اتساعه عند يافا ثم عند غزة ، حيث يتجاوز عرضه ثلاثــين كيلو

مترا . وهذه السهول الساحلية هي ما بناه الطمي والغرين الذي حملته المياه النازلة من الجبال عبر آلاف وآلاف السنين .

وتحنو سلاسل جبال متلاحقة على السهول الساحلية ، من أمانوس الى جبال النصيرية (اللاذقية) فلبنان فمرتفعات الجليل ومرتفعات نابلس ثم جبال القدس والخليل . وهذه تنحدر تدريجا حتى تفقد وجودها في صحراء سيناء .

وثمة سلسلة جبال شرقية ، ولو انها أقل انتظاما ، اذ انها بعد أن تظهر وجودها في جبل الأكراد ، تختفي الى أن تعود الى الظهور في لبنان الشرقية (او أنتيلبنان) التي يتوجها جبل الشيخ . وهذه بدورها تتصل بهضاب الأردن التي تصل أخيرا الى الشراة .

وبين سلسلتي الجبال ـ الغربية والشرقية ـ تمتد سهول خصبة تبدأ بالقاع حول حلب والغاب (حوض العاصي) وتصل الى البقاع اللبناني . وبعد اجتياز الحدود اللبنانية الى فلسطين تبدأ هذه الأجزاء الداخلية بالانخفاض تحت سطح البحر ، انطلاقا من سهل الحولة ـ بحيرة طبريا وجوارها نحو ٢٠٠ م تحت سطح البحر وفي جهات البحر الميت نحو ٤٠٠م تحت سطح البحر .

أما السلسلة الشرقية فتنحدر نحو البادية محتضنة المناطق الشرقية من بلاد الشام التي يمكن أن نطلق عليها « سيف الصحراء الشامي » .

وبلاد الشام يعطف عليها البحر فيزودها بالمطر في فصل الشتاء، لكن هذه الأمطار تتناقص كلما اتجهنا جنوباً وشرقاً . أما البادية

فتهب منها رياح لافحة في الصيف باردة في الشتاء ، جافة في جميع الحالات . ومثل هذا يمكن أن يقال عن المناطق المحاذية لبلاد الشام جنوبا ـ صحراء سيناء وصحراء بلاد العرب . الرياح التي تهب من الشمال تحمل لبلاد الشام برداً قارساً في الشتاء ، وقد يكون الهواء الهاب منها فيه بعض الانعاش في الصيف . لكنه جاف أيضا .

على ان المناطق الشرقية والشمالية والغربية لم يكن تأثيرها في المناخ فحسب ، بل من هذه النواحي جاءت موجات السكان في أوقات مختلفة وعصور متتابعة .

وبلاد الشام ، منذ ان بدأ الانسان ـ في هذه المنطقة على الاقل ـ ينتج أكثر من حاجته للاستهلاك ، أي منذ ان اصبح لديه فائض اقتصادي (في مصر والعراق مثلا) أخذ يتبادل سلعه مع جيرانه ، وأخذت بلاد الشام تسهم في هذا العمل اسهاما كبيرا . فتقوم بنقل المتاجر ، وتعنى بخزنها ، وتهتم بتسويقها . ومن هنا كان قيام مدن القوافل التي تنقط الطرق التجارية عبر بلاد الشام .

وبسبب من هذا التنوع العجيب في سطح البلاد ، ولان مناطق صغيرة منها كانت منفصلة عن غيرها دوما بسبب الجبال والانهار وما الى ذلك ، فان البلاد نشأت ، منذ الالف الثالث ق٠م ، على ان تكون لمدنها كيانات مستقلة المدن ـ الدول (أو المدينة ـ الدولة) . ويبدو أن العادة غلبت على أى شيء آخر ، فظلت بلاد الشام بلدا فيه دول كثيرة مستقلة ، لا ترضي بالوحدة . أما تعاونها معا أو اقتتالها فيما بينها فكانت أموراً تمليها المصلحة .

والفترات الوحيدة التي كانت فيها بلاد الشام جزءا واحدا موحدا جاءت إبان قيام الامبراطوريات الشرقية القديمة • عندها كانت تصبح جزءا من امبراطورية واسعة •كانت دولا متفرقة قبل الامبراطوريات (الألف الثالث وبعض الثاني ق•م•) ثم خضعت للامبراطورية العمورية بعض الوقت ، وضمها المصريون الى امبراطوريتهم ، وكذلك فعل الحثيون بالنسبة الى جزئها الشمالي • لكن بين حول ١٢٠٠ وحول ٨٠٠ •قم• عادت إلى عادتها القديمة فقامت فيها ممالك مدنية ، الى أن أعادها الاشوريون والكلدانيون والفرس الى بيت الطاعة •

(٢)

لسنا ننوى أن نتابع تطور المدن ــ الدول التي نشأت في بلاد الشام • كما أننا لا نعتزم التحدث عن التطورات الادارية التي عرفتها البلاد في تاريخها الطويل • فهذان أمران ليس لهما في هذا البحث مكان • لكننا ، كي نفهم ما كانت عليه الأوضاع الادارية في أواخر العهد البيزنطي ، تمهيدا للتحدث عما طرأ عليها اذ أصبحت بلاد الشام جزءا من الدولة العربية ، يتحتم علينا أن نتناول ما مر عليها منذ أن فتحها الاسكندر في الثلث الأخير من القرن الرابع ق•م•ذلك بأن الفترة المعروفة بالعصر الهلينستي، أي منذ فتوح الاسكندر الى أيام السيد المسيح (أو قيام الامبراطورية الرومانية على عهد أغسطوس) كان لها أثر كبير في تطور الأوضاع التي نجدها في أواخر العصر البيزنطي •

والمؤرخون يكثرون الحديث عن المدن التي أنشئت في بلاد الشام على أيدى الاسكندر وخلفائه والرومان بعدهم • ونحن لا نختلف معهم • لكن يتوجب علينا أن نتذكر أن خبرة البلاد في المدن

وتطورها كانت أقدم من ذلك • ولذلك فاننا نود أن نضع أمام القارىء لائحة بأهم المدن التي عرفتها بلاد الشام في نهاية العصر الفارسي ، أي قبل وصول الاسكندر •

فقد كانت تقوم على السواحل الشامية (السورية ــ اللبنانية ــ الفلسطينية) المدن التالية (من الشمال الى الجنوب) : جبلة (جبلة) وارادوس (أرواد) وطرابلس وببلوس (جبيل) وبيريتس (بيروت) وصيد ون (صيدا) ويتروس (صور) وآكة (عكا) وارسوف ويبنة ويوبا (يافا) وازوتوس (أشدود أو سدود) وأسكلون (عسقلان) وغزة ورافيا (رفح) •

أما المنطقة الوسطى من بلاد الشام فكانت فيها : بيورية(حلب) خلقيس (قنسرين) وابيفامية (حمات ــ حماة الحديثة) ولاريسا (زنزار) اميزا (حمص) ودمشق وبسطرى (بصرى) وسكيثوبوليس (بيسان) وبلا (فحل) وعمون (عمان) وايله (العقبة) •

أما في الجهة الشرقية فقد كانت المدن أقل عددا ومع ذلك فهناك اوريما وهيرابوليس (منبج) وكركميش وتدمر والبتراء (ملحق 1) •

وكانت بلاد الشام ولاية واحدة في أيام الفرس ، الا ان الادارة الفارسية كانت حريصة على أن تترك للسكان وتجمعاتهم الكثيرة شيئا كثيرا من الحرية الذاتية في تصرفهم الاداري • فالمرزبان (الوالي) كان له الاشراف العام والتأكد من حفظ وجمع الضرائب المفروضة •

ومن هنا نجد أن الاجزاء الجنوبية من البلاد (أي جنوب فلسطين والاردن) كانت لها زعامتها القبلية ، حيث كان هؤلاء الزعماء

يتمتعون بحرية كانت حتى أكبر من حرية المدن • ففي البتراء ومنطقة عمان كانت القبائل العربية تدبر امورها بنفسها • وكان الايطوريون ، وهم قبائل عربية ، يسيطرون على الاجزاء الوسطى من البقاع وكانت عنجر مركز حكمهم • كما كان للقدس نظام خاص بها • لكن الحاكم للمدينة كان اختيار الادارة المركزية(١) •

جاء الاسكندر الى الشرق ، فاجتاز البحر الى آسيا الصغرى وانتصر في أولى معاركه ـ غرانيكوس (٣٣٤ ق٠م٠) ثم في ابسوس في السنة التالية • وسار الاسكندر بعدها على الساحل الشامي فخضعت له مدنه باستثناء صور وغزة اللتين كبدتاه خسائر كبيرة قبل ان يفتحهما • واحتل مصر (٣٣٢ ق٠م٠) • وعاد من مصر وأتم فتوح المناطق الشرقية بين سنتي (٣٣١ و ٣٢٦ ق٠م٠) وعاد إلى بابل ، التي اتخذها مركزا اداريا له • وفيها مات (٣٢٣ ق٠م٠)•

وأخذ الاسكندر يبني المدن في هذه المنطقة الواسعة التي كان يسيطر عليها • وأكبر أعمال الاسكندر في هذا المجال تمت في الأجزاء الشرقية البعيدة من امبراطوريته • أما في بلاد الشام وما هو قريب منها ، فقد بنى الاسكندرية (مصر) والاسكندرونة (أو لعله حصنها وجددها)وانشأ مستوطنتين عسكريتين الواحدة كانت على مقربة من نابلس (في فلسطين) والثانية في بيت راس (كابيتولياس) في شمال الأردن • ولعله أقام حامية في جرش (غارازا) في الأردن أيضا • أما في الأجزاء الأخرى من امبراطوريته فقد وضع أسسا لما لا يقل عن ثلاثين مدينة (ولوأن الرواية تقول انه بنى ٧٥ منها !)

ولا بد من أن يخطر لنا سؤال ـ لماذا كانت هذه العناية الكبرى ببناء المدن التي أظهرها الاسكندر ؟

كان الاسكندر يريد أن يخفف الضائقة المالية التي كانت تعانيها المدن اليونانية الأصلية ، وان يخفف من أثر التفجر السكاني في بلاد اليونان • ومن ثم فان انشاء المدن الكثيرة وتوطين المقدونيين والأغارقة فيها كان مشروعا اقتصاديا اجتماعيا • وأدرك الاسكندر الحاجة الى اقامة ثكنات عسكرية لحراسة الطرق التجارية والتأكد من خضوع السكان للحكم الجديد • وكان الاسكندر يعرف أن التجارة العالمية في أبعادها الجديدة أصبحت منطقتها المباشرة من حوض السند وأواسط آسية الى اليونان ، ومن المدن اليونانية كان يمكن نقل السلع غربا الى بقية حوض المتوسط • وهذه التجارة العالمية الواسعة كانت بحاجة الى أسواق أضخم وأكبر من الأسواق السابقة والى تنظيم جديد لها •

وهذه المستوطنات أو المستعمرات (المدن) التي انشأها الاسكندر لم تكن مجرد أماكن استقرار لأناس ضاقت بهم بلادهم ، فيمكنهم أن يتنقلوا ويعيشوا حيث شاءوا • كما أنها لم تكن مجرد قلاع وحصون يقطنها الجند ، ولا كانت مجرد أسواق يلتقي التجار فيها في الخانات والأسواق • انها كانت مدنا على ما عرفته بلاد اليونان القديمة • وكان سكان البلاد الأصليون يشجعون على الاقامة فيها (وان كانوا لايعتبرون مواطنين) •

ونود أن نشدد على هذه الناحية الاقتصادية الاجتماعية في بناء المدن حتى لاننساها ، ثم نكتفي بالقول بأن الاسكندر انما أقام هذه المدن ليزيل الحواجز بين المشارقة واليونان وليتخذ منها مراكز لنشر الحضارة الهلينية باعتبارها المدنية الحرية بأن يقبلها الناس • ويتعلموها ويعيشوا بموجبها (٢) •

(٣)

خلفاء الاسكندر بنوا مدنا • وقبل أن ننتقل الى بلاد الشام وما بني فيها من المدن في العصر الهلينستي ، نود أن نضع الملاحظ التالية بين يدى القارىء :

١ ـ بدأ الملك السلوقي ، حول سنة ٣٠٠ ق•م• ، بحيث كان يضم جميع ما فتحه الاسكندر في آسية (باستثناء أجزاء في غرب اسية الصغرى) • ولكن الأجزاء الشرقية النائية استقلت منذ أواسط القرن الثاني ق•م• واحتفظ البطالمة (بالاضافة الى ملكهم الأصلي مصر) بالجزء الجنوبي من بلاد الشام ، أي فلسطين والأردن والمدن الفينيقية ، حتى حول سنة ٢٠٠ ق•م• وانتزع الفرثيون أرض الرافدين من السلوقيين بين سنتي ١٤٠ و ١٠٠ ق•م• لذلك فالجزء الذي حكموه فعلا هو بلاد الشام (مع استرجاع جنوبها حول سنة ٢٠٠ ق•م•)•

٢ ـ بالنسبة الى بناء المدن كان ثمة فرق أساسي بين السلوقيين والبطالمة • فالأولون كانوا بناة مدن فعلا ، أما البطالمة فلم يكونوا كذلك • وحتى في مصر لم ينشئوا سوى واحدة هي بطوليماوس في طيبة في الجنوب ، واكتفوا بأن ينصرفوا الى الاسكندرية توسيعا وتجميلا وعمرانا وتحضيراً وعلما ـ ولذلك فبعد قرن من حكم جنوب بلاد الشام لم يتركوا فيه سوى فيلوطيريا (على بحيرة طبرية)وهليوبوليس (بعلبك) وسكيثوبوليس (بيسان) وفيلادلفيا (عمان أو ربة عمون القديمة) • ونحن عندما نتعمق في درس قضية انشاء البطالمة للمدن نجد أن عملهم ، باستثناء فيلوطيريا ، كان احياء لمدن قديمة(٣) •

٣ ـ شهر من الملوك السلوقيين ثلاثة كانت لهم أدوار في بناء المدن وهم :

سلوقس (الأول) نيكاتور (حكم ٣١٢ ـ ٢٨٠ ق•م•)
أنطيوخوس (الثالث) الكبير (حكم ٢٢٣ ـ ١٨٧ ق•م•)
أنطيوخوس (الرابع) ابيفانوس (حكم ١٧٥ ـ ١٦٣ ق•م•)

٤ ـ يتحتم علينا أن نفرق بين عملين مختلفين فيما يتعلق بانشاء المدن • فهناك تأسيس المدينة Polis وهناك انشاء المستعمرة • فالأول كان عملا ضخما لا يستطيع أن يقوم به سوى الملك بالذات • « اذ كان على الملك أن يختار الأرض (الموقع وما اليه من أراض تتبع المدينة) وأن يحصل على السكان اللازمين والمناسبين لها ، وأن يقيم الأسوار حولها ، وأن يؤمن موردا للمواد الغذائية ، فيقدم للقوم الحبوب للبذور والحيوانات والأدوات اللازمة للحرث والحصاد • وكان على الملك أن يعفي سكان المدينة الجديدة من الضرائب (لمدة معينة) •والى ذلك كان يترتب عليه وضع دستور للمدينة والتأكد من بدء العمل السياسي الصحيح واستمراره • » أما المستوطنة أو المستعمرة العسكرية فقد كان انشاؤها أيسر •فالجند (وهم العنصر الرئيسي للسكان) موجودون ، وتنظيم أمر المدينة يمكن أن يعهد به الملك الى بعض أتباعه •وكان سكان المستعمرة أو المستوطنة العسكرية يمنح كل منهم قطعة من الأرض لاستغلالها لقاء ما قد يطلب منه من خدمة عسكرية ، اذا كان قادرا على ذلك(٤) •

٥ ـ كانت الثروة المدخرة في الهياكل وقصور الملوك ورجال الحكم (وخاصة في الامبراطورية الفارسية) كبيرة جدا • وهذه

أخرجها الاسكندر من مخابئها ونشرها في الأسواق وبين الجند . وظلت هذه الثروة تنتقل من يد الى يد ويفيد منها الناس في الحياة الاقتصادية ، وكان لها أثر في بناء الكثير من المدن ، لكن هذا المخطط للبناء الضخم توقف لما نضبت هذه الثروة الاضافية(٥) .

٦ ـ كان سلوقس نيكاتور بناء ، وبناء المدن ـ على تنوعها ـ توقف في أواخر القرن الثالث . أما انطيوخوس ابيفانوس فقد كان محضرا لمواقع سابقة Urbaniger . وهذه قضية هامة ، وسنعود اليها فيما بعد .

٧ ـ كان من اليسير على الملوك السلوقيين أن يغروا اليونان ، من المقدونيين والأغارقة ، بترك بلادهم والانضمام الى جيوشهم للقتال والبقاء في المستعمرات الجديدة ، أوحتى القدوم للاستيطان على أن يقوموا بالخدمات فيما بعد . لكن هذا المعين نضب الى درجة كبيرة بعد منتصف القرن الثالث ق.م. ولعله كان ثمة ارتباط بين تقطع سيل اللاجئين وبين نضوب الثروة الامبراطورية المدخرة .

(٤)

يمكننا أن ننتقل الآن الى بناء المدن في العصر السلوقي .

ان الهدف الذي رمى اليه سلوقس نيكاتور من بناء المدن في شمال سورية والجزيرة (جزيرة ابن عمر فيما بعد) هو جعل المنطقة مقدونية ثانية ، عصبها هذه المدن ـ المستعمرات الرئيسة ، التي تقام فيها جماعات من بلاد اليونان ـ قدماء المحاربين مع الاسكندر ومع خلفائه ، ومحاربون جدد هم جند الملك السلوقي

إما في ميدان القتال أو رديف جاهز لذلك . وهذه المدن تقوم بالحراسة اللازمة للملك وتحافظ على طرق التجارة العالمية التي كانت عصب الملك المالي ، على أن تزود المدن بأكبر قدر من عنصر المدينة اليونانية Polis كي يشعر هؤلاء المستوطنون بالاطمئنان الى موطنهم الجديد(٦) .

وقد أنشأ سلوقس نيكاتور أربع مدن كبرى في شمال سورية ، كانت كل واحدة منها من درجة Polis ، وهي انطاكية وسلوقية البحرية (السويدية) واللاذقية وافامية . كانت انطاكية ، التي أصبحت فيما بعد عاصمة الدولة ، المركز الأهم للطرق التجارية من البحر (كان نهر العاصي صالحا للملاحة ، فكان يربط انطاكية بسلوقية البحرية) الى الداخل . أما سلوقية فكانت الميناء الرئيسي الذي يوصل العاصمة (انطاكية) بالموانيء المتوسطة في اسية الصغرى والجزر اليونانية . وكانت انطاكية حلقة الوصل بين شمال سورية وقبرص ومصر . أما افامية فكانت تتوسط حوض العاصي ، المنطقة الزراعية الخصبة . وكانت مركزا عسكريا لا للجند فحسب ، بل لتربية الخيول والفيلة اللازمة للقتال والثيران الصالحة للحراثة والنسل . وكانت هذه المدن الأربع منشآت جديدة ، وكان نواة سكانها من الأوروبيين(٧) .

ومن المحتمل أن يكون سلوقس نيكاتور هو الذي أنشأ مدنا ثلاثا أخرى في شمال سورية وأواسط الجزيرة وهي : سلوقية على الفرات (التي عرفت فيما بعد باسم زوغما ومعناها الجسر باللغة اليونانية) وسلوقية على دجلة (وهي التي قامت على أنقاضها طسيفون أو المدائن فيما بعد) ودورا اوروبس (الصالحية).

وقد جدد سلوقس نكاتور حياة مدينة قديمة هي كركميش وسماها اوروبوس(٨) ·

وتتضح أهمية المدن السلوقية اذا ربطناها بمدن آسية الصغرى وعندئذ نجد أنها تكون حراسة للطريق التجاري الذي يبدأ من مدينة افسوس على شاطىء اسية الصغرى متجها شرقا الى أرض الرافدين ، وهناك خط آخر من المدن يبدأ من طرسوس ويتجه الى شمال سورية وفينيقيا وفلسطين(٩) ·

نجد أن انطيوخوس (الرابع) ابيفانوس حضر (أو مدين) بعض المدن القديمة ، وذلك عن طريق منحها امتيازات متنوعة · ويرى جونز أ نابيفانوس هذا كان يرى ان « بيع » هذه الامتيازات للمدن أقل ايذاء له من الاستيلاء على مدخرات الهياكل · وبسبب هذه الامتيازات أصبحت بعض المستوطنات أو المدن الصغيرة القديمة تعتبر مدنا ، ولوأنها لم تكن لها جميع المؤسسات السياسية والقضائية التي كانت المدن الكبرى Polis تتمتع بها أصلا(١٠) ·

فمن بين المدن الوطنية التي منحت امتيازات (مع عناية بالأبنية العامة) نجد منبج (تصبح هيرابوليس) وطرابلس (لبنان) وعكا (تصبح بطوليماوس) في فلسطين · والامتياز الذي أعطي لها هوسك النقود ·وهذا كان أساس الحكم الذاتي ·

وهناك المدن الفينيقية التي كان البطالمة من قبل قد قضوا على حكم الأسر الملكية فيها وأقاموا فيها حكما ديمقراطيا له طابع يوناني · هذه المدن ــ بيبلوس (جبيل) وبيرتس (بيروت) وصيدون (صيدا) وصور ــ منحت أيضا حق سك النقود · ومثل ذلك كان أمر اسكلون (عسقلان) ·

وقد منحت بعض المدن حق «الحصانة المدنية» ، أو حق حصانة قدسية تحميها من تدخل الدولة في شؤونها البتة : ارواد (١٣٧ ق·م·) وصور (١٢٥ ق·م·) وطرابلس (١١١ ق·م·) وعسقلان (١٠٤ ق·م·)(١١) ·

ويضيف جونز الى المدن المذكورة المعروفة امتيازاتها مدنا منحت امتيازات خاصة لكن لايمكن تحديدها · وهذه هي جبلة (جبلة) وبالانيا (بانياس) والمدن الواقعة على الساحل الفلسطيني (باستثناء عسقلان الواردة قبلا) وسكيثوبوليس (بيسان) وأبيفامية (حماة)(١٢) ·

(٥)

بلاد الشام ، بحكم موقعها وتضاريسها ومناخها وكثرة القادمين اليها عبر التاريخ ، كانت دوما بلد المتناقضات · فقد كان ثمة التحاسد بين سكان الأرض القاحلة والأرض المزروعة ، التي تعبر عنها قصة قابيل وهابيل · وكان ثمة تناقض بين وجهات النظر في المدن وفي الريف ــ اذ ان تاجر المدينة يهمه أن يبيع ما عنده من سلع لساكن القرية الفلاح ، وفي سبيل ذلك كان يرهقه في دفع الثمن المرتفع بسبب الفوائد التي تتراكم · وكان ثمة اختلاف بين الساحل والداخل ــ مدن الساحل وقراه منفتحة على البحر ، وسكانها تتسع آفاقهم بسبب الخبرة والتجربة الواسعة ، أما سكان الداخل فآفاقهم أضيق ، بسبب قبوعهم في مدنهم وقراهم · ولعل أبرز أوجه التناقض في حياة بلاد الشام هو موقف الحكام من الرعايا ، وموقف هؤلاء من أولئك · فالعالم القديم لم يعرف ، في أزمنته الطويلة (الا فيما ندر)حاكما لم يقس على شعب الشام ، سواء في ذلك الملك

والأمير والزعيم المحلي • (لم يقتصر هذا على بلاد الشام ، ولكننا معنيون بها الان) •

ومع مجيء الاسكندر ، وقيام الدولة السلوقية (خصوصا بعد أن اقتصرت سيطرتها على بلاد الشام منذ حوالي أواسط القرن الثاني ق•م•) ، دخل البلاد عنصر جديد ليزيد في التناقضات القائمة • ذلك بأن الأغارقة والمقدونيين ، سواء اقاموا في المدن Polis أوفي المستعمرات (المستوطنات) العسكرية ، كانوا واقعا فرض على السكان الأصليين(١٣) • لكن بالاضافة الى هذه الناحية فقد كان ثمة أمران جاءا مع اليونان وأحدثا نوعا من التناقض ، الذي كانت فيه فائدة للبلاد • وهو حمل آراء جديدة والثاني حمل لغة جديدة هي لغة هذه المدنية وآراؤها ، وهي اللغة اليونانية • وترتب على ذلك أن اللغة اليونانية أصبحت لغة المدن ، يستعملها اليونانيون أصلا ، ومن أتيح له أن يتصل بالحضارة والفكر اليونانيين من أهل البلاد • أما السكان الأصليون ، أهل الوطن ، فقد ظلوا يستعملون اللغة الآرامية في الغالب •

وفي رأي جونز أن نتيجة التجربة السياسية والادارية والحضارة التي مرت بها بلاد الشام في العضر الهلينستي هي ان البلاد أصبحت « فسيفساء » من ممالك وامارات ومدن حرة ، أما الملوك أنفسهم فلم يكونوا أفضل من زعماء العصابات المرتزقة الا قليلا »(١٤) •

فما هي هذه الفسيفساء الادارية التي عرفتها بلاد الشام في القرن الأول ق•م• لما أخذ الحكم السلوقي يلفظ أنفاسه تدريجيا ! •

كان هناك قبل كل شيء الملك ـ عندما يكون له السلطان على البلاد بأكملها • والملك السلوقي (مثل غيره من الملوك الهلينستيين)

كان ملكا مطلقا في تصرفه بالنسبة الى سكان البلاد ، وكان المالك الوحيد للأرض جميعها • كان الملك مقيدا بالنسبة للمدن اليونانية ، لكنه كان تقييدا نظريا • فقد كان كل ما يحتاجه الملك ، في أغلب الحالات ، اذا أراد من المدينة أن تنفذ واحدا من مشاريعه أو رغباته ، هو أن ينقل رغبته هذه الى الموظفين (المنتخبين) المسؤولين ، وعندها تقرها المجالس المختلفة(١٥) • وكان الملك يؤله ، ولكن هذا كان نوعا من التكريم • وكان الملك الهلينستي يحب أن تضاف الى اسمه ألقاب مثل « المنقذ » أو « المنعم »أو « الوهاب » أو « المؤله »(١٦) •

ولسنا يعنينا هنا تخطيط المدينة الهلينسية السلوقية ، فهذا أمر متصل بالعمارة والفنون • ولكن يجب أن نذكر أن المدينة كانت تمنح المؤسسات المدنية اليونانية الأصل ، من مجالس منتخبة وموظفين مختارين اما من المواطنين أو من المجالس • وهذا الأمر الذي كان خاصا أصلا بالمدن والمستعمرات المنشأة حديثا أو المحدثة، الا انه أصبح من الأمور التي تمنحها أي « بلدة » متى رفعت الى مستوى « مدينة » •

وسكان الدولة السلوقية الذين وفدوا من بلاد اليونان يمكن اعتبارهم مكونين من فئات اجتماعية متفاوتة في المقام والعدد • فقد كان يأتي في رأس السلم الاجتماعي أعضاء البيت المالك ـ أسرة الملك وأقاربه ورجال الحاشية ومن لف لفهم (وكانت هذه البيوت تضم بالاضافة الى العاملين الأحرار جماعات كبيرة من الرقيق) • وكانت الفئة التالية هي فئة كبار الموظفين في العاصمة وفي مراكز ادارة الولايات على السواء • وهؤلاء كانوا يتمتعون بثروة طائلة مصدرها الرئيسي كان الأرض التي تعطى لهم

لاستغلالها في حياتهم (فالأرض جميعها ملك « للملك السلوقي » يعطيها حسب ما يراه مناسباً، على أن العادة المألوفة كانت أن تمنح هذه الأرضين لأفراد لا لجماعات) • ويمكن ان يضم الى هؤلاء أسر ثرية ، كانت خارج نطاق الحكم والادارة ، لكنها جمعت ثروتها من التجارة (سواء كانت أعمالهم في الاتجار بالسلع الحرة أو عن طريق امتياز بالنسبة للسلع والمصنوعات والمنتوجات التي يحتكرها الملك) • وهذه الفئة (كبار الموظفين وكبار التجار) كانت الارستقراطية الجديدة في الدولة • وتأتي الفئة الثالثة وهي جماعة الجند ، وخاصة الضباط ، الذين كانوا يقيمون في المدن ـ المعسكرات الكبرى أو الصغرى • وكان هؤلاء يتناولون مرتبات ضخمة ، أو يمنحون الأراضي لاستغلالها ، ومع أن هذه الفئة كانت قريبة من الفئة الثانية ، من حيث الثروة والنشاط ، إلا أنها لم تحسب منها • وثمة الفئة الرابعة ، اذا صح التعبير ، وهي جماعات وصلت بلاد الشام في فترات متلاحقة لتعمل في الوظائف الحكومية وضمانة (التزام) الضرائب ، أو لتحصل على أراض تعهد بالعمل فيها الى الأقنان • ومن هذه الفئة أيضاً أصحاب المهن الحرة الذين جاءوا الى المدن السلوقية ليكونوا أطباء ومعلمين ومحامين وفنانين وصناعا وتجارا • هذه الفئة لم يكن لها امتيازات خاصة ، ولكنها كانت تنتمي الى العنصر اليوناني (المقدوني والاغريقي) ولذلك فان أفرادها ، مثل أفراد الفئات الأخرى ، كانوا موظفين • اذ أن سكان المدن من البلاد الأصليين لم يعتبروا مواطنين في هذه المدن ، بل كانوا يسمون « بوليتويما » Poleteuma أي تجمعات •

وكان بين سكان البلاد ما يوازي هذه الفئات أيضاً • فاذا استثنينا أعضاء البيت المالك ، فقد كان هناك أسر حاكمة صغيرة وأمراء لمناطق معروفة وزعماء لقبائل عديدة وتجار كبار(١٧) •

وقد كانت سورية الشمالية مقسومة ، اداريا ، الى أربع ولايات هي :

(١) انطاكية التي كانت تمتد من ساحل المتوسط غربا الى مشارف الفرات شرقا • وكانت ككل من بيورية (حلب) وخلقيس (قنسرين) تابعة لها • (٢) افامية التي كانت تشمل الرقعة الواقعة الى جنوب ولاية انطاكية والتي كانت تمتد جنوبا الى مشارف البقاع، أما شرقا فلم يكن لها حد معين • وكانت المدن ـ المعسكرات التي تلتحق بها لاريسا (قلعة شيزر أو زنزار) وكاسينا (؟) ومغارة (المعرة) وابولونيا (ارتوزا ، وهي الرستن الحديثة) •(٣) ولاية كوسيتا و (٤)ولاية خلد يسية ، وهاتان تقعان في أقصى الشمال، ويمكن اعتبارهما ولايتين حدوديتين •

أما في الأجزاء الجنوبية من بلاد الشام فكان هناك (١) فينيقيا بمدنها التي كانت ذات مؤسسات خاصة وامتيازات كبيرة ، و (٢) سورية المجوفة الى الشرق من الأولى ، و (٣) ادوم (وهي جنوب الأردن اليوم) و (٤) فلسطين (١٨) •

أما كيف كانت تدار هذه الولايات ، فأمر لا يزال الباحثون مختلفين بشأنه • فقد كان يظن من قبل أن الرجل الذى كان يقف على رأس ادارة الولاية هو ستراتفوس (جنرال) بحيث يكون مسؤولا عن الادارة المدنية والعسكرية • ولكن الاتجاه الأحدث هو أن كل ولاية كان فيها وال وستراتفوس ، الواحد للادارة المدنية والآخر للشؤون العسكرية • وكانت الأقسام الادارية الصغرى ، وكل منها يسمى «هبارخية» (قضاء ؟) ، يعنى بها موظفون صغار ، ولعل بعضهم كان من أهل البلاد(١٩) •

وكانت ثمة أسر عربية تحكم مناطق خاصة بها منها امارة (؟) هيروبوليس (منبج) واميزا (حمص) وبلميرا (تدمر)(٢٠) ٠

وكذلك كان في شمال سورية عدد من الدول ـ الهياكل ، وهي ادارات مستقلة تتمركز حول هيكل أو معبد كانت الأرض قد أوقفت عليه من قبل ٠ ومع أن عددها تناقص في العصر الهلينستي ، فقد ظل لها أثر كبير في زيادة قطع الفسيفساء (٢١) ٠

وثمة نوعان من الوحدات الادارية التي عرفتها سورية الشمالية في تلك الفترة وهي « الأراضي » التابعة للمدن (وهي غير الولاية التي كانت تدار من المدينة باعتبارها عاصمتها) ، وهي نوع غريب من الادارة لأنها ، على ما يبدو ، كانت جزءا من أرض الولاية ، ومع ذلك فلم تكن خاضعة للوالي أو لحاكم القضاء ، بل للمدينة من حيث انها مؤسسة مدنية (٢٢) ٠ والنوع الثاني هي الأراضي التي كانت تحت تصرف « القرى » أو الجماعات القبلية(٢٣) ٠ (باذن أوهبة من الملك ، أو بحق الوجود فيها) ٠

هذا هو الذى عناه جونز بقوله أن بلاد الشام في نهاية الحكم السلوقي كانت فسيفساء ادارية ٠ وقد رأينا انها كانت منوعة الألوان مختلفة الأحجام متباينة الأبعاد ـ اداريا واجتماعيا ٠ على أن الصورة الفسيفسائية لم تكتمل قطعا ٠ ذلك بأن العصر الهلينستي عرف نوعا آخر من التنظيمات التي اقتضتها الظروف والأحوال التي أحاطت بالأراضي التي انتشرت فيها المؤسسات اليونانية ٠ هذه هي الأحلاف(٢٤) ٠ وهي اتفاقات أو منظمات كانت تقوم بين عدد من المدن تمكنها من العمل المشترك اقتصاديا ودفاعيا ٠ والذى نعرفه عن هذه الفترة في بلاد الشام هو أن مثل هذه الأحلاف لم تعرف الا في منطقة واحدة ، وجاء ذلك في أواخر

القرن الثاني ق٠م٠ والمنطقة هي شمال الأردن والرقعة الممتدة الى دمشق ٠ والاسم الذى اتخذته كان المدن العشر ديكابوليس Decapolis ٠وبحسب رواية بليني فان عدد المدن المؤسسة لهذا « الحلف » هي سكيتوبوليس (بيسان) وبلا (فحل) وجدارة (أم قيس) وهبوس (الحصن) وديوم (ايدون ؟) وقناثا أو كناثا (القنوات) وفيلادلفيا (عمان) غارازا (جرش) ٠ ويبدو أن دمشق انضمت ، ولو الى حين ، الى الحلف ٠ ومثل ذلك يقال عن كابيتولياس (بيت راس) واربلا (اربد ؟) (٢٥) ٠

وهذه المدن كونت فيما بينها خط دفاع قويا ، كما انها ضمنت لنفسها أن تمر التجارة التي تأتي من الأردن وما الى الشرق منها الى فلسطين وساحل البحر المتوسط ومصر عبرها ٠ فأصبحت أسواقا كبيرة لتبادل السلع ٠

هذه هي الفسيفساء « الادارية » التي كانت « تزوق » بلاد الشام في القرن الأول ق٠م٠ لما وصل بومبي البلاد واحتلها سنة ٦٤ ق٠م٠ فما الذي آلت اليه بعد وصول الرومان ؟

(٦)

كان الأثر الأول الذى نجم عن احتلال الرومان لبلاد الشام أن هذه الرقعة من العالم التي كانت « قلب دولة مستقلة وجسمها وكيانها » ، أصبحت ولاية من ولايات الامبراطورية الرومانية ٠ صحيح أن هذ التبدل لم يشعر به الناس الا بعد نحو نصف قرن من الزمان أيام أغسطوس (٢٧ ق٠م٠ ـ ١٤ م) الذى ثبت الحكم ونظم البلاد ٠ والامبراطورية الرومانية كان محورها الجديد ايطالية ـ بلاد اليونان ، فبلاد الشام كانت ، نتيجة لذلك ، ولاية في الأطراف أي حدودية ٠

لكن بومبي نفسه كان عليه أن يحاول وضع حد للفوضى التي انتشرت في بلاد الشام بسبب ضعف الحكم السلوقي • وقد استن بومبي ثلاث قواعد بنى عليها تنظيمه لبلاد الشام (وسار عليها خليفته في الولاية غابينيوس) • أما القواعد الثلاث فهي (١)انه ترك للمدن الفينيقية والمدن العشر ما كانت عليه من تنظيم محلي أو خلفي • (٢) ترك للأسر الصغيرة في شرق البلاد وجنوبها سلطانها المحلي • ذلك بانه أدرك بأن هؤلاء الزعماء (أو الأمراء) كانوا أقدر على التعامل مع جماعاتهم من أي حاكم روماني • (٣) قص من أجنحة الأسر أو الزعامات التي كانت قوية أو التي كانت أملاكها واسعة ، حتى يمكن لرومة أن تديرها ، فلا تخرج عن الطاعة •

فالمدن الفينيقية استمرت ، بسبب هذا التنظيم ، حتى أيام اغسطوس، تمارس نظمها وتتمتع بامتيازاتها•وانطاكية وسلوقية (السويدية) واللاذقية وصيدا وصور وعسقلان كانت ذات مركز خاص • أما في الداخلفقد احتفظت أبامية بدورها الخاص• ولم يعن بومبي بتجديد أي من المدن التيكانت قد تصدعت (باستثناء جدارة) • فقد ترك هذا لخليفته غابينيوس • والأسر التي حملت علىالشعور بوجود رومة هي أسر بيورية (حلب واميزا (حمص) وهيرابوليس (منبج) ، مع انه ترك لها حرية إدارة ممتلكاتها • وظل الايطوريون والانباط (الذين سمح لهم بالاحتفاظ بدمشق تابعة لهم) على حالهم•وقلصت الامارة اليهودية، بحيث اقتصرت على القدس • ومع أن حاكمها أضيفت الى وظيفته الادارية وظيفة الكاهن الأعلى ، فانه بعد مدة جرد من المنصب الاداري وأصبح كاهنا أعلى فقط[٢٦] •

لسنا نريد اطالة الحديث عن دور رومه في بلاد الشام في القرنين الأولين التاليين لاغسطوس • ولذلك فاننا نكتفي بالاشارة الى أن

الفترة التي مرت بين الامبراطور الأول (٢٧ ق•م• ـ ١٤ م) وحكم فيليب ، الامبراطور العربي (٢٤٤ ـ ٢٤٩ م) شهدت بناء مدن هامة كانت تقدمات من الحكام والشعب للامبراطور وأهم هذه قيسارية وسبسطية (في فلسطين) اللتان بنيتا تكريماً للامبراطور اغسطوس[٢٧] •

وهناك قرى رفعت الى مستوى « المدن » (فيأواخر القرن الثاني وأوائل الثالث م) • من هذه مكسيميا نوبوليس (سكة ؟) وديونيسيا (السويداء) ونيابوليس (الشيخ مسكين ؟) وفينا (المسمية) ونفما (نوي) • وهذه الأماكن استقرت فيها جماعات فلاحية ، وازدهرت الزراعة فيها بسبب استتباب الأمن • وكان يشرف على كل منها شيخ (لقب ستراتيفوس) • وكان من شروط منحها لقب « المدينة » ان يكون لها موظفوها المنتخبون في اجتماعات عامة • وكانت لها درجة عالية من الاستقلال [٢٨] • ولكن لماذا منحت هذه القرى المتقاربة رتبة المدن ؟ يبدو أن ذلك جاء رغبة من شيوخ هذه القرى ، الذين وجدوا في ذلك قيمة اجتماعية وسياسية خاصة • من الجهة الأخرى فان «جعل» هذه القرى مدنا كان يحملها نفقة الاحتفاظ بالمباني العامة ، وبذلك يخف العبء على الدولة • ولعل المكان الوحيد الذى جعل « مدينة » كبيرة نسبيا في تلك المنطقة هو فيليببوبولس (شهبا) ، وهي مسقط رأس الامبراطور فيليب العربي[٢٩] •

ومن هنا ، فانه باستثناء تغييرات بسيطة ، ورفع درجة بعض القرى الشرقية الى رتبة مدن ، فان الفسيفساء الادارية لبلاد الشام لم تتبدل • الأمن استتب •والفلاحة نشطت والتجارة اتسعت

افاقها ، لكن بلاد الشام كانت الان « ولاية رومانية » ·
(ملحق II) ·

الا ان حدثا واحدا هاما يعود الى مطلع القرن الثاني للميلاد يجب أن يذكر · وهو ان تراجان استولى على البتراء سنة ١٠٥م ، وبذلك قضى على دولة الأنباط (اما البتراء وغيرها من مدن الأنباط فقد استمرت تقوم بدورها التجاري نحو قرن من الزمان بعد القضاء على الكيان السياسي) · وأقام « الولاية العربية » وجعل بصرى عاصمتها الادارية ، بعد أن وسعها وجملها بحيث يمكن القول بأنه بنى مدينة جديدة(٣٠) ·

في سنة ٢٧٣ استولى اورليان (٢٧٠ ـ ٢٧٥) على تدمر ، واتخذ منها نقطة دفاع عن الامبراطورية ·

(٧)

دهم الامبراطورية الرومانية في القرن الثالث أزمة عنيفة ، اقتصادية وسياسية ، لسنا بصدد التحدث عنها · لكن الذي يهمنا أن ديوقليتيان (٢٨٤ ـ ٣٠٥ م) وقسطنطين (٣٠٦ ـ ٣٣٧ م) قاما باتخاذ اجراءات كان من شأنها أن توقف التدهور الذي كانت الامبراطورية تعاني الكثير من جرائه ·

وأول ما قام به ديوقليتيان هو تقسيم الولايات الى أقسام ادارية صغيرة وبذلك قلص سلطة حكام الولايات ، ثم ان الامبراطور فصل القيادة العسكرية عن الادارة المدنية(٣١) ·

وكان تراجان قد أنشأ طريقا يصل بين العقبة وبصرى مارا بفيلادلفيا وكابتلاياس (ام الجمال) متجنبا البتراء ، وسماه

الطريق الجديد Via Nova (٣٢) وهذه كانت الخطوة الاولى من محاولة وصل البحر الأحمر بنهر الفرات عن طريق متصل · وجاء ديوقليتيان ليتم هذا العمل اذ انه بنى طريقا من بصرى الى سورا على الفرات ، عبر دمشق وتدمر ، وهو الذي عرف باسم طريق ديوقليتيان Starta Diocletiana (٣٣) (ملحق V) ·

كان هذا هو الجزء الأول من مخطط ديوقليتيان لاقامة خط دفاع Limes عن الامبراطورية ليحميها من الهجمات القادمة من الشرق والشمال الشرقي · أما بقيةأجزاء المخطط فهي : (١) اقامة حصون جديدة (أو تقوية بعض الحصون القديمة) في أماكن ذات أهمية استراتيجية في قرقيسيوم (قرقيسا) عند التقاء الخابور بالفرات ، التي أحيطت بأسوار متينة ، وفي تدمر التي أقيمت فيها حامية قوية كما بنيت قلاع وخانات محصنة في قصر بشير وجنبجل (بين القريتين ودمشق) ودير الكهف (على بعد نحو أربعين كيلو مترا الى الجنوب الشرقي من بصرى) · هذه هي الاماكن الاكثر أهمية في الجزء الشمالي من « خط الحدود » · (٢) في الجزء الجنوبي من هذا الخط أقام ديوقليتيان مخافر وحصونا وقلاعا في اللجون (بيت تورو) واوغستوبوليس (أذرح) الى الشرق من البتراء(٣٤) وغيرهما · (الخارطة المرفقة (رقم ٢) توضح هذه الاماكن) ·

يضاف الى هذا ان فرقا عسكرية وأورطا Cohorts وضعت في الاماكن الهامة · فقد كانت ثمة خمس فرق (كل منها نحو ثلاثة آلاف جندي) وكان هناك ١٦ أورطة (في كل منها نحو ٥٠٠ جندي) · ومعنى هذا ان الحدود الشرقية من بلاد الشام كان فيها حول سنة ٣٠٠م نحو ٢٣ر٠٠٠ جندي ، من فارس وراجل، يقومون

على حراستها . واذا أضفنا الى هذا العدد فرقة أخرى وسبع أورط في اوزرونة والجزيرة ، كان المجموع نحو ثلاثين ألف راجل وفارس(٣٥) .وقد زيد هذا العدد فيما بعد . ففي الوثيقة المسماة « نوتيتا ديفنتاتوم » (من أوائل القرن الخامس للميلاد) كان عدد الجنود نحو ٨٠ر٠٠٠ ، وهؤلاء كانوا مكلفين بحماية الحدود الشرقية(٣٦) .

وقد أعيد تنظيم الولايات وتقسيمها في بلاد بين أيام قسطنطين وجستنيان (٥٢٧ ـ ٥٦٥) بحيث اننا نجد بلاد الشام تتكون من الأجزاء أو الأقسام الادارية التالية في أواسط القرن السادس للميلاد . (ملحق III) :

١ ـ سورية الأولى : وتشمل شمالسورية من الساحل الى الولاية الفراتية (شرقا) . أما في الشمال فكانت تحدها ولاية كيليكيا الشمالية وفي الجنوب كانت سورية الثانية تصاقبها . وقد شملت هذه الولاية انطاكية وسلوقية البحرية (السويدية) واللاذقية بيورية (حلب) وخلقيس (قنسرين) . وقد ظلت مدينة انطاكية ، على ما يبدو ، عاصمة بلاد الشام ، فقد كان يقيم فيها قنصل سورية Consularis Syriae لكن مدينةخلقيس (قنسرين) كانت المركز الاداري لسورية الأولى ، لأنها كانت تستطيع أن تؤوى الجنود الذين وضعوا في تلك المنطقة .

٢ ـ سورية الثانية : وكانت تمتد من الساحل (جنوبي سورية الأولى) عبر أواسط بلاد الشام الى الصحراء تقريبا . وكانت افامية مركزها الاداري ، وكانت تضم لاريسا (شيزر) أبيفامية (حماة) وارتوزا (الرستن) ، ومن المحتمل أن مدينة اناستاسيوبوليس (الرصافة) كانت تقع في نطاقها . الا انه في

السنوات الاخيرة من حكم جستنيان انتزعت الاجزاء الساحلية من سورية الثانية ، وجعلت ، مع المناطق الجبلية المواجهة لها ، منطقة ادارية سميت ثيودورياس .

٣ ـ فينيقية الساحلية : وقد امتدت هذه على الساحل الشامي من بالانيا (بانياس) الى جنوبي جبل الكرمل . أما في الداخل فقد ضمت سلسلة الجبال الغربية . وقد كانت صور عاصمتها ،وكانت أهم مدنها طرابلس وبيروت وصيدا وبطوليماوس (عكا) . هذه المدن كانت على الشاطىء ، أما في الداخل فقد كانت مدينة قيسارية بانياس (بانياس ـ جبل الشيخ) أكبر مدنها .

٤ ـ فينيقية اللبنانية (أو الداخلية) وكانت أكبر مدنها اميزا (حمص) ودمشق ، وهي العاصمة ، وبعلبك وتدمر .

٥ ـ فلسطين الأولى : وهذه كانت تشمل السهل الساحلي من نقطة تقع جنوبي جبل الكرمل الى نقطة تقع جنوبي رافيا (رفح)، أما في الداخل فكانت جبال نابلس والقدس والخليل داخلة فيها ، كما كانت تشمل الجزء الجنوبي من وادي الأردن وأهم المدن القائمة فيها كانت يافا وعسقلان وغزه (في الساحل) وأريحا وايليا (القدس) ونابلس وسبسطية . أما العاصمة فكانت قيسارية .

٦ ـ فلسطين الثانية : وكانت هذه تتكون من مرتفعات الجليل ومنابع الاردن (الفلسطينية) وشمال غور الاردن وغولينش (الجولان) . وكانت عاصمتها سكيتوبوليس (بيسان) ، كما كانت تضم بعض مدن حلف المدن العشر (بلا وجدارة وكابيتولياس وهبوس) وطبرية وصفورياس (صفورية) واللجون (تل المتسلم) .

٧ ـ فلسطين الثالثة : كان تراجان قد أنشأ « الولاية العربية » وجعل عاصمتها بصرى ، وذلك لما احتل البتراء (١٠٥ م) ، وكانت تشمل البلاد التي تقع تحت حكم البتراء أي التي كانت جزءاً من دولة الأنباط • لكن هذا الوضع تبدل في القرن الرابع ، فسلخ القسم الجنوبي من الولاية العربية وضم الى الاجزاء الجنوبية الداخلية من فلسطين ، وأصبحت هذه كلها تسمى فلسطين الثالثة • كانت ايلة (العقبة) مقر الحاكم وكانت بين مدنها البتراء والوسا (الخلصة في النقب وبيروسبا (بئر السبع) •

٨ ـ العربية : كانت هذه تشمل المنطقة الواقعة الى الشرق من فلسطين الاولى والثانية والى الجنوب من فينيقية اللبنانية (أو الداخلية) والى الشمال من وادي ارنون (الموجب) والصحراء الى الشرق(٣٧) (ملحق IV)

وحري بالذكر أن الاجزاء الجنوبية من بلاد الشام كانت تجتازها ثلاثة طرق من الشمال الى الجنوب (هذه الطرق التي كانت مستعملة في القرن الخامس للميلاد هي من عمل الرومان والبيزنطيين) • وهذه الطرق هي :

١ ـ دمشق ـ بصرى ـ فيلادلفيا ـ ايلة •

٢ ـ اللجون (الفلسطينية) ـ نيابوليس (نابلس) ـ ايليا (القدس) ـ بئر السبع ـ الوسا (الخلصة) ـ البتراء •

٣ ـ قيسارية ـ ديوسبوليس (اللد) ـ غزة ـ رفح •

وادارة هذه الأقضية (؟) الشامية كانت ادارة عسكرية بشكل عام ، ولذلك كان نفوذ القائد العسكري dux أكبر من سلطة الحاكم(٣٨) •

على أن هذا التقسيم الاداري المنتظم لبلاد الشام كان قد تآكل بين أيام جستنيان (٥٢٧ ـ ٥٦٥) وهرقل (٦١٠ ـ ٦٤١) • فان الحروب التي شنها جستنيان (في الغرب استنزفت موارد الدولة المالية بحيث ان صيانة خط الحدود Limes أهملت • فتهدمت حصون كثيرة • والدراسة التي قام بها س • توماس باركر مؤخرا أظهرت لنا أن عدد المواقع التي كانت صالحة للدفاع أخذ يتناقص من سنة ٤٩١ حتى بلغ أدنى حد سنة ٦٤٠• فقد كان عدد هذه المواقع المحصنة حوالي سنة ٣٢٤ يزيد على الثلاثين ، فأصبح أقل من عشرة مواقع سنة ٦٤٠•(٣٩) (ملحق VI)

يضاف الى هذا انه لما استقر الغساسنة في ربوع الأردن والجولان في القرن الرابع للميلاد ، واتخذهم البيزنطيون حلفاء لهم للدفاع عن المنطقة ، كان من الطبيعي أن تهمل الدولة خط الدفاع هناك •

وقد كان للحروب البيزنطية الساسانية في أواخر القرن السادس ومطلع القرن السابع ، وما رافقها من تخريب وتهديم ، أثر كبير في اضعاف خط الدفاع • وزالت حصون خط الدفاع الروماني البيزنطي وقلاعه •

ويمكن القول بأنه في الثلاثينات من القرن السابع كانت الأقسام الشرقية من بلاد الشام خاضعة لنفوذ زعماء محليين ، كانت سلطتهم تشمل ، في الغالب مناطق صغيرة ، وحتى المدن التي ظل لها بقية من مجالس وموظفين كانت في الواقع تدار على هذا الاساس • (والغساسنة ، كمجموعة ، كانوا أوسع هؤلاء الزعماء سلطانا) •

(٨)

لما بدأ العرب فتوح بلاد الشام في خلافة أبي بكر (١١ ـ ١٣ / ٦٣٢ ـ ٦٣٤) كانت البلاد فريسة سهلة لهم نسبيا • صحيح انه كان هناك دولة البيزنطيين ، التي كانت تكوّن «مظلّة» ، ادارية للبلاد ، والتي كان باستطاعتها أن تجمع جيوشا للدفاع عن البلاد •

لكن الادارة البيزنطية كانت ، على ما رأينا ، قد انهارت ، أو كانت على وشك أن تنهار • ولا يجب أن نغش عندما نقرأ في بعض المصادر أن مدينة بعينها (وهي في الواقع لم تكن سوى بلدة ولكنها منحت درجة المدينة للأسباب المختلفة التي عرضناها) كان فيها موظف من رتبة ستراتفوس أو بوليارك أو ما يشبه ذلك • فالسلطة كانت قد أصبحت خاضعة للزعامة المحلية • وهذه السلطات المحلية كان قد ترتب عليها أن تتحمل أكبر الأعباء الادارية من مثل اقامة أبنية عامة (وهو قليل في أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع) أو اجراء الترميم والاصلاح لأبنية قديمةأو ، وهو الأهم، صيانة الأبنية العامة القائمة • وكان على هذه السلطة المحلية أن تنفق على الخدمات العامة ، العابا كانت أو اقامة شعائر دينية ؛ بل ان الانفاق على المليشيات المحلية (للحراسة والدفاع) كان من واجبها ، وان كان الانفاق على الفرق العسكرية والأورط الموجودة في المراكز الرئيسية ظل من واجبات السلطة المركزية (البيزنطية)•

ولسنا ننوي في هذا البحث تتبع المعارك التي قامت بين الجيوش العربية وجيوش البيزنطيين أو غيرهم من قوى الدفاع المحلية(٤٠) •

اذ ان الذي يعنينا الان هو التنظيم الاداري المباشر الذي تم • على انه لا بد من وضع بعض الملاحظات أمام القارىء كي تتضح له الخطوط التي سنحاول تبيّنها في هذا الحديث :

١ ـ كان تجار مكة كبيري الصلة ببلاد الشام تجاريا ، وخصوصا بالنسبة للطرق المؤدية الى فلسطين ودمشق وبعض موانىء البحر المتوسط الشامية مثل غزة وصور • وهذه التجارة التي كانت قد استمرت فترة طويلة يسرت لزعماء مكة التجاريين المعرفة الدقيقة للأوضاع السائدة في جنوب بلاد الشام بشكل خاص • والقواد الذين انتدبهم أبو بكر ، والذين قادوا الحملات في أيام عمر (١٣ ـ ٢٣/٦٣٤ ـ ٦٤٤) كانوا من المهاجرين المكيين ، ومن النخبة بين هؤلاء ، ومن ثم فقد كانوا على معرفة بالبلاد وطرقها ودروبها • ومن ثم فليس ثمة غرابة في الأمر الذي أصدره أبو بكر الى قواده لما أرسلهم الى بلاد الشام • فقد أمر عمرو بن العاص ـ وهو الموجه الى فلسطين ـ ان يتبع طريق ايلة (العقبة) ، فما كان على يزيد بن أبي سفيان ، ووجهته دمشق ، أن يتبع طريق تبوك • ومثله كان شأن شرحبيل بن حسنه الذي كان الاردن بالذات غايته(٤١) • ولما وجه أبو بكر خالد بن الوليد من العراق الى دمشق كان خالد يعرف طريقه ـ قرقيسيا ثم دومة الجندل (الجوف اليوم) وتدمر والقريتين ـ بحيث يمكنه أن يصل الى مشارف دمشق • وقد استولى خالد على بعض المواقع على هذا الطريق ليضمن خط مواصلاته(٤٢) •

٢ ـ أما فيما يتعلق بالأجزاء الشمالية من بلاد الشام فقد كانت معرفة الخليفة بشأنها أقل ، ومثل ذلك يقال عن القواد • (وسيتضح هذا لنا من تتبع التنظيم الاداري هناك) •

٣ ـ يظهر انحلال الادارة البيزنطية لبلاد الشام من تتبع أخبار الفتوح (بغض النظر عما يحيط بهذه الأخبار من اضطراب من حيث أوقاتها) • فالذي نقرأه هو انه عندما كان قائد عربي (سواء في ذلك القائد الكبير أو أي شخص ينوب عنه) يحاصر موقعا

من المواقع (وما أكثر ما يشير اليها الكتاب على أنها مدن) ، كان «السكان» ــ أهل المكان ــ يدعونه للتفاوض • وقد يتولى المفاوضة عنهم بطريق أو أسقف أو أحد كبارهم ــ ولكن لم يكن المفاوض شخصا من موظفي الدولة • ذلك بأنه بعد المعارك الرئيسية (مثل اليرموك) كانت الجيوش البيزنطية ترحل متجهة الى الشمال • فكان المفاوضون هم أبناء الموضع (مدينة كان أو بلدة) ، وهم الذين كانوا يتفقون مع المحاصرين على الشروط(٤٣) •

٤ ــ ان عدد الأماكن التي سلمت بدون قتال يدعو الى النظر في القضية (من الزاوية التنظيمية) • والأردن استسلم بقليل من القتال(٤٤) • ولكن ماذا كان يمكن للسكان المحليين أن يفعلوا سوى ذلك (لا شك ان الشروط الكريمة التي كان القائد يعرضها كانت مشجعة ، ولكن هذا شأن آخر) •

لن أتناول في هذا البحث النواحي المالية ولا تنقل السكان ولا نقلهم وغير ذلك من الأمور التي يمكن أن تدخل في الاطار الاداري• لأن الذي يعنيني هو التقسيم الاداري الجديد (أو التنظيم الاداري الجديد) من حيث المناطق •

بعد معركة اليرموك (١٥/٦٣٦) وخاصة بعد تسلم **عمر بن الخطاب مدينة القدس** ، انصرف الخليفة الى تنظيم الأجزاء الجنوبية التي انتهى أمرها من بلاد الشام • كان أبو عبيدة الجراح قد ولي القيادة في بلاد الشام لمّا تولى عمر الخلافة • (ويجب أن نذكر هنا ان القيادة العسكرية والامارة المدنية كانتا أمرا واحدا يومها) • وظل في عمله ، الى أن توفي في طاعون عمواس ، بعد خمس سنوات • وقد عهد أبو عبيدة الى يزيد بادارة دمشق ، والى عمرو بادارة فلسطين والى شرحبيل بادارة الأردن •

لكن المهم هو تعيين « المنطقة » التي كان يشملها هذا التعيين لكل منهم :

١ ــ يبدو أن « الأردن » كان واضحا ، اذ ان ادارة شرحبيل شملت هضبة الأردن،وهي الطريق الرئيسي لتجار مكة الى أواسط بلاد الشام • لكن هذا الطريق كان له دوما منفذ الى البحر (بالاضافة الى طريق الشام البري) في شمال الغور عبر مرج ابن عامر (المدن العشر) • ولذلك فقد ضمت كل من عكا وصور (مع المرج) الى الأردن • وهذا الجزء هو الذي انتزع من « فلسطين الثانية » (راجع قبلا) وضم الى ولاية شرحبيل • ولسنا نحسب انه من قبيل المصادفة أن شرحبيل الذي أرسل أصلا لفتح الأردن هو الذي فتح عكا (ولعله هو الذي احتل صور أيضا) • وكانت من قبل بيسان عاصمة فلسطين الثانية ،فأصبحت الآن طبرية عاصمة هذه الولاية الجديدة ــ الأردن •

٢ ــ كان ثمة ، كما رأينا ، في التنظيم السابق ، ثلاث ولايات (أو أقضية) تسمى كل منها فلسطين • وقد زالت الثانية ، كما زالت «العربية» ، اذ جمعت هذه كلها في «الأردن» • وما تبقى من هذه الثانية ضم الى فلسطين « الأولى » وفلسطين « الثالثة » ، وسميت جميعها فلسطين • واختيرت اللد عاصمة لها الى ان ابتنى سليمان بن عبد الملك (الخليفة الأموي ٩٦ ــ ٩٩ / ٧١٥ ــ ٧١٧) لما كان واليا على فلسطين ، مدينة الرملة ونقل الادارة اليها•

كان نقل عاصمة الأردن من بيسان الى طبريا أمرا يعود الى أن طبريا كانت أصلح كمركز للادارة • والسؤال الآن لماذا اختار أصحاب الأمر اللد عاصمة لفلسطين بدل قيسارية (التي كانت عاصمة فلسطين « الاولى ») • نحن نرى أن العرب كانوا يفضلون

عاصمة ادارية داخلية ، عـلى أخرى تقـع عـلى الشاطىء ، لأن الأسطول البيزنطي كان لا يزال يذرع البحر • يضاف الى هذا ان قيسارية كانت آخر مدينة فتحها العرب في فلسطين •

٣ ـ وولي يزيد ما عرف يومهـا « بالشام » (ويجـب أن لا نخلط هذا ببلاد الشام) • وقد كانت دمشق مركز ادارته ، أما المنطقة فكانت تمتد شرقا الى تدمر وكانت تشمل حوران وتمتد الى بصرى (التي لم تكن جزءا من الاردن) جنوبا ، أما ولايته فتضم الجولان(٤٥) •

وفيما كان هؤلاء « الحكام » (أو الأمراء أو القواد) يديرون هذه المناطق التي عهد بها إليهم ، ويقومون بحراسة الطرق وحفظ الأمن وتأمين الناس على أرواحهم وأموالهم، كانت المعارك لا تزال قائمة في الشمال • ولما توفي أبو عبيدة في طاعون عمواس عين عمر ابن الخطاب يزيد بن أبي سفيان أميرا ـ قائدا ـ للبلاد • على أن يزيد توفي بعد ذلك بقليـل ، فعهد عمر الى معـاوية بالأمر • ويروي البلاذري هذه الحادثة بقوله : « ولما توفي يزيد بن أبـي سفيان كتب عمر الى معاوية بتوليته ما كان يتـولاه • فشكر أبو سفيان ذلك له (لعمر) وقال : وصلتـك يا أمـير المؤمنـين رحم »(٤٦) • وهكذا فان عمر،على ما كان له في تجار مكة وفي آل أبي سفيان من رأي ، وجد ان مصلحة الدولة الفتية تقتضي أن يتولى أمورها الاشخاص القادرون •

٤ ـ أما فيما يتعلق بالأجزاء الشمالية من بلاد الشام فالأمر لم ينتظم على ما انتظم في الجنوب • ومع أن الصورة فيها الكثير من الاهتزاز ، فالذي نجده هو ان جميع الاجزاء الشمالية من بلاد الشام ومعها الجزيرة الفراتية (جزيرة ابن عمر) كان يتولى

أمرها أمير واحد • ولعل التفسير الوحيد لذلك هو أن الاحتلال هناك جاء مجزءا ، وكانت الاجزاء المفتوحة على التوالي تضم الى ما سبقها • ومن هنا فبينما نجد أن فلسطين والاردن والشام كانت مناطق محدودة من الممكن تدبيرها ، نرى أن المنطقة الممتدة من البحر المتوسط الى دجلـة ومـن المرتفعات الشمـالية الى حمص وطرابلس هي « وحدة » ادارية واحدة •

(٩)

وهنا نقع على تسمية لهـذه الوحدات الادارية وهي الأجنـاد (جمع جند) ، ويقول البلاذري سمى المسلمون فلسطين جندا لأنه جمع كورا (جمع كورة) وكذلك دمشق وكذلك الأردن وكذلك حمص مع قنسرين(٤٧) • ومع اننا لا نعرف تماما متى أطلق العرب كلمة جند على هذه الوحدات ، فاننا نرى أن هذا التفسير الذي ذكره البلاذري لا مبرر لـه • الا ان البـلاذري نفسه يضيف : « سميت كل ناحية لها جند يقبضون اطماعهم منها جندا »(٤٨) • ومع ان هذا التفسير فيه توضيح أدق ، فان الباحث يود أن يعرف الأصل الذي اعتمد في ذلك • والذي أراه هو أن هؤلاء القـادة والأمراء العرب الذين تولوا الأمر في الفترة الاولى كانوا يعرفون عن بلاد الشام (في أيام البيزنطيين) أكثر من مجرد طرق التجارة والأسواق • كانوا على اطلاع ، عـلى ما يبدو ، عـلى الالتزامات المالية وغيرها التي كان على السكان أن يقدموها في سبيل الاحتفاظ بالوحدات العسكرية (الميليشيات وأكثر) التي توجد في مناطقهم• وهذا ما يوضح لنا استعداد السكان ، في كثير من الجهـات ، عـلى تقديم ما تحتاجه الجيوش من الزيت والحبوب(٤٩) ومن ثم فان استعمال كلمة جند أصبح مرتبطا ـ أيام العرب الاولى ـ بتقديم

ما يطلبه الجيش ـ الجند من المنطقة الادارية • وظل الاسم مستعملا • يضاف الى هذا ان الوحدات الادارية الثماني التي كانت بلاد الشام قد قسمت اليها في أواخر العهد البيزنطي كان القائد العسكري هو صاحب القول الأول ، على ما مر بنا •

وقد رأينا أن الأجزاء الشمالية من بلاد الشام كانت ، في دور الفتوح وما تلاه لفترة قصيرة ، جميعها « وحدة ادارية » • وهذه كانت في أيام البيزنطيين تشمل الوحدات التالية : سورية الأولى وعاصمتها خلقيس (قنسرين) ، وسورية الثانية ومركز ادارتها كان في افامية ، وجزءا من فينيقية البحرية (التي كانت صور عاصمتها وهذه المدينة ضمت الى الاردن) وفينيقية الداخلية (وكانت حمص عاصمتها) • وقد ضمت الجزيرة الى شمال بلاد الشام لما فتحت (وكانت هذه وحدها تتكون من ولايتين وأحيانا أكثر من ذلك في أيام البيزنطيين) •

والبلاذري ينبئنا انه في أيام يزيد بن معاوية (٦٠ ـ ٦٤ / ٦٨٠ ـ ٦٨٣) فصلت حمص عن قنسرين وأصبحت جندا مستقلا[٥٠] • وأفرد عبدالملك بن مروان (٦٥ ـ ٨٦ / ٦٨٥ ـ ٧٠٥) الجزيرة فأصبحت جندا وصار جندها يأخذون أطماعهم من خراجها[٥١] • وأخيرا في أيام هرون الرشيد (١٧٠ ـ ١٩٣ / ٧٨٦ ـ ٨٠٩) جعلت قنسرين وكورها جندا ، وفصلت عنها مدن منبج ودلوك ورعبان وقورس وانطاكية وتيزين وسماها الرشيد العواصم[٥٢] •

وهنا نجد ان بلاد الشام أصبحت تتكون من الاجناد التالية : قنسرين وحمص والشام (دمشق) والأردن وفلسطين والعواصم

وان الجند أي الجيش المقيم في كل من هذه كان ينال أطماعه من المنطقة المستقر بها •

والذي يدعو الى العناية هو الموانىء • ماذا كان دورها في هذا التنظيم ؟ يخيل الينا ان موانىء الشمال بشكل خاص كانت، من وجهة نظر أولى الأمر ، لا تزال معرضة لهجوم الأسطول البيزنطي • ولذلك لم تضم الى الاجناد المصاقبة لها • ونحن نعرف مثلا ان انطاكية « لما فتحت كتب عمر الى أبي عبيدة ان رتب بانطاكية جماعة من المسلمين أهل نيات وحسبة ، واجعلهم مرابطة، ولا تحبس عنهم العطاء • ثم لما ولي معاويه كتب اليه بمثل ذلك• ثم ان عثمان كتب اليه يأمره بأن يلزمها قوما[٥٣] ومثل ذلك فعل المسلمون باللاذقية وجبله وانطرطوس (طرطوس)[٥٤] ومعنى هذا كله أن الموانىء ظلت موضع عناية الخلفاء مباشرة مدة طويلة ، ونرجح ان ذلك استمر حتى أنشأ معاوية دور الصناعة[٥٥]، وتم للعرب فتح قبرص فزال الخطر نسبيا •

ومن هنا نرى أن الأمر الذي انتهى اليه العرب في تنظيم بلاد الشام كان تطويرا للنظام البيزنطي، وخاصة في الأجزاء الجنوبية فان تكون تلك الأجزاء في أقصاها جندين أي ولايتين ، هو أقرب الى المنطق الاداري من « ثلاث فلسطينات » « وعربية » واحدة •

(١٠)

ترد جند وأجناد في المصادر العربية الأولى ، وهذا أمر طبيعي، ولكن الغريب أن ياقوت الحموي (القرن السابع / الثالث عشر) يستعمل كلمة جند أيضا والذي نلاحظه هو ان هذا الجغرافي الكبير عندما كان ينقل عن أمثال البلاذري كان يستعمل كلمة جند ، ولعله كان يقصد منطقة لا أكثر ولا أقل •

فنحن عندما نعود الى المقدسي في أحسن التقاسيم نجده يستعمل كلمة كورة لتقسيم اقليم الشام كما يسميه • والمقدسي يعرف هذه البلاد معرفة دقيقة ، فهو من مواليد القدس (أو الرملة ؟) • ولا نرى باسا من ذكر الكور التي يوزع المقدسي بلاد الشام عليها (القرن الرابع / العاشر) •

أ ـ كورة قنسرين (احتفظت بالاسم مع ان المدينة قد تأخرت يومها وأصبحت حلب مركزها) وفيها من المدن انطاكية والسويدية (وهي سلوقية البحرية القديمة) والاسكندرونة وحماة وشيزر •

ب ـ كورة حمص : وكانت تمتد شرقا بحيث تشمل تدمر ، وتصل غربا الى البحر ، وكانت موانىء اللاذقية وجبله وطرطوس تابعة لها (أما العاصمة فكانت حمص) •

ج ـ كورة دمشق (وهذه هي العاصمة) وكانت تشمل الجولان والبقاع وطرابلس وبيروت وصيدا •

د ـ كورة الاردن (التي ظلت طبريا العاصمة) وكانت أكبر المدن الداخلة فيها صور وعكا وبيسان واذرعات (درعا) •

هـ ـ كورة فلسطين (والرملة العاصمة) وفيها القدس وغزة وعسقلان وقيسارية ونابلس واريحا •

و ـ وقد أضاف المقدسي كورة الشراة التي كانت تصل جنوب الأردن (وجنوب فلسطين) بالحجاز •وكانت صفر (اوزغر) عاصمتها ، وهي في وادى العربة ، ومن مدنها العقبة ومعان وعمان(٥٦) •

على ان الأمر الحرى بامعان النظر هو انه بعد قيام الدولة العباسية وضعت بلاد الشام على الهامش اداريا ـ تنظيميا • ومع

اننا لا نستطيع القول بأن الحبل ترك على الغارب تماما ، فقد كان الوضع أقرب ما يكون الى ذلك • وعلى فلسطين وأجزاء ساحلية أخرى من بلاد الشام وحتى بعض الأجزاء الداخلية كانت تقع تحت سلطان الطولونيين (٢٥٤ ـ ٢٩٢ / ٨٦٨ ـ ٩٠٥) أي في القرن الثالث/التاسع ؛ أو تحت سيطرة الاخشيديين (٣٢٣ ـ ٣٥٨ / ٩٣٥ ـ ٩٦٩) أي في القرن الرابع/العاشر ؛ أو تحت سلطة الفاطميين منذ مجيئهم الى مصر في أواسط القرن الرابع/العاشر • كما ان الحمدانيين (٢٩٣ ـ ٣٩٣ / ٩٠٥ ـ ١٠٠٤) اقاموا دولتهم في شمال سورية •

وليس لدينا ، فيما أعرف ، معلومات كافية لرسم خارطة ادارية لبلاد الشام في الفترة التي تلت قيام الدولة العباسية (الا ما ذكرنا مما قام به الرشيد)•

واذن فما معنى هذا التقسيم الذي أورده المقدسي ؟ هل كان ، في الواقع تقسيما اداريا مرعي الأصول ؟ أغلب الظن عندنا ان المقدسي لم يقسم « اقليم الشام » تقسيما اداريا حتى بالمعنى الراشدي أو الأموي (ولسنا ندري الى أي حد كان الرجل يعرف تفاصيل ما سبق الفتوح العربية) ، بل انه نظر الى الاقليم بكامله، ورأى المدن والقرى الكبيرة التي تدور في فلك مدينة كبيرة اما اقتصاديا أو سوقيا او ارتباطا بطرق المواصلات ، فجعل الوحدة (الكورة) ، (والقصبة) العاصمة ، والمدن الباقية التابعة للقصبة أي التي هي جزء من الكورة •

الا اننا ونحن نضع هذا الملحظ أمام القراء ، نود أن نشير الى ان هذا « التوزيع الكورى » لاقليم الشام (حتى لا نسميه التنظيم الادارى لبلاد الشام) على يد المقدسي فيه الشيء الكثير من ادراك

الترابط بين أجزاء الكورة الواحدة ، وبين الكور مجتمعة • ويتضح هذا بشكل خاصة من ذكره للمسافات والطرق(٥٧) •

خطر لي أن أضيف هنا بضعة أسطر تتعلق بتنظيم بلاد الشام اداريا في عصر المماليك ، اذ قسموها الى ست وحدات ادارية سميت واحدتها مملكة هي : مملكة حلب ومملكة حماة ومملكة طرابلس ومملكة دمشق ومملكة صفد ومملكة الكرك • وقد يضاف بين الحين والآخر وحدة سابقة هي القدس وغزة وعندها تنتزعان من مملكة دمشق(٥٨) • وبدلا من التحدث عن هذه بأي تفصيل (وهي خارجة عن موضوع البحث) ، فقد أرفقت خارطة تبين هذه التقاسيم كنت أعددتها انا لكتابي المذكور في الهامش(٥٩) ، بناء على المعلومات التي زودني بها القلقشندي في صبح الاعشى (راجع هوامش الصفحات من كتابي المذكور) • (ملحق VII)(٦٠) •

الهوامش

١ ـ نقولا زيادة « الحكم السلوقي في بلاد الشام : أسسه وأساليبه » ، **الفكر العربي** ، السنة الثالثة ، العدد الثاني والعشرون (أيلول ـ تشرين الأول / سبتمبر ـ اكتوبر ، ١٩٨١) من ١٨١ ـ ٢٠٣ (خاصة ص ١٨٩ ـ ١٩٠) •

٢ ـ A. H. M. Jones, Cities of thte Easter Roman Provinces (rev. 2nd ed. Oxford, 1971), 230-ff.

٣ ـ نقولا زيادة ـ الحكم السلوقي الخ ص ١٩٠ ـ ١٩١ •

٤ ـ راجع : نقولا زيادة « المدينة الكلاسيكية في الغرب والشرق » ، **الفكر العربي** ، السنة الرابعة ، العدد التاسع والعشرون (تشرين الأول ـ اكتوبر / تشرين الثاني ـ نوفمبر ، ١٩٨٢) ص ٦٤ ـ ٨٦ •

Jones, Cities, 236-7.

٥ ـ W. W. Tarn, Hellenistic Civilization (London, 1959), 145-6.

٦ ـ نقولا زيادة ـ الحكم السلوقي الخ ص ١٩٣ •

٧ ـ Tarn, Hell. Civilization, 144-5.

٨ ـ A. H. M. Jones, The Greek City from Allezander to Justinian Justinian (Oxford, 1940), 2-9.

٩ ـ Jones, City, 7-8; Jones, Cities, 242-3; Tarn, Hell. Civil. 134-160. Glanville Downy, History of Antioch in Syria (Princeton,1961), 67-86; F. E. Peters, The Harvest of Hellenism New York, 1970), 25-118.

١٠ـ نقولا زيادة ، « المدينة الكلاسيكية الخ ص ٧٥ وما بعدها •

١١ـ Jones, Cities, 246 ff.

١٢- نقولا زيادة ، « المدينة الكلاسيكية الخ » ص ٨٠ - ٨٣ .

١٣- نقولا زيادة ، العالم القديم (الجزء الثاني ، يافا ١٩٤٦) ص١٢٤-١٢٥ .

١٤- Jones, Cities, 249-50.

١٥- M. Rostovzeff, Social and Sconomic History of the Hillenistic World (Oxford, 1941), 272; M. A. Levy, **Political** Power in the Ancient World (London, 1965) 111-3; Pierre Grimal, Hellenism and the Rise of Rome (London, 1958). 244, 277.

١٦- Jones, **Cities**, 252-256.

١٧- Grimal, **Hellenism**, 172.

١٨- Levy, **Political**, 110 ff

١٩- نقولا زيادة ، الملك السلوقي الخ ص ١٩٦ .
Grimal, **Hellenism**, 283.

٢٠- Jones, Cities, 246-7; Rostovzeff, 79; Tarn, 132; Grimal, 176 ff.

٢١- Tarn, 132-3.

٢٢- Jones, Cities, 256, 263.

٢٣- Tarn, 138.

٢٤- Tarn, 134-5.

٢٥- Jones, Cities, 263.

٢٦- Tarn, 68-78.

٢٧- Jones, Cities, 25; Rostoxzeffff, 430 ff

٢٨- Jones, Cities, 256 ff.

٢٩- Jones, City, 65.

٣٠- Jones, Cities, 248.

٣١- Jones, Cities, 286.

٣٢- Jones, City, 74.

٣٣- A. H. M. Jones, **The Later Roman Empire** (4 vols., Oxford 1964) Vol. I, 1, 42-3. 373; H. M. Parker, History of the Roman World (London, 1934), 263; F.-M. Abel, **History** de la Palestine (Vol. II, Paris, 1952), 243-4;

٣٤- S. Thomas Parker "Archaeological Survey of the Limes Arabicus", **Annual of the Dept. of Antiquities** (Jordan), Vol. XXI (1976) map of the defencis attached (VI ملحق)

٣٥- Abel, II 246-7.

٣٦- Parker, **History**, 275; II 247.

٣٧- Abel, II, 245-9; Jones, Later III, 380.

٣٨- Jones, Later, III, 380, of. S. Runciman, **Byzantine Civilization** (Cleveland and New York, 1970). 117.

٣٩- Abel, II, 294-6, Jones, Later, III 388-90.

٤٠- Runciman, 73.

٤١- عدت الى فتوح البلدان للبلاذري ، تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد (ثلاثة أقسام ، القاهرة ، ١٩٥٦) . وبهذه المناسبة فهناك ترجمة انكليزية للكتب من نقل المرحوم الدكتور فيليب حتي نشر باسم :

٤٢- Figure from S. Thomas Parker attached. (VI ملحق)

٤٣- The Origin of the Islamic State Vol. I, New York and London.

٤٤- البلاذري ، أو ص ١٢٩ .

٤٥- المكان نفسه ، ص ١٣٢ - ١٣٣ . والطريق الصحراوي الذي اتبعه خالد من العراق الى دمشق هو الطريق الذي كان يستعمل اذا اضطربت الأمور حول الطريق الشمالي الطبيعي بين البلدين الذي يمر بحلب متبعا ينابيع الماء وأرض الكلأ .

٤٦ـ المكان نفسه ص ١٢٦ ـ ١٨٠ (عرض عام) ·

٤٧ـ المكان نفسه ص ١٣٨ ـ ٩ ·

٤٨ـ المكان نفسه ص ١٢٩ ـ ١٥٥ ·

٤٩ـ المكان نفسه ص ١٦٧ ·

٥٠ـ المكان نفسه والصفحة ذاتها ·

٥١ـ المكان نفسه ص ١٢٨ ـ ١٨٠ ·

٥٢ـ المكان نفسه ص ١٥٦ ·

٥٣ـ المكان نفسه ص ١٥٦ ·

٥٤ـ المكان والصفحة بالذات ·

٥٥ـ المكان نفسه ، ص ١٧٥ ·

٥٦ـ المكان نفسه ، ص ١٥٨ ·

٥٧ـ المكان نفسه ، ص ١٣٩ ـ ٤٠ ·

٥٨ـ محمد بن أحمد المقدسي (المعروف بالبشاري) ·
احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم (طبعة بريل ، ليدن ، ١٩٠٦) ص ١٥٤ ـ ١٥٥ ·

٥٩ـ المكان نفسه ، ص ١٩٠ ـ ١٩٢ ·

٦٠ـ Nicola A. Ziadeh, URBAN LIFE IN SYRIA under the Early Mamluks (American University of Beirut 1953), pp. 11-38.

الملاحق ٦ خرائط وشكل بياني

I ـ خارطة لبلاد الشام في العصر الروماني ـ البيزنطي ·

II ـ خارطة تبين كثافة المدن في القرن الخامس للميلاد في الدولة البيزنطية · يلاحظ وضع بلاد الشام ·

III ـ خارطة تعطي فكرة عامة عن الأقسام الادارية لبلاد الشام في أواخر العصر البيزنطي ·

IV ـ فلسطين وأقسامها الادارية الثلاثة ، تبدو الى الشمال كل من فينيقية البحرية وفينيقية اللبنانية أو الداخلية ·

V ـ خارطة لتحصينات الحدود الشرقية للامبراطورية الرومانية ـ البيزنطية بالنسبة الى الاردن ·

VI ـ شكل بياني يوضح تطور التحصينات (القلاع ، الأبراج ، وأبراج المراقبة) على الحدود الأردنية في العصر الروماني ـ البيزنطي ·

VII ـ خارطة للتنظيم الاداري لبلاد الشام في العصر المملوكي ·

الأثر السرياني في الحياة الفكرية
والعلمية في بلاد الشام

جورج ن· عطية

مقدمـــة :

الكلام عن أثر حضارة في حضارة أخرى يدعو إلى الكلام عن التفاعل الحضاري ويدعو إلى تقييم الحضارات المتفاعلة · وهو أمر قد يثير التساؤلات عدا إثارته للعواطف التي نصبها على الحضارة التي ننتمي إليها أو نتعلق بها · ولذلك يبدو لنا انه من المستحسن أن نمهد لكلامنا ببعض الايضاحات التي قد تساعد على تفهم الغاية أو الغايات التي نسعى إليها من الحديث عن أثر سرياني في الحياة الفكرية والعلمية ·

أولا :

ماذا نعني بالسرياني ؟ هناك مفهوم واسع ومفهوم ضيق لهذه الكلمة ، والمفهوم الواسع هـو معنى أشمل مـن المعنى القومي واللغوي · فقـد أطلق أرنولد توينبي اسم الحضارة السريانية Syriac (١) للدلالة على تلك الحضارة التي تعـم الشرق الأدنى بما فيه تركيا وإيران · ولعله يمكننا تسميتها حضارة « الشرق الأوسط » الاسلامي · والحضارة بالنسبة لتوينبي ، وهو يسميها مجتمعا Society ، هي وحدة تاريخية ممكنة الادراك · ومن هنا يترتب علينا لكي نفهم أي متحد اجتماعي فهما تاريخيا كاملا ، ينبغي أن نتعدى الأساس القومي · فالأمم هي اجزاء حضارية

صغيرة من «مجتمع» حضاري كبير ، لا هو بالقومي ولا هو بالعالمي ، إنما بين بين • والتشديد في نظرة توينبي إنما هو على العلاقة التاريخية ، بمعنى أنه لا يمكن تاريخيا فهم أي جزء من أجزاء المجتمع الكبير فهما كاملا تاما ، دون أن ننظر الى علاقاته التاريخية ضمن هذا المجتمع الكبير ، وعلى هذا الأساس لا يمكننا أن نفهم الحضارة الاسلامية ، الا اذا فهمنا تاريخ سورية • وكذلك لا يمكن فهم تاريخ سورية ، في هذه الفترة المعينة ، إلا إذا درسناه ضمن هذه الوحدة التاريخية الممكنة الادراك ، التي هي مجتمع الشرق الأوسط الاسلامي •

والمعنى الضيق لكلمة «سرياني» هو ما اضفاه عليها بعض المستشرقين من أمثال روبنز دوفال ، والأب شابو ، وغيرهما ممن يقصرون هذا المفهوم على الأدب المسيحي المكتوب باللغة السريانية • وكما نعرف ، إن بلاد الشام استعملت هذه اللغة لزمن طويل ، ولقد بقيت منتشرة فيها انتشاراً واسعا حتى القرن الثالث عشر الميلادي ، ومن ثم اضمحلت إلا في بعض المناطق •

واللغة السريانية هي في الواقع اللهجة الشرقية للغة الآرامية • ويجمع العلماء على أن «السريانية» جاءت نسبة الى سورية ، أي بلاد الشام •

ولما كانت الآرامية تشمل أقواما عديدة يعيش بعضها خارج سورية ولا يمت اليها بصلة ، أصبح مفهوم السريانية ، بعد السيطرة العربية ، مقتصرا على لغة مسيحيي بلاد الشام وبعض العراق ، وهذا ما يعنيه عادة العلماء الذين يساوون بين السريانية والأدب المسيحي الشامي •

ولكن نحن سننظر الى السريانية كربيبة البيئة السورية • فنظرتنا ليست مقتصرة على المسيحيين أو مختصة بهم فقط ، إنما تشمل كل من استخدم تلك اللغة في بلاد الشام أو أنتج فكراً وعلماً فيها ممن ترك أثراً في الخط الحضاري الذي نشأ بعد دخول الاسلام • ولذلك فكلمة سرياني تعني لنا « سوري قبل إسلامي » وليس مجرد من استخدم اللغة السريانية من الكتاب المسيحيين • وقد تكون هذه التسمية مفتعلة أو مخطئة ، ولكنها مناسبة لغايتنا في المحاولة التي نقوم بها لوصف دور السريان في الحياة الفكرية والعلمية التي سبقت ظهور الاسلام •

والنقطة الثانية التي نود إيضاحها هي نقطة ذات علاقة وثيقة، وحساسة بعملية التفاعل الحضاري وبتقييم الحضارات • وبالنسبة لموضوعنا نعني الحضارة العربية • فهناك من قد يرى تهجما على هذه الحضارة وعلى الاسلام بمجرد الكلام عن أثر غير عربي أو غير إسلامي • والحمد لله إن من يرى في ذلك تهجما هم أقلية ، وهؤلاء لا يفرقون عادة بين الاسلام كعقيدة دينية والاسلام كحضارة • فاذا كان الاسلام كعقيدة «ثابتا» فالاسلام كحضارة « متحول » •

والحضارة هي ما يحققه الانسان في الطبيعة ، الحضارة تعني ما يحدثه أو يبدعه أو يبدله الانسان في كائن ما ، أو في أمر طبيعي يصبح له قيمة • فالحضارة التي ظهرت في بلاد الشام ، وفيما بعد في العالم العربي كله، هي من صنع الناس الذين قطنوا هذه البلاد •

والحضارة لا تنشأ في فراغ ، وكلنا يعرف انه لم يكن لعرب الجزيرة ما يصح ان نسميه علما متكاملا ، بمعنى دراسة منتظمة للطبيعة ومظاهرها وقوانينها • فالتراث العلمي العربي لم يتولد

إلا مع الاسلام ، وبعد ظهور الاسلام • فالفلسفة مثلا والطب وعلوم الطبيعة لم تظهر من العدم • بل من أصول مختلفة ، ومصادر متعددة • ومن هذه الأصول ، أصل عميق الجذور ، هو الأصل السرياني •

الشعوب دائنة ومدينة ، يمد بعضها بعضا ويأخذ بعضها عن بعض ، فاذاً ، لا عيب عند درسنا للحضارة أن نعترف بأن الانسان يأخذ عن أخيه الانسان ، وخصوصا عندما يكون الاثنان من منطقة واحدة أو من بلد واحد تغيرت مميزاته ومعتقداته ، لكن وحدته التاريخية لم تتغير •

الحضارات تنمو نتيجة للتفاعل الفكري والخلقي ، اذ لا بد للحضارات ان تستعير من بعضها بعضاً ، فبذلك تحيا وتنمو وتتطور • وإنه لمن المؤسف أن البعض ، عند دراستهم لتاريخ الأفكار أو العلوم ، إنما يغالون في تقييمهم للاعارة ، إما بتضخيم قيمة ما أعاروه أو بتبخيس قيمة ما استعاروه ، والواقع أن الاعارة والاستعارة أمر مألوف في الحضارات • وموقف الانسان الحكيم الواثق من نفسه هو الاعتراف بهذا الأمر الواقع كمبدأ من مبادىء النمو الحضاري •

إن مشكلة تفوق حضارة على حضارة مشكلة لا تزال بيننا • وقد واجهها العرب وكتبوا فيها كثيرا من أمثال الجاحظ وأبي حيان التوحيدي • ولكن نحن لا نسعى هنا الى تفضيل حضارة على أخرى ، فكلامنا عن الأثر السرياني أو الدور السرياني ليس غايته القول بأن الثاني تابع للأول فكريا أو حضاريا • إن الغاية الأساسية هي تأكيد التواصل الحضاري في منطقة بلاد الشام ، وإن كلام القائلين بأن المفكرين والعلماء العرب لم يعرفوا الفكر اليوناني القديم إلا في العصر العباسي هو زعم لا صحة له •

دور السريان ـ السريان والفلسفة :

والآن نأتي إلى الدور الذي لعبه السريان في الحياة الفكرية والعلمية في بلاد الشام قبل ظهور الاسلام ، وعند فجر الاسلام ، وقد ترك أثراً دائماً فيها وان كان المؤرخون يختلفون في مداه وأهميته ، خصوصا وأن الكثير مما ألفه السريان ضاع ولم يصل إلينا ، مما يضطرنا في تقييمه الى الاعتماد على مصادر غير مباشرة ، وفي أحيان كثيرة منحرفة •

من يدرس تاريخ بلاد الشام قبل الاسلام ويحقق في دوره الحضاري ، خصوصا في حقلي الفلسفة والعلوم الطبيعية ، وهما العلمان اللذان سنقصر حديثنا عليهما ، لا بد له أن يقارن هذا الدور مع دور الغرب اليوناني والروماني في الحضارات التي نشأت في بلدان البحر المتوسط ، التي حكمها خلفاء الاسكندر الكبير وخلفاء قياصرة روما ، ونعني الحضارات التي نشأت في العهدين الهيليني والبيزنطي • ففي هذين العهدين ، كانت بلاد الشام جزءاً من دولة واسعة اختلطت فيها الحضارات وتمازجت ، وكان من شأنها أن تحولت الدولة من دولة «المدينة المستقلة» Folis الى امبراطورية كبرى متشعبة ، الأمر الذي أدى الى محاولة تغيير مفهوم المواطن ، من مواطن إقليمي محلي ، إلى مواطن عالمي متساوٍ في الحقوق والواجبات • وكان من أثر التوسع في الرقعة الجغرافية توسع في رقعة الحياة ، خصوصا الحياة الغربية •

وخلال هذه الفترة ، انتقلت مراكز العلم من اليونان الى الشرق الأدنى ، وظهر عدد من الفلاسفة والعلماء الشرقيين ، من سريان ومصريين وإفريقيين ويونان متشرقين ، درسوا على يد أساتذة يونان ورومان ، وأدخلوا على الفلسفة اليونانية عناصر جديدة ،

وجهتها توجيها مغايرا لما كانت عليه في عهد ازدهارها الكلاسيكي تحت سيطرة العقلانيين اليونان • وفي العصر الروماني انتشرت الفلسفة الرواقية والديانة المسيحية ، كما انتشرت الهرمسية* والفيثاغورية والأفلاطونية المحدثة •

وكان هناك ، سواء على رأس هذه الحركات أو بين قادتها المبرزين ، رجال من بلاد الشام • وسننظر الى الدور السرياني من زاوية هؤلاء الرجال ، ومن زاوية مراكز العلم الرئيسية التي نشأت في بلاد الشام قبل ظهور الاسلام وفي فجره • وهذا سيضطرنا الى سلخ هؤلاء الرجال وهذه المراكز العلمية عن المجاري الفكرية الكبرى المنتشرة في كل انحاء الامبراطوريتين الرومانية والبيزنطية • والغاية من هذا المنهج هي تسليط الضوء القوي على هؤلاء الأفراد والمراكز وإظهار دورهم الخاص في الحياة الفكرية والعلمية على حساب النظرة الشمولية •

وأولى المدارس الفكرية التي كان للمفكرين السريان شأن كبير فيها هي المدرسة الرواقية «أصحاب المظلة» التي أسسها زينون Zeno (٢) (٣٣٥ ـ ٢٦٤ ق•م) ونشرها سرياني هو بوزيدونيوس Posidonios الأفامي (١٥٣ ـ ٥١ ق•م) • والفلسفة بالنسبة للرواقية هي محبة الحكمة ومزاولتها ؛ هي العلم بالأمور الالهية والانسانية والسعي وراء الفضيلة • والعلم ليس الغاية إنما الفضيلة التي نتوصل إليها بالعلم • وتنقسم الفلسفة في نظر الرواقية الى ثلاثة أقسام : العلم الطبيعي والجدل (المنطق) والأخلاق • ولكن كل هذه الأقسام مترابطة ، لأن الوجود واحد • والموجود هو جسمي أي مادي ، ولذلك العلم عندهم هو تنظيم المعرفة الحسية حسب مراتبها

* الهرمسية .

من تصور وتصديق وتصور محيط وأخيرا العلم ، أي جمع الادراكات الحسية الجزئية وسلكها في مجموعة متناسقة تصور وحدة الوجود(٣) • ووظيفة الانسان هي أن يحيا وفق الطبيعة أي وفق العقل ، فالفضيلة هي المطابقة مع الطبيعة ، أي الحياة وفق القوانين الطبيعية • الفضيلة هي الخير المحض ، والرذيلة هي الشر، الفضيلة هي الغاية من الحياة • ويقول الرواقيون بالعناية ، وهي عندهم فكر الله • وهم يقولون إن هذا الفكر حكيم ، يرعى العالم ويدير الأشياء جميعها على مقتضى قواعد الكمال ، أي على أحسن الوجوه الممكنة ، « ليس في الامكان أحسن مما كان » • فهم يبرئون العناية الالهية من الشر • ويقولون كذلك بالقدر أو الضرورة ، وهو تدبير العالم ، أي وضع كل شيء في نصابه ، ويحاولون التوفيق بين القدر والضرورة ، فالظروف تحرك الانسان ، وخلقه يعين سيرته • فوقوع الشر يعود الى حرية الانسان وليس للألهة •

ان أهم ما ساهمت به الرواقية هو النظرة الى وحدة الانسان وكون البشر متساوين بالعقل ، أي أن في كل إنسان نفحة من العقل أعطاها إياه الاله الذي يحكم العالم ويدبره ، لذلك لا فرق بين إنسان وآخر من حيث الماهية • فالعقل الانساني هو شرارة ألهية تسري بين جميع الكائنات • تحييها وتربط بينها وتجعل منها عالما واحدا • وقد ألف زينون كتابا دعاه «الجمهورية» يعبر فيه تعبيرا واضحا عن نظرية «المدينة العالمية» • وملخص ما يقول إنه يجب علينا أن نعتبر جميع الناس رفاقا لنا ومواطنين ، وأن نعتبر الحياة شيئاً واحدا مشتركا بين جميع الناس •

ولقد ازدهرت الرواقية في العصر الروماني على يد سرياني هو بوزيدونيوس الأفامي الذي اعتبر التاريخ التحقيق الفعلي

للعناية الالهية ومظهرا من مظاهر الوحدة الانسانية • فهو يقول بوحدة التاريخ الانساني ، كما تمثلها «المدينة العالمية» أو المدينة الالهية الممتدة في كل أنحاء العالم ، والتي يشترك في عضويتها كل الناس • وتحكمها العناية الالهية • أول بوزيدونيوس الفكرة الزينونية القائلة بوحدة العالم في العقل الالهي ، بقوله إن في العالم حياة صادرة عن النار الالهية ، وبمقتضى هذه النار ثمة علاقة مستمرة بين أجزاء العالم ، حتى بين ما كان أبعدها في المسافة ، لا بين العقول وحدها ، بل فيما بين الأجسام وفيما بينها ، وبين العقول أيا كانت • هناك تعاطف Sympathy كلي عالمي ، يقوم بمقتضى هذه النار الالهية • ولذلك فكل الآلهة والأديان هي مظاهر لدين أصلي واحد ، يتخذ عدة أسماء وصفات ، ولكنه لا يتغير في الأساس • وهذا الدين هو عبادة المبدأ الالهي الساري في العالم كله • وهذا الاتجاه نحو التوفيق والتقريب بين المذاهب كان من أهم مساهمات بوزيدونيوس التي مهدت الطريق الى التيارات التوفيقية التي تلت عهده •

وصلت الرواقية الى العرب والمسلمين عن طريق شراح أرسطو ، مثل الاسكندر الافروديسي ويحيى النحوي ، وأيضا من خلال كتب جالينوس Galen وغيره ممن ترجمت كتبهم الى العربية • ولكن يرجح عدد من الدارسين ان الديصانية التي كانت منتشرة في حران التي كان مؤسسها ابن ديصان الرهاوي كانت السبيل الى وصولها للعرب •

كانت مذاهب الرواقيين معروفة في بلاد الشام ، كما كانت معروفة في مصر ، وقد قدم لنا الدكتور عثمان أمين درسا مفيضا عن الرواقية(٤) والاسلام وأثر هذه المدرسة في المنطق والطبيعيات

والأخلاقيات • والمشابهة بين أقوال الرواقيين وأقوال بعض المتكلمين والمعتزلة ظاهرة بينة ، وهي أقوى ما تكون في مسائل العناية والجبر والاختيار ، وفي مسألة تحسين العقل وتقبيحه • وقد بلغ الاعتماد على العقل وإحكامه الذروة عند تصريح بعض المتكلمين بوجوب تقديم العقل على ظاهر الشرع عند التعارض •

في الواقع كان للمدرسة الرواقية أثر خطير في العالم الاسلامي كله ، وليس في بلاد الشام وحدها • ومن يدرس كتاب الفارابي « آراء أهل المدينة الفاضلة » لا بد أن يلاحظ أن كثيرا من الخصال التي يتصف بها الحكيم ، والصفات التي ينسبها الفارابي لرئيس المدينة الفاضلة وينبغي أن يتحلى بها ، هي قريبة جدا من صفات الحكيم الرواقي الحائز لجميع الفضائل • الحكيم هو شخص لا سلطان للأهواء والانفعالات على نفسه ، أي أنه مستقيم العقل ، ذو حكمة مصونة لا تنالها الشبهات • وكما أن «الحكيم» الرواقي شخص مثالي يعز تحقيقه أو وجوده على الأرض • كذلك رئيس المدينة الفاضلة عند الفارابي فهو شخص يندر وجوده ، ويرى الفارابي ، كما يرى الرواقيون أن أفضل المدن وأكمل الجماعات الانسانية تتسع حدودها وتمتد الى الأرض المعمورة كلها •

والمدرسة الأخرى التي كان للسريان شأن كبير في تطورها هي الأفلاطونية المحدثة ، ويمكن تعريف هذه الفلسفة بأنها محاولة لوضع فلسفة دينية ، وقد قامت على أصول أفلاطونية ، ولكنها امتصت عناصر مختلفة يونانية وشرقية • فهي فلسفة انتقائية ، ومن الممكن أن ننظر اليها ، من زاوية أخرى ، على أنها محاولة أخيرة قام بها المناوئون للمسيحية عندما أخذت هذه الأخيرة تسيطر على الدولة والفكر ، اذ عمد هؤلاء لاقامة نظام فكري وديني يقف

سدا منيعا ضد المسيحية • والأفلاطونية المحدثة ، وإن كان مؤسسها الرسمي أفلوطين Plotinus مصريا ، فان من زرع بذورها هو نومينيوس الأفامي Numenius of Apamea الذي اشتهر في منتصف القرن الثاني الميلادي ، وهو من بلاد الشام ، ومن بلاد الشام أيضا فورفوريوس Porphry الذي نشرها • ذكر فورفوريوس في كتابه عن حياة أفلوطين أن بعض اليونانيين كانوا يتهمون أفلوطين ، مؤسس الأفلاطونية المحدثة ، بانتحال أفكار نومينيوس ولذلك رد أماليوس جنتيليانوس Amelius Gentilianus (٢٢٠ ـ ٢٧٢م) على هذه التهمة برسالة عنوانها « في الفرق بين نظريات أفلوطين ونومينيوس »(٥) • ومشكلة العلاقة بين أفلوطين ونومينيوس هي مشكلة معقدة وقد لا يمكن حلها كليا • ولكن ما لا يمكن إنكاره أن هناك علاقة متينة بين الاثنين وتلاقياً في بعض ركائز فلسفتهما • يذكر فورفوريوس أن أفلوطين كان يستخدم كتب الأفامي وغيره من فلاسفة العصر وكان هو وتلاميذه يبحثونها أولا ، ثم يعلق الأستاذ على المشكلات التي كانت هذه الكتب تثيرها • ولا نستطيع أن ندخل هنا في تفاصيل مشكلة الأثر الذي تركته فلسفة نومينيوس في أفلوطين ، ولكن نستطيع أن نردد كلام إدوار تسلر ، مؤرخ الفلسفة الشهير ، الذي قال إن لم يكن نومينيوس مؤسس الأفلاطونية المحدثة ، فهو الذي عبد لها الطريق(٦) • ووضع نومينيوس كتابا في « مذاهب أفلاطون السرية » شرح فيه القصص عن النفس في «فيدروس» وفي «الجمهورية» • وأهم ما كتبه ووصل إلينا هو مقاطع من كتابه «في الخير» ، وفيه يبين أن الوجود هو غير العناصر وهو غير الهيولي ، فالعناصر والهيولي متغيرة ، ولذلك لا يمكن معرفة كنهها(٧) • واذا كان الأمر كذلك ، فيجب أن يكون هناك مبدأ يقوم الجسمانيات لا يكون جسمانيا ولا قابلا للتغير •

ويقول نومينيوس بمبدأين : المادة والاله ، أو « الاثنين والواحد » المادة «كاثنين» هي غير متناهية وغير مخلوقة ، كما أنها خالية من النظام ومتخصصة بحركة غير مرئية • وليست المادة «لا شيء» كما يقول الرواقيون ، بل هي حقيقة • وهي أصل الشر ، إذ كل ما يتقوم بها إنما هو شر(٨) • ولا يقبل نومينيوس القول بأن «الوحدة» تحولت الى «اثنين» ، فهذا خلف منطقي • ولذلك فهو يقول بنوع من الصدور ، أي بصدور الاثنين عن الواحد • والواحد الأول هو روحاني فوق المادة ، وهو الخير بذاته، وعلة كل ما هو حسن ، يفعل في المادة القديمة بحيث يجعلها تبدو كأنها محدثة وقابلةللتطور • يذهب نومينيوس الى أنه لا يليق إضافة صنع العالم الى الواحد ، أو الاله الأعلى • وهذا يعني أن ثمة إلها خالقا أو صانعا • ففصل نومينيوس بذلك الاله الأول عن الاله الثاني • فالأول أو الأعلى لا يعنى بما هو خارج العالم العقلي والثاني يعنى بالعالم العقلي وبعالم المظاهر معا • فهو اثنان Dyad لأن عنايته مزدوجة ، وقد نظم الصانع الكتلة المادية مطاوعة لخيريته، يتأمل النموذج تارة ، ويتحول عنه طورا لكي يحرك الفلك ، فيعبر حينئذ النفس الكلية التي تدبر الكون • ويمكن اعتبار النفس الكلية إلها ثالثا ، وإن لم تكن في الحقيقة إلا مظهرا من مظاهر الاله الثاني •

كان نومينيوس يقول بأن للانسان نفسين (نفسا عاقلة ونفسا بهيمية) كما أن له يدين اثنتين وعينين اثنتين(٩) • وكان يرفض القول بأن النفس مادية ، لأن الأجسام بطبيعتها متغيرة ، تتحلل الى أجزاء متناهية • والعلاقة بين النفسين ليست علاقة منسجمة بل علاقة صراع أزلي يشبه الصراع القائم بين الشر والخير •

والخطيئة هي سقوط النفس العاقلة من محلها الأعلى واتصالها بالمادة ، وخلاص الانسان هو في العودة الى العالم العقلي واتحاده بالواحد • ففي هذا الاتحاد يجد الانسان سعادته القصوى •

وهكذا بادخاله العناصر « الشرقية » كفكرة الصدور وفكرة الثالوث الالهي (الاله الأول ، والصانع ، والنفس الكلية المدبرة للكون) ، وفكرة روحانية النفس الخالصة إنما عبد الطريق للأفلاطونية المحدثة •

السريان والفلسفة ـ الفلسفة المتدينة :

تمثل الأفلاطونية المحدثة الحلقة الأخيرة من حلقـات العصر الهليني ، والحلقـة الأقرب زمنا وفكراً مـن العصر العربي ـ الاسلامي •

والتفلسف العربي ـ الاسلامي في الواقع ، إنما هو تعاليم الأفلاطونية المحدثة التي وصلت عن طريق المدارس السريانية ، واذا كان نومينيوس هو الذي عبد الطريق الى الأفلاطونية المحدثة فان ناشرها وشارحها الأكبر كان أيضا من السريان ، ونعني به فورفوريوس الصوري (ت ٣٠٤م) الذي تولى شرح كتاب الشيخ اليوناني أو أفلوطين «التساعات» • وقد نسب هذا الكتاب خطأ الى أرسطو وعرف بكتاب « أثولوجيا أرسطوطاليس » أو كتاب الربوبية • وقد أدى الخطأ في نسبة الكتاب الى الاعتقاد لدى أكثر فلاسفة العرب بأنه لا فرق بين فلسفة أرسطو وفلسفة أفلاطون •

كان فورفوريوس فيلسوفا ، كمـا كان شارحـاً لكتب القدامى وكتب أستاذه أفلوطين وله عدة مؤلفات ، منها رسالة في فلسفة الكهانة «وصور الآلهة» و « في الرد على النصارى » و « في عودة

النفس الى بارئها » • ولكن أشهر ما ألفه هو « المدخل الى المقولات » «الايساغوجي» • ولفورفوريوس فلسفة دينية خاصة ؛ فهو يقول بقدم العالم ، ويعتبر أن الآلهة تعلم الغيب ، فمن استطاع الاتصال بها بطريقة من الطرق يطلع على المستقبل • ويقول أيضا بأن عبادة الأصنام ليست على الزيغ الذي يصفها به خصومها ، وذلك ان عباد الأصنام لا يتخذون من الأصنام والرموز آلهة ، انما كتشبيه ينقل الاعتقاد الديني الى صور محسوسة • وقد رد في إحدى كتبه على المسيحية ، معلنا رأيه بأن المسيح إنما هو من القديسين ، ولكن أتباعه يغالون في أمره بجعلهم إياه أقنوما* من أقانيم الله •

ولفورفوريوس نظرية خاصة في العقل والمعقول • وعلى الأرجح أنه كتب مؤلفا في هذا الموضوع تطرق فيه الى نظرية تعالي الواحد، أي تنزيه الاله عن الصفات ، وخصصه لشرح طريقة الاتحاد بين العقل وموضوع التعقل • فالفكرة القائلة إن العقل أثناء تعقله يصبح هو ذاته موضوع التعقل هي فكرة قديمة ، ولكن كان هناك اختلاف حول كيفية صيرورته واحداً مع المعقول • وقد حاول فورفوريوس أن يبرهن أن هناك وحدة انتولوجية بـين العقـل والمعقول • وقد أثارت هذه الفكرة نقاشاً حاداً بين الفلاسفة العرب المسلمين ، ورفضها ابن سينا وابن رشد •

وشهرة فورفوريوس ، كشارح متأتية من سلسلة طويلة من الشروح لكتب أفلاطون وأرسطو ، وضع بها «مشائية» موفقة تجمع بين أفلاطون وأرسطو وتضم المدارس اليونانية بعضها الى بعض ، وهو بهذا قريب الى روح الفلسفة العربية ـ الاسلامية • ومؤلف فورفوريوس « المدخل الى المقولات » هو من أهم الكتب في تاريخ

---

* الأقنوم .

الفلسفة في العصور الوسطى ، فقد رسم فيه نموذج التفكير الذي سار عليه العقل البشري ما يقرب من اثنى عشر قرنا(١٠) • وكان فورفوريوس أول من وضع حجر الزاوية في الفلسفة العربية الاسلامية والفلسفة الأسكولاستيكية* ، فقد أثار مشكلة الأجناس والأنواع ، وهل هي حقائق تقوم بنفسها خارج العقل ، أو أنها مجرد تصورات في الذهن •

وكتاب « المدخل الى المقولات » أو «الايساغوجي» كان من الكتب التي نقلت الى السريانية والى العربية عدة مرات ، وكان له تأثير من ناحية المنهج لأن كثيرين من مؤلفي الاسلام في بلاد الشام وخارجها أدركوا ضرورة التمهيد للدراسات المفصلة والكتب بمداخل Introductons ، أي شروح لخلفيات الموضوع ولأسلوب البحث مما ييسر فهم هذه الدراسات • والواقع ان فورفوريوس استن هذه السنة وتابعه فيها السريان من نساطرة ويعاقبة ومن ثم حاكاهم في ذلك فريق كبير من المؤلفين المسلمين •

وأما من ناحية «الموضوع» فأثر المدخل في الدراسات الفلسفية دام مئات السنين ففيه وضع فورفوريوس دعائم نظرية الكليات الخمس : الجنس ، والنوع ، والفصل ، والخاصة ، والعرض • وهذه النظرية هي الدعامة الأولى في المنطق العربي • ونرى أثر «المدخل» في الكندي وفي الفارابي وقد اختصره الاثنان ودرساه بتمعن • وقال الكندي فيه : «الايساغوجي» وهو الكتاب الذي ينبغي ان يبدأ به طلاب الفلسفة جميعا لما فيه من وضوح وجلاء(١١) •

وقد استخدم الكندي نظرية فورفوريوس في المقولات للرد على كتاب يحيى بن عدي عن التثليث • حاول الكندي أن يبرهن أن

* الفلسفة الأسكولاستيكية •

التثليث لا يمكن أن يقع ضمن أي مقولة من مقولات الوجود • ولذلك فان مفهوم التثليث يجب أن يكون بالضرورة مركبا ، ولذلك لا يمكن أن يكون أزليا ، لأن ما هو مركب محدث وليس بأزلي • وقد ألف ابن سينا ، على طريقة فورفوريوس ، مدخلا في المنطق صدر به «الشفاء» وجعله مقدمة للمنطق في جملته وليس للمقولات فقط ، وفيه ناقش فورفوريوس مناقشة عميقة •

لم يقتصر دور السريان في تطوير الأفلاطونية المحدثة على ما حققه فورفوريوس اذ نشأت في العصر الذي يلي فورفوريوس مدرسة خاصة سريانية للأفلاطونية المحدثة ، كان على رأسها يامبليخوس Iamblichus (٢٥٠ ــ ٣٢٠م) وكان تلميذا لأحد الأساتذة المشائيين ولفورفوريوس • ويامبليخوس هو من مواليد قنسرين وله عدة مؤلفات فلسفية وشروح لكتب أرسطو وأفلاطون، ومن أشهر رسائله كتاب « الالهيات الخلقيسية الكاملة »(١٢) ورسالة « الحياة الفيثاغورية » والمدخل لكتاب نيقوماخوس الجرشي « في علم الحساب » وكتاب « الأسرار المصرية » • ويتبين من هذه القائمة، ومن نظرته الى نشأة الكون أن يامبليخوس كان يمزج بين الديانة الشعبية والفلسفة ، فهو الذي بدأ المحاولة لبناء نظرة متكاملة للالهيات تشمل كل الطقوس والخرافات والآلهة الموجودة في الوثنية•

ومذهب يامبليخوس الميتافيزيقي مأخوذ من مبدأ أفلوطين في الوساطة بين «الأول» أو الواحد والعقل والنفس من جهة ، والعالم الاستدلالي أو عالم المحسوسات من جهة أخرى • غير أنه يختلف عنه في عدد الوسائط بين المعقولات اذ أدخل وسائط جديدة علاوة على وسائط أفلوطين • كثر يامبليخوس مراتب الوجود وباعد بين الأول والعالم الاستدلالي ولكن الوسائط عنده لا تتكاثر الى

مالا نهاية له ، لأن الوجود هو كبناء مركب من عدة موجودات ، يعكس بعضها بعضا على مستويات مختلفة • ففي نظره أن أي حقيقتين مختلفتين لا يمكن اتصالهما إلا بوسائط يشبه جزؤها الأعلى الحقيقة التي فوقه ويشبه الجزء الأسفل منها الحقيقة التي دونـــه •

يسمى يامبليخوس الثالوث الكائن ، والحياة ، والعقل ، خلافا لتسمية أفلوطين الواحد ، والعقل ، والنفس ، والعقل عنده متأخر عن الحياة وعن الكائن ، ولا يصدر عنه أي شيء • ويشبه العقل بالانسان الذي هو الكائن ، يولد وينمو جسديا ثم عقليا ولكن عقله لا يصبح عقلا بالفعل الا عندما يبدأ بتنظيم أمور الجسد وتدبيرها دون أن يخلقها •

وعند يامبليخوس العقل الانساني قاصر عن إدراك ماهيات الجواهر المفارقة ، ولكن الانسان يعلم وجود الآلهة بالفطرة ، أي بالطبع ، قبل أن يحصل له التأمل والروية • وذلك أن في النفس الانسانية توجها طبيعياً لطلب الخير • ومن ثم هو يقول إنه لا يجوز مطلقا التحدث عن «معرفة» الآلهة • فكل معرفة تعني فرضا ان هناك تمييزا بين العالم والمعلوم • ولما كان لا يوجد فرق جوهري بين النفس الانسانية والالهة ، وبما ان الصلة هي مباشرة دائمة ، فلا يصح القول بـ «معرفة» الآلهة •

ويظهر من كل هذا ان يامبليخوس كان يمزج بين الديـن والفلسفة ، وأن مزجه يصاحبه نوع من عدم الانسجام ، إن لم نقل نوعا من التناقض • فهو من ناحية يبين بوضوح عدم ارتباط المعرفة الدينية بالجدل ، ولكنه يستخدم طريق الفلسفة في تعليل العقيدة الدينية والاستدلال لمعرفة الجواهر المفارقة • وفي الواقع

إن هذا التناقض مشترك بين جميع رجال الأفلاطونية المحدثة ، وهي مشكلة واجهها الفلاسفة العرب المسلمون فيما بعد ، وقدموا لها حلولا أصبحت مثالا يحتذى في العصور الوسطى في أوروبا •

وأخيرا ليامبليخوس أسلوب جديد في شرح أفلاطون ، ولقد لعب أسلوبه دورا رئيسيا في أساليب الشرح التي تلته • فقد كان فورفوريوس قبله الشارح الأكبر للأفلاطونية المحدثة • ولكنه كان يؤيد شرحه بما نقل عن الأدب والقصص ، وليس بحسب الاتجاه المنطقي الذي تؤدي اليه القواعد الفكرية الأساسية للأفلاطونية المحدثة • ولم يكن لفورفوريوس أيضا طريقة واحدة للشرح ، ومحاولة لنسج أسلوب منطقي متلاحم ومنسجم مع نفسه • ولكن يامبليخوس على عكس أستاذه ، وضع قاعدة ثابتة لشرح الجدل الأفلاطوني ، وقيد الشرح بهدف عام للجدل ، متماسك الأجزاء • ولذلك نرى أن أسلوبه في شرح أفلاطون واضح، ولا تتخلله نواقص التناقض والغموض الموجودة في فلسفته •

ومع ان أقرب المنظرين الأفلاطونيين المحدثين زمنا الى العرب برقلس Proclus (٤١٠ ـ ٤٨٥م) لم يكن من بلاد الشام ، فتأثير فورفوريوس ويامبليخوس عليه كان عظيما الى درجة أنـه أقام فلسفته على الأصول التي وضعاها •

هذه ملامح عامة عن الخط « غير المسيحي » مـن المساهمة السريانية للفلسفة سنتوقف عندها •

السريان والفلسفة ـ الدين المتفلسف :

واجهت المسيحية بعد مرور فترة وجيزة مـن ظهورها نقادا صارمين وبارعين فكراً وأسلوبا ، كمـا واجـه الاسلام مثلهم من بعد ، فاضطرت الى استخدام الوسائل الفكرية والعقلانية ، ولا

سيما المنطق الأرسطوطاليسي في شرح مبادئها الأساسية وتفسيرها وتأويلها • ظهر في الاسكندرية أشخاص مثل كليمنتس Clement of Alexandria (١٤٥ ـ ٢١٥م) واوريجينيس Origenes (١٨٥ ـ ٢٥٣م) وغيرهما ممن فلسف القضايا الأساسية كطبيعة الله ، ومعنى الايمان ، وعلاقته بالمعرفة اليقينية ، وقدم العالم وطبيعته ، ووجود الشر ، والحياة بعد الموت ، والخلاص البشري •

والحقيقة أن الحركة الفكرية والعلمية نشطت أيضا نتيجة للخلافات العديدة التي دبت بين مختلف الجماعات المسيحية ، خصوصا في بلاد الشام ، حيث تعددت هذه الجماعات ونشط كل منها لتدعيم مركزه باستخدام البراهين المنطقية والعقلانية للدفاع عن صحة نظرته ، فبلغت الحمية لديها أوجها ، فأخذت في الترجمة عن اليونانية دائبة في وضع التعليقات والشروح مع مداخلات لا تخلو أحيانا من الابداع ، وبالتالي كثرت المدارس ، التابعة منها للأديرة والتابعة لغير الأديرة ، خصوصا في المدن الكبيرة • وسنذكر هنا شيئا عن أهم هذه المدارس واتجاهاتها الفكرية ، ومن ثم سنركز على عدد قليل مختار من المفكرين والعلماء الذين كان لهم أثر في الحياة الفكرية والعلمية في بلاد الشام •

كان في بلاد الشام قبل ظهور الاسلام عدد كبير من مراكز العلم والثقافة نذكر منها قيصرية ، وغزة ، وبصرى أسكى شام ، وبيروت ، وأنطاكية ، وحران ، وقنسرين ، والرها • وبعد انتشار المسيحية ازداد عدد هذه المراكز ، خصوصا في الأديرة ، الممتدة في كل أنحاء البلاد ، كما ازداد عدد خزائن الكتب • وكل هذا إنما يدل على انبثاث الحياة العلمية في المنطقة ، وقيام تقاليد ثابتة للتعليم والبحث والتأليف والترجمة • وعندما جاء العرب وقامت

الدولة الأموية ، كانت جميع هذه المراكز ما تزال نشطة ، وظلت كذلك الى أواسط العهد العباسي •

وقد يكون من مميزات الروح العلمية التي ذكرنا طابع التوفيق والجمع والقليل من الابتكار ، لكن يجب أن نذكر أن الكثير الكثير من النتاج الفكري والعلمي لم يصل إلينا • كما يجب أن نذكر أن سيطرة الاتجاه اللاهوتي هو ما تميزت به أكثر الحركات الفكرية ، وان لم يتمكن هذا الاتجاه من محو الناحية الدنيوية ، خصوصا في الفلسفة والعلوم الطبيعية ، وفي نواح عديدة من نواحي الأدب • وفيما يلي شرح لبعض ما حققته هذه المدارس وبعض المبرزين في حقل الفلسفة والعلوم •

مدرسة قيصرية فلسطين :

اشتهرت هذه المدرسة بشخصين ، الأول هو يوسيبيوس Eusepius (٢٦٥ ـ ٣٤٠م) الذي كتب التاريخ الكنسي ، ونيميسيوس الحمصي Nemeslus (ازدهر ٤٠٠م) ، الذي أصبح اسقفا على قيصرية • وقد وصلنا منه كتاب ، على غاية الأهمية هو « في طبيعة الانسان » • ولهذا الكتاب تاريخ طويل ، لا يمكننا سرده هنا ، وكل ما يمكننا قوله إن عددا كبيرا من العلماء في العصور الوسطى انتحلوه كليا أو جزئيا • يحتوي هذا الكتاب على ثلاثة وأربعين فصلا تتعلق بطبيعة الانسان ونواحيها المختلفة ، كالنفس والجسد ، والأفعال ، وحرية الاختيار ، والعناية الالهية وعلاقتها بالانسان • يقول نيميسيوس بأن الانسان مركب من نفس وجسد ، وبأن النفس هي جوهر قائم بذاته ، متحرك ، وليست مجرد جزء من الأجزاء التي يتألف منها الانسان • فحقيقة الانسان هي نفسه ، فان هذبنا هذه النفس وحليناها بالفضائل ، بدل أن نصرف اهتمامنا بتهذيب الجسد ، نلنا السعادة القصوى والخير الأعظم •

يثير تحديد النفس كجوهر قائم بذاته عدة مشكلات أساسية ، أهمها علاقة النفس بالجسم ، فاذا كانت النفس قائمة بذاتها ، فما علاقتها بالجسم ؟ هل هي ملتصقة به التصاق الثياب بالجسد أو أن علاقتها به علاقة ارتباط عضوي • يحاول نميسيوس أن يحل هذه العقدة مبينا أن هنالك جواهر روحانية وجواهر حسية ، وأن الأولى منها لا جسم لها وأن الاثنين قد يتحدان دون أن يتغيرا أو يتحولا • فالنفس رغم اتصالها به هو اتصال الجواهر الروحانية التي لا تتبدل مطلقا •

وهذا الرأي قريب جدا مما قاله الكندي في رسالته القصيرة « في النفس • مختصر وجيز » حيث يذكر « أن النفس إنما يقال إنها متصلة بالجسم من جهة أفعالها التي تظهرها في الجسم وبالجسم، إلا انها متصلة كاتصال الأجسام والأجرام »[١٣] •

ويبحث نيميسيوس في اللذة والألم معتبراً الألم شعورا حسياً ، بينما اللذة الحقيقية تتجه نحو عالم المعقولات ، نحو العالم الآعلى ، وتقترب منه كلما تحرر الانسان من قيود المادة والشهوات • وهذا التعريف للذة يذهب بنا بعيدا عن التحديد الأبيقوري وغيره من التحديدات التي كانت تعتبر اللذة حسية • وحصول اللذة الروحية يتوقف على الانسان • فمن يختار الحق ويرفض الباطل يقترب من العالم الأعلى• وهذا يعني أن الانسان حر في اختيار أفعاله،ولكن حريته غير مطلقة • فهي حرية مسؤولة ، وعلى هذه الحرية يتوقف مصيره في العالم المشاهد وفي العالم الآخر على حد سواء • وحرية الاختيار مرتبطة أشد الارتباط بالعقل الذي هو اداة النظر والتمييز • وخلاص الانسان ونجاته في الآخرة يأتيان بواسطة العقل الذي منحنا إياه الله •

ونظرة نيميسيوس الى العناية الالهية هي نظرة مسيحية خالصة، أي أن الله يعرف الجزئيات والكليات • وهنـاك شبه بين موقف نيميسيوس وموقف بعض المعتزلة من مسألة الاختيار • فالجبائي وابنه أبو هاشم يقولان : « لا يجب على الله شيء لعباده في الدنيا ، اذا لم يكلفهم عقلا وشرعا ، فأما اذا كلفهم فعل الواجب في عقولهم واجتناب القبيح وخلق فيهم الشهوة للقبيح والنفور من الحسن وركب فيهم الاخلاق الذميمة فانه يجب عليه أن يفعل بهم أدعى الآمور الى فعل ما كلفهم به ، وازجر الاشياء لهم عن فعل القبيح الذي نهاهم عنه »[١٤] وهذا يعني أنه باستطاعة الانسان أن يدرك عقليا الحسن والقبيح ، كما باستطاعته أن يختار بينهما •

مدرسة حران :

تقع مدينة حران على مقربة من الرها[١٥] وكان أهلها من عبدة النجوم ، وتسموا بالصابئة في أيام المأمون ، وإن لم يكونوا صابئة• فقد مر المأمون في بلدهم وخيرهم ، كما يقال بين الاسلام والسيف فافتى لهم أحد الشيوخ أن يقولوا إنهـم الصابئة المذكـورون في القرآن الكريم • والصابئة من أهل الذمة،فتركهم المأمون وشأنهم•

لحران تاريخ قديم، فقد عاصرت اليونان والرومان والبيزنطيين والعرب • وفي عهد الاسكندر سكنها كثير من المقدونيين فتغـيرت أسماء الهتها الى اسماء الهة يونانية • وفي أول عهد المسيحية ، كان يسكنها أهلهـا ٫صليـون من السريان ، وكثـير من المقـدونيين والاغريق والعرب • وقد جرت محاولات عديدة لجبر أهلها عـلى التنصر لم تثمر لاسباب عديدة ، منها أنه كان لأهلها هياكل ترد عليهم الأرزاق ، وقد اطلق عليها في العصر البيزنطي اسم «هيلينو بوليس» أي مدينة الاغريقيين ، وكلمة اغريقي في ذلك العصر ،

بحسب اباء الكنيسة ، كانت تساوي كلمة « وثني » ، وكان يلجأ إليها كل من لم يشأ التنصر • والواقع أن حران ظلت على اتصال وثيق بالفكر والحضارة الاغريقية ، فتكون لأهلها دين فيه كثير من الأفلاطونية المحدثة •

كان الحرانيون ومدرستهم منبعاً كبيراً من منابع الثقافة • فكونهم عبدة نجوم جعلهم يهتمون بالعلوم الفلكية والرياضية • فنشأ عندهم عدد كبير من العلماء حملوا لواء الحضارة ، خصوصاً في العصور العباسية وما بعدها ، من أمثال ثابت بن قرة وسنان بن ثابت ، وابن الوحشية ، وجابر بن حيان ، وكلهم نجوم لامعة في الحركة العلمية في أثناء العصر العباسي • ومساهمتهم في حركة الترجمة والتأليف معروفة لا تحتاج الى تفصيل •

وأهمية حران في نظرنا ، تكمن في إدخالها اتجاهات فكرية استمد منها المعتزلة واخوان الصفا ، وفيلسوف العرب الكندي • يذكر ابن النديم عن الكندي مثلا قوله عن أهل حران الصابئة: « اجتماع القوم على أن للعالم علة لم يزل ، واحد لا يتكثر ، لا يلحقه صفة شيء من المعلولات ، كلف أهل التمييز من خلقه الاقرار بربوبيته »(١٦) فهم يقولون اذا كما تقول المعتزلة بأن الله واحد وقديم ، لا تلحقه صفة ، ولا يجوز عليه خبر موجب • ويضيف الكندي : «إنه نظر في كتاب يقر به هؤلاء القوم وهو مقالات لهرمس في التوحيد كتبها لابنه على غاية من الثقافة في التوحيد»(١٧) ونظرة الكندي للصابئة لها نكهة أفلاطونية محدثة (في نظرة أرسطو طالسية) ، وهي تتفق مع اتجاه المعتزلي ، الذي يشدد على وحدانية الله المطلقة وتنزيهه الكامل ، وعلى قدمه ، ونفي الصفات عنه ، أي كون الصفات زائدة على ذات الله • وقد يكون هذا

صحيحاً من حيث صفات الله ، فالصابئة تنفي الصفات عنه ، وهم كانوا يقولون بوحدانية الله في الجوهر ، وبحلوله من ناحية أخرى في أشخاص روحانية هم مخلوقاته ، منهم الملائكة والنفس الانسانية • وقالوا بوجود ارواح اتخذت لها الكواكب هياكل ، وهي ارباب يتخذها البشر وسطاء لدى الله رب الارباب • والتوسل الى الله بواسطة هذه الأرواح أفضل من التوسل بواسطة أنبياء من البشر • ونجد عند الحرانيين رأيا في النبوة يتردد لدى الفلاسفة العرب فيما بعد ، وهو أن النبي هو « البريء من المذمومات في النفس والاناث في الجسم ، والكامل في كل محمود ، وأنه لا يقصر عن الالمام بصواب كل مسألة ويجاب بدعوته بانزال الغيث ودفع الاناث عن النبات والحيوان ، ويكون مذهبه ما يصلح به العالم ويكثر عامره »(١٨) ومن يدرس رسائل اخوان الصفا لا بد له أن يجد تعاطفا كبيرا مع فلسفة الصابئة ونظرتهم الى الهياكل والأرواح • والمهم في كل هذا هو أن الصابئة ، على الرغم من الغموض الملازم لأصلهم وأفكارهم ، ظلوا حلقة وصل مختلفة عن حلقة السريان المسيحيين في إيصال الفكر والعلوم اليونانية الى العرب •

مدرسة انطاكية :

كانت مدينة انطاكية أهم مدينة مسيحية في بلاد الشام • فقد كان الكرسي البطريركي الوحيد موجود فيها حتى انشاء بطريركية القدس في القرن الخامس • وقد انطلقت المسيحية منها ، وانتشرت في بلاد الشام ، وفيها ظهرت الدعوة النسطورية التي كانت في الواقع حركة وطنية ضد التعسف البيزنطي •

كانت انطاكية مصدر إشعاع كبير لكثير من القضايا الفكرية ، فقد ظهرت فيها ، أول ما ظهرت المدرسة الغنوصية* • ومنها خرج

* المدرسة الغنوصية .

ثيوفيلوس ، مطران انطاكية (١٦٩ ـ ١٨٠م) الذي أثرت كتاباته في نشر المسيحية في الغرب كما لم تؤثر كتابات غيره • ومن مشاهيرها «ملكيون» الذي ينسب إليه تأسيس مدرسة يونانية أي فلسفية • وظهر فيها من الفلاسفة آفروبوس Probus الذي شرح « المدخل الى المقولات » لفورفوريوس» كما شرح كتب أرسطو المنطقية ، التي وصلنا منها «التحاليل الأولى» وباري ارمينياس» (كتاب العبارة)• وقد أصبحت هذه الشروح ، فيما بعد ، الأكثر اعتمادا لدى تلامذة المنطق في اللغة السريانية • ويظهر أن علماء الدين الانطاكيين استخدموا المنطق الأرسطاطاليسي في شرح الكتاب المقدس ، وفي بناء براهينهم الدينية •

كان في أنطاكية مدرسة على طراز ذيذاسقاليون الاسكندرية[١٩] ولا نعرف اذا كانت هذه مدرسة «ملكيون» ، ويظهر أن هذه المدرسة بقيت غامضة حتى أيام لوقيانوس (٢٣٥ ـ ٣١٢م) ، ونعرف ان لوقيانوس جعل داره مدرسة لتفسير الأسفار المقدسة ، تخرج منها رجال عظام في تاريخ الفكر والأدب الديني المسيحي ، نذكر منهم يوحنا الذهبي الفم (ت ٤٠٧م) وتيودوروس المبسوستي Theodore of Mopseustia (ت ٤٢٩م) •وتيودوروس هذا تتلمذ عليه البطريك نسطوروس ، وسيم اسقفا على مدينة مبسوستي في جوار طرسوس ، وهو أكبر من صنف في اللاهوت من رجال أنطاكية ، ولم يبق من تآليفه إلا نزر قليل ، وذلك بسبب موقف المجلس المسكوني الخامس من تعاليمه • وكان تيودوروس مفسرا شهيرا ، ولكنه استعمل أسلوبا حرفيا مبنيا على المنطق ، فوضع بذلك النهج الذي سارت عليه وتميزت به المدرسة الأنطاكية ، وكانت مبادىء

المدرسة توجب ، في كل موضوع ، بساطة في المنهج ، وكمالا في الايضاح ، وإدراكا في تعليم الايمان • وكانت تؤثر الأخذ بظاهر النصوص الكتابية ، فتبتعد كل الابتعاد عن التأويل • وطريقة الشرح التي اعتمدتها المدرسة هي أن يأخذ الشارح مقطعاً صغيراً لا يتجاوز بعض الاحيان عدة كلمات من الترجمة السريانية لكتب أرسطو مثلا ، ليفسره تفسيراً طويلا يبلغ عدة صفحات في بعض الأحيان • وكان الشارح أولا يحدد المعنى الحرفي ، بما في ذلك الأمثال والاستعارات والمجازات ، ومن ثم يتوجه نحو التفسير ، اعتمادا على قواعد النحو والمنطق ، آخذا بعين الاعتبار الوضع التاريخي • وكان الشراح الأنطاكيون يعتمدون ، كما ذكرنا ، على أرسطو أكثر من أفلاطون • ويستعملون الاستنباط في أبحاثهم• ولذلك نراهم يهتمون بترجمة كتبه المنطقية الى السريانية ويشرحونها •

وتقوم أهمية أنطاكية ، من الناحية اللاهوتية ، على تمييزها بين اللاهوت والناسوت في شخص المسيح الواحد • فالخلاف الحاد الذي نشأ حول طبيعة المسيح كان له زعماؤه في أنطاكية • كان الأنطاكيون يعتقدون بأن المسيح واحد ، ويرفضون التعليم بالاتحاد الطبيعي وبالمزج بين الطبيعتين • وكانوا يعتبرون اتحاد الطبيعتين اضافيا ، بمعنى السكنى والارتباط ، حفاظا لكمال الطبيعة البشرية التي زعم ابوليناريوس (٣١٠ ـ ٣٩٠م) أنها كانت ناقصة • فابوليناريوس يقول إن للانسان ثلاثة أقسام : الجسد والروح الحيوانية والروح العاقلة ، ولذلك فان «الكلمة» Logos عندما تجسدت ، لبست الجسد والروح الحيوانية فقط ، ولم تلبس الروح العاقلة • فهذه منها ، أي من طبيعتها الالهية • وذلك

يعنى أن طبيعة المسيح الناسوتية لـم تكن كاملة • وقد مهـد ابوليناريوس الطريق لنسطوروس الذي اعتبره المجلس المسكوني في افسس (٤٣١م) هرطوقيا ، بسبب قوله إن في المسيح طبيعتين : طبيعة وذاتا الهية (الكلمة) وطبيعة وذاتا بشرية • وإن الاثنين متحدان من حيث الفعل المنسجم • ولكن ليس من حيث وحدة الشخص • وقال نسطوروس أيضا إن مريم العذراء هي أم المسيح الانسان ، وليس المسيح الاله ، مما قد يفسر أو يفهم منه بأن المسيح خلق إنسانا ، ومن ثم حلت فيه الكلمة ، أي حلت في جسد إنساني •

والواقع أن الخلاف في المسيحية آنذاك لم يكن مجرد خلاف ثيولوجي حول تفسير الفروقات في النظرة الى طبيعة المسيح ، بل كان يعكس أمرا أعمق هو أنه ثمة عقلية أو اتجاه خاص يميز المنهج الأنطاكي عـن المنهج الاسكندراني • ففي التشديد عـلى ناسوتية المسيح توافق مع الأسلوب في الشرح الذي كان يعتمد على أرسطو ومنطقه وابتعاد عن النهج الاسكندراني الغارق في التشابه والتعابير الصوفية الأفلاطونية • وإظهار الناحية الانسانية من الوحي ومحاولة الدفاع عن قيمة الطبيعة البشرية ومعناها ، كانا يعنيان ثمة نظرة فلسفية خاصة لحرية الانسان • فالتجسد هو لتحقيق مصير الانسان وليس لمجرد خلاصه من الخطيئة • وهكذا قدمت أنطاكية طريقا لتهذيب الانسان انطلاقا من مبدأ تحقيق الحرية الشخصية عبر الذات وبذلك رفعت الانسان من «عبودية» العاطفة الى «حرية» العقل •

وهنا يجب أن نشير الى أمر قد يكون له خطورته وأثره البعيد في تاريخ الفلسفة العربية ـ الاسلامية ، وهو إمكانية وجود علاقة متينة بين موقف الشراح السريان من منطق أرسطو وتعلقهم به

وبين موقف متكلمي الاسلام وتعلقهم بمنطق أرسطو اكثر من المنطق الأفلاطوني الذي كان يعتبر جزءاً لا يتجزأ من الفلسفة الأفلاطونية وليس مجرد حالة للتفكير الصحيح • ولا بد من دراسة هذا الموضوع بتفصيل أكثر للتوصل الى نتيجة حاسمة •

مدرسة الرها ونصيبين :

كان لظهور الحركة النسطورية في أنطاكية رد فعل كبير ، اذ شرعت الدولة تضطهد نسطوروس ، فتحول هؤلاء الى الداخل ، وانتقلوا إلى الرها ، ومن ثم أخذوا يناهضون اللغة اليونانية ، ويترجمون الكتب المنطقية والعلمية الى السريانية ، لغتهم القومية• كانت أنطاكية ، على الرغم من انتشار اللغة السريانية فيها ، مدينة متهلينة ، أي كانت اليونانية فيها لغة الأدب والفكر • ولذلك فانه نشأ بجانبها مدن سريانية السمات ، خصوصا في نصيبين ، والرها ، وقنسرين ، ومنبج ، وآمد بيد أن الرها ، بعـد وقوع نصيبين في يد الفرس (٣٦٣م) وانتقال مدرسة نصيبين إليها ، أصبحت الوسط والمركز الثقافي السرياني الأول ، ضمن الامبراطورية البيزنطية ، والمدينة الرائدة للحركة النسطورية ، الى أن أغلق الامبراطور زينون مدرستها سنة ٤٨٩م[٢٠]• ويقال إن برصوما أسقف نصيبين (ت ٤٩٦م) أقنع ملك الفرس فيروز (٤٥٧ ـ ٤٨٤م) أن يسمح لأساتذتها بالانضمام الى مدرسة نصيبين • واذ استجاب ملك الفرس لذلك ، سرعان ما أصبحت نصيبين المركز الفكري السائد للنساطرة السريان • ولما كان النساطرة مهتمين جد الاهتمام بتثبيت نظرتهم لشخص المسيح ودعمها ، كان لا بد لهم من الاعتماد على الفلسفة اليونانية • فأخذوا يترجمون تيودوروس المبسوستي وكتب أرسطو من جديد • ومن يدرس أدبهم لا بد له أن يلاحظ أنه عدا رغبتهم

في تثبيت نظرتهم فكريا ودعمها كان هناك استياء شديد لكل ما هو مكتوب باليونانية ، فأصبحت الترجمة الى السريانية وكأنها حركة احتجاج قومية أو حركة إثبات وجود .

يعطينا الأستاذ فوبوس Voobus دراسة مطولة ومفصلة عن مدرسة نصيبين تتناول تاريخها ورؤساءها ونظامها وهو نظام كنسي كان يعيش وفقه التلامذة القادمون من كل أنحاء بلاد الشام في خلايا ضمن المدرسة . كان رئيس المدرسة يدعى «ربن» أي رئيسا وقد أطلق هذا اللقب على العلماء المبرزين . وكان الرئيس يدعى أيضا «المدبر» . وكان يجب أن يكون حائزا على شهادة «العالمية» أي الدكتوراه ، ويليه في الأهمية «المفسر» الذي يحل مكان الرئيس ويتولى منصبه حين الوفاة أو ينوب عن الرئيس في حالة غيابه أو استقالته .

وقد ساهمت المدرسة مساهمة كبرى في تطوير الأدب السرياني ، سواء في علوم اللغة أو في الأدب والتاريخ وخصوصا في العلوم الدينية ، وكان أشهر رؤسائها «نرساي» الذي عينه برسوما في هذا المنصب .

واذا انتقلنا الى الرها فللرها تاريخ عريق في الثقافة ، فمنها خرج ابن ديصان (برديصان)[٢١] مؤلف كتاب «قوانين البلدان» ومؤسس فرقة الديصانية التي انتشرت في العراق وفارس . وكتاب «قوانين البلدان» وصل الينا بكامله[٢٢] وهو على شكل محاورة بين ابن ديصان وتلاميذه . وفيه يبين أن الانسان خلق حرا ، وهو مسؤول عن أعماله . ولكنه يرفض القول بأن الانسان هو سيد نفسه . فالانسان يخضع لثلاث قوى : الطبيعة ، والقدر ، والارادة . هناك اله خالق الكون ، واحد ، لا يتجزأ ، وهناك

العناصر الخاضعة له ولقوانين لا تتغير ، وهي غير مسؤولة عن أعمالها . ولكن الانسان هو حر ومسؤول . وفي الكتاب نفسه ، نجد ابن ديصان يوجه قلمه ضد الفلكيين وأشياعهم الذين يخضعون الناس لحكم القضاء والقدر . مع أنه كان يقر ببعض تأثير للنجوم على جسد الانسان ، وليس على روحه ، فالانسان الذي يخطيء بسبب القدر ، يكون خطأه على اضطرار ، لأن للانسان ارادته الحرة ، وهو موجه بطبيعته نحو الخير . وفي هذا الكلام شبه كبير مع ما سيقوله الكندي فيما بعد[٢٣] .

ومساهمة الرها الكبرى هي في مدرستها حيث كان السريان يدرسون الفلسفة المشائية ، بجانب الدراسات الدينية والأدبية . وقد مرت المدرسة بثلاثة أطوار في القرون الثلاثة التي سبقت ظهور الاسلام ، في الطور الأول اشتهر فيها إيباس (هيبها) وأفروب كما اشتهر أفرايم الذي كان رئيسا لمدرسة نصيبين قبل انتقالها الى الرها ، وفي هذا الدور نعرف بين الترجمات التي تمت في الرها ، كتاب « شهداء فلسطين » للأسقف يوسيبيوس ، وكذلك كتابه « التاريخ الكنسي » وترجمة إيباس لأعمال تيودوروس المبسوستي وديودوروس الطرسوسي وهما من الأركان التي قامت عليها الحركة النسطورية وفي الدور الثاني ظهرت حركة أصحاب الطبيعة الواحدة (اليعاقبة) واشتد الخلاف بين الطوائف الأرثوذكسية والنسطورية واليعقوبية ، فأغلق زينون الملك البيزنطي المدرسة ، فلجأ الأساتذة النساطرة أمثال برصوما ، وأقاق ، ونرساي ، الى نصيبين التي تحولت بوجودهم الى المركز الفكري الرئيسي للنساطرة . وبقيت نصيبين مركز الثقل في الحركة النسطورية . ونشطت النسطورية في نشر عقيدتها خارج الامبراطورية البيزنطية ، خصوصا بين عرب الحيرة ، وبين الغساسنة ، وحافظت على نهجها القائم على

استخدام المنطق ، لخدمة الجدل الديني ، وكان أساتذتها يعتبرون القسيس طبيب الروح والطبيب مرقع الجسد ، ولذلك ظل الطب مقصوراً على غير رجال الدين • وبالنتيجة تقوم أهمية هذه المدرسة على اهتمامها بالحركة العلمية ، من ترجمة ووضع كتب فلسفية ومنطقية وغيرها من العلوم الانسانية •

ومن أشهر رؤساء المدرسة وتلامذتها مارآبا (٤٩٠ ـ ٥٥٢م) الذي كان يجيد عدة لغات ، وترجم كتب نسطوروس ، وفتح مدرسة سلوقية على الفرات التي أخذت تضاهي وتضارب مدرسة نصيبين ، وباباي (ت ٥٠٣م) الذي اضطهده كسرى الثاني ، وكان من أشهر المفسرين والمؤرخين ، ويشوع ياب الثالث (ت ٦٥٩م) الذي وضع كتابا في التقاسيم والتحارير الفلسفية ، عدا كتبه في القوانين الدينية ، وله أيضا كتاب في كيفية لفظ الكلمات الصعبة في كتابات الآباء الأول •

ولكن أهم من اشتهر في هذا الدور هو سرجيوس الراسعيني (ت ٥٣٦م) ، أحد كبار العلماء ورأس الأطباء في بلدة رأس العين • كان سرجيوس من أعظم المترجمين عن اليونانية الى السريانية ، فقد ذهب الى الاسكندرية حيث تمكن من اللغة اليونانية ودرس الكيمياء والطب في مدرستها وأصبح طبيبا في بلدته رأس العين • وسرجيوس أول من بدأ حركة الترجمة للكتب العلمية البحتة ، خصوصا الطبية ، وبقيت ترجماته هي المعتمدة مدة قرنين أو ما يزيد • ويقال إن حنين بن إسحق وثابت بن قرة صححاها في العصر الاسلامي[٢٤] • وبين مترجماته عن اليونانية ، نجد في إحدى المخطوطات الموجودة في المتحف البريطاني[٢٥] ترجمة « المدخل الى المقولات » لفورفوريوس ومقولات أرسطو •

ترجم سرجيوس كتب الطب لجالينوس Galen ، ومنها « رسالة في البسائط كما ترجم كتاب « كون العالم » ، ويعتبر فكتور ريسل Ryssel الذي خصص دراسة كاملة لها ، ان هذه الترجمة تحفة تفوق ترجمة ابولونيوس Apolonios في منتصف القرن الثاني[٢٦] فاذا صح ذلك يكون ما قاله ابن أبي أصيبعة من أن حنيناً وثابتاً صححا أعماله هو موضع شك • وترجم أيضا الكتاب المنسوب الى ديونيسيوس الأريوفاغي في الأسماء الالهية والرتب الملائكية والكهنوت • ومن مؤلفاته كتاب وضعه عن منطق أرسطو في سبعة فصول كلها متعلقة بالأرغانون ، وله كتابات فلسفية أخرى مثل كتابه عن الجنس والنوع والفرد ، وكتاب في « السلب والايجاب »• وكتب مصنفا في غاية تآليف أرسطو توجد نسخة منه في المكتبة الوطنية في باريس •

مدرسة دير قنسرين :

قامت هذه المدرسة متأخرة ، حوالي ٥٣٨م ، وهي لليعاقبة السريان • وأصبحت في القرن السابع الميلادي مركز الحركة الفكرية لليعاقبة • وفيها نشأ عدة رجال عظام اهتموا بالفلسفة والطب وغيرهما من العلوم • ومن أشهر علمائها سويروس سابوخت Severus Sebokht (ت ٦٦٧م) مطران البلدة ورئيس الدير الذي انصرف الى تدريس الفلسفة والرياضيات وعلم اللاهوت ، وألف رسالة عن القياس في « التحاليل الأولى » لأرسطو وشرح كتاب «العبارة» (باري ارمينياس) • وله رسالة تبحث في الاصطلاحات المستعملة في كتاب «العبارة» • وكتب سويروس في الفلك ، وفي الاسطرلاب ، والكسوف والخسوف ، ومنطقة البروج ، والحسابات السنوية • وله كتاب في « الارض المأهولة وغير

المأهولة » وفي « قياس السماء والأرض والفضاء الذي في الوسط » وفي « حركـات الشمس والقمر » ويقـول الأب نو ناشر كتـاب « الاسطرلاب » إنـه وجد في المكتبـة الوطنيـة في باريس كتابا لسويروس (رقم ٣٤٦ مخطوطات سريانية) فيـه ذكر الأعداد العشرية الجارية عند الهنود ، وفيه يطري سويروس هذه الطريقة الهندية لحساب الأعداد ، ويبين ان أهل الهنـد يفضلون فيها عـلى اليونان • واستنتج الأب نو من ذلك أن العرب لم ينقلوا الأرقام الهندية مباشرة من بلادها الأصلية أثناء العصر العباسي ، وانما أخذوها عن السريان[٢٧] ولا يبعد أن يكون هذا الاستنتاج صحيحا، لان السريان عرفوا هذه الأرقام، وكانوا قد وصلوا الى الهند ونقلوا منها وعنها الكثير من العلوم •

ومن مشاهير هذه المدرسة أيضاً اثناسيوس البلدي (ت٦٨٦م) تلميذ سويروس وبطريرك اليعاقبة • قبل تسميته بطريركا انعزل اثناسيوس في دير بيت ملكا (عـلى الارجح قرب انطـاكية وليس من طـور عابـدين) وترجـم « المـدخل الى المقـولات » لفورفوريوس وقدم له مقدمة اقتبس أكثرها عن مقدمة أمونيوس كما أنه ترجم أيضا مدخلا للمقولات ألفه عالم يوناني مجهول[٢٨] واهتم اثناسيوس بآراء غريغوريوس النازينزي (٣٢٩ ــ ٣٨٩) وكتب رسائل عن موعظتين له الى سرجيوس رئيس دير سنجار •

عاصر اثناسيوس الخلفاء الراشدين وبعض الأمويين ، ولـه رسالة عامة عن كيفية تصرف المسيحيين بين المسلمين ، يطلب فيها من المسيحيين عدم أكل لحوم الضحايا •

وقد يكـون أشهر الـذين تخرجوا من هذه المدرسة يعقـوب الرهاوي (ت٧٠٨م) الذي توفي على الأرجح في خلافة الوليد الأول•

درس يعقوب في صباه على يد الأب قرياقوش مبادىء العلوم وأسفار المهدين ، ثم ذهب الى دير قنسرين وترهب ، ودرس على سويروس سابوخت آداب اللغة اليونانية ، ومن ثـم ذهب الى الاسكنـدرية فدرس الفلسفة وعاد الى بلاد الشام ، وتنسك في الرها ، ودرس اللغة العبرانية • وفي سنة ٦٨٨ م عين أسقفا على الرها ، ولكنه اخفق في محاولته إصلاح ابرشيته وإعادة النظام إليها فترك منصبه وتوجه الى دير كيسون بـين حلـب والرها ، ثـم انتقـل الى دير اوسيبونا قرب انطاكية ليعلم اليونانيـة • وبعد اعتزاله التعليم انكب على تصحيح ترجمة « العهد القديم » الى اللغة السريانية •

وليعقوب الرهاوي كتب تبلغ نحو الثلاثين[٢٩] أكثرها دينيـة منها «الانكريديون» أي المختصر ، وهو كتاب يبحث في المصطلحات الفلسفية ، وفيـه يفسر بنـوع خاص ما استعمله اللاهوتيـون المسيحيون منها كمصطلحات الجوهر والذات والأقنوم والشخص ، وكتب يعقوب في نهاية حياته مقالة في « الخلقة والخلائق »، بستة أجزاء ، وجاء هذا الكتاب مكملا لمصنف آخر قبله « في العلة الأولى الخالقة الأزلية القادرة على كل شيء » •

والعالم الأخير الذي سنذكره من هذه المدرسة هو جرجس أسقف العرب (ت٧٢٤م) • بعد موت اثناسيوس البلدي ، أقيم جرجس اسقفا على القبائل العربية من بني طي وعقيل وتنوخ ، ولذلك عرف بأسقف العرب • أكمل جرجس كتاب « الخلقة والخلائق » الذي بدأه يعقوب الرهاوي ونقل كتاب « الارغـانون » لأرسطو طاليس وعلق على كل جزء منه ، وألحقه بشرح كتاب « المقولات » الذي حققه •

إن ما بحثناه حتى الآن هو المساهمة السريانية قبل الاسلام وفي فجر الاسلام ، وهي مساهمة غير مباشرة ، ولكنها تدل بصراحة على

أن العرب والمسلمين عرفوا الفلسفة اليونانية قبل عصر المأمون • فمراكز البحث الفلسفي كانت منتشرة عندها في بلاد الشام والعراق والاسكندرية ولم تتوقف عن نشاطها عند دخول العرب بل ظلت تكمل مسيرتها مع مزيد من الزخم في بعض الأحيان • وقد بدأ تأثير هذه المراكز في الفكر العربي الاسلامي بواسطة المناقشات التي لا بد أن تكون قد جرت بين المتكلمين ورجال الكنائس المسيحية • ونحن نعرف أن الجدل الديني بين المسيحية والاسلام اشتد في زمن يوحنا الدمشقي حول وحدة الله وطبيعة الكلمة ، وقد وضع يوحنا أصولا للجدل مع العقيدة الاسلامية بين فيه للمسيحيين الطريق الذي يمكن اتخاذه لمناقشة العقائد الاسلامية •

لقد ركزنا الاهتمام حتى الآن على الناحية الفلسفية • ونود أن نختم بحثنا بنظرة جد سريعة على النتاج الأدبي والعلمي الذي كان له أثر في الحياة الفكرية ، فقد أسهم السريان في نواح غير فلسفية أو شبه فلسفية ، كترجمتهم لحكم فيثاغوروس في الفضيلة، وحكم مناندرس ، ونقل « أمثال إيزوب » • وأكثر ما نجد من هذا هذا النوع من الحكم المنسوبة الى سقراط فلوطرخس ودنيسيوس، عدا فيثاغوروس • وقد اشتهرت هذه الحكم بين العرب ، لأن مصادرها ، على الأرجح ، شرقية • فالشرق هو موطن الحكم والأمثال ، ونجد الكثير من هذه الحكم في كتب تراجم الفلاسفة والأطباء ، مثل : « أخبار العلماء بأخبار الحكماء » للقفطي و « عيون الأنباء في طبقات الأطباء » لابن أبي أصيبعة •

واما من حيث العلوم البحتة ، فقد كان للسريان اهتمام كبير في الطب يشهد على ذلك مدرسة جنديسابور ، وأشهر أطبائهم ازدهروا في العصر العباسي ، إلا إذا استثنينا سرجيوس الرأسعيني

الذي مر ذكره • وما يجب أن نذكره في صدد الحركة العلمية هو أنها لم تكن وليدة الساعة ، إنما كانت قد بدأت كالفلسفة منذ العهد السلوقي ، واستخدمت اللغتين اليونانية والسريانية ، ولبست ، كالفلسفة أيضا ، ثوبا سريانيا ، مما سهل دخولها للحضارة العربية فيما بعد •

وفي الختام نقول إن أكبر حافز لازدهار الحضارة العربية نتج عن التفاعل الحضاري بعد الفتح العربي لبلدان مختلفة ، واتصال العرب بشعوب وأفكار عديدة ومتنوعة ، مما لا بد أن يساعد على التحرر الفكري ، والانفتاح على العالم ، والاطلاع على الفنون والعلوم في البلدان التي فتحوها • وكانت الترجمة عن السريانية خصوصا المعين الرئيسي الذي أمدهم بالمعارف عن الحضارات التي سبقتهم ، فأفادتهم في تتبع نظم هذه الحضارات ونظمها واسعفتهم في توجههم للاسهام في حركة الحضارة العالمية عبر بعض كبار جبابرتهم في الفلسفة وفي العلوم • ولم يكن نصيب بلاد الشام في كل هذه المساهمة قليلا •

الهوامش

١ ـ ارنولد توينبي ، دراسة التاريخ ، مختصر بقلم : د. سمرفل . الجزء الأول ، لندن اكسفورد ١٩٥٧ .

٢ ـ هناك من يقول ان زينون هو من بلاد الشام ، والمعروف أنه ولد في قبرص وقد يكون فنيقي الأصل عن أب صيداوي .

٣ ـ يوسف كرم ، تاريخ الفلسفة اليونانية ،ط٣.القاهرة ١٩٥٣ ، ص٢٢٤.

٤ ـ عثمان أمين ، الفلسفة الرواقية ،ط ٢.القاهرة ١٩٥٩، ص٢٩٤ـ٣٤٠.

٥ ـ فورفوريوس ، « حياة أفلوطين » في كتاب (التساعات » لأفلوطين ، ترجمة ستيفن مكنا الى الانكليزية . لندن : فابر وفابر ، ١٩٦٩ . ص ١١ .

٦ ـ ادوار تسلر ، ملخص تاريخ الفلسفة اليونانية ، نقحه وليم نستلهوترجمه الى الانكليزية ل . بالمر ،ط١٣.لندن ، ١٩٣١ ، ص ، ٢٨٨ .

٧ ـ يقول أرسطو في «الفيزياء» : ١٨٩ أ ، ١٣ لا يمكن معرفة اللامتناهي .

٨ ـ ولقد ورد عن نومينيوس أن المادة ليست أصل الشر بل الروح البهيمية التي تحل بها .

٩ ـ كان نومينوس يقول بوجود نفسين كليتين في العالم : نفس صالحة وأخرى شريرة ، وقال ان النفس الشريرة هي المادة بمعنى أن في المادة قوة روحية تقاوم قوة الخير في العالم ، وكذلك في الانسان نفسان واحدة صالحة وأخرى شريرة .

١٠ـ ابراهيم مدكور «أورغانون أرسطو » (افرنسي) باريس ، ١٩٣٤ ، ص ٧١.

١١ـ راجع أوغسطين بيريه ، يحيى بن عدي ، فيلسوف مسيحي من القرن العاشر فرنسي باريس ، ١٩٣٠ . ص ٩٦ .

١٢ـ نسبة الى Chalcis أي قنسرين .

١٣ـ راجع «رسائل الكندي الفلسفية» تحقيق محمد عبد الهادي أبو ريدة . القاهرة ، ١٩٥٠ . ص ، ٢٨١ . عرف العرب كتاب نيميسيوس وان لم يعرفوا اسمه وقد نسب خطأ في العربية كما في اللاتينية الى غريغوريوس النوسي ، وقد ترجم قسما منه الى العربية اسحاق بن حنين (ت : ٨٧٣م) المعاصر للكندي .

١٤ـ محمد بن عبد الكريم الشهرستاني «الملل والنحل» الجزء الاول ، القاهرة، ١٩٤٨ ، ص ، ١١٠ .

١٥ـ حران حاليا في تركيا وتعرف باسم اورفا .

١٦ـ ابن النديم ، الفهرست ، القاهرة ، لا تاريخ ، ص ، ٤٤٢ .

١٧ـ المصدر نفسه ، ص، ٤٤٤ ـ ٤٤٥ .

١٨ـ ابن طاهر المقدسي «البدء والتاريخ»ج٤ باريس، ١٩٠٣ ص ، ٣٢ ـ ٢٤.

١٩ـ أسد رستم ، الروم وصلاتهم بالعرب ، الجزء الاول ، بيروت ١٩٥٥ ، ص ، ١٥٠ .

٢٠ـ هذا التاريخ لا يقبله كل المؤرخين . راجع آرثر فوبوس ، تاريخ مدرسة نصيبين ، لوفان ، الجامعة الكاثوليكية ، ١٩٦٥ ، ص ، ٣٤ .

٢١ـ ابن النديم ، الفهرست ، ص ، ٤٧٤ .

٢٢ـ راجع كتاب ف.نو ، برديصان المنجم ، كتاب قوانين البلدان ، باريس ١٨٩٩ .

٢٣ـ راجع جورج عطيه ، الكندي فيلسوف العرب (بالانكليزية) ص ، ٢٢٨ .

٢٤ـ ابن أبي أصيبعه ، عيون الأنباء في طبقات الاطباء ، ج،١ ، ص ، ٢٠٤ .

٢٥ـ المتحف البريطاني ، المزيدات رقم ١٤٦٥٨ .

٢٦ـ ف. ريسل ، حول قيمة الترجمات السريانية للكتب الكلاسيكيةاليونانية، جزءان ، ليبزغ ١٨٨٠ ـ ١٨٨١ .

٢٧ـ «الارقام الهندية» في الشرق ، مجلد ١٤ (١٩١١م) ص ، ٢٣٩ .

٢٨ـ راجع دوفان ، الأدب السرياني (بالافرنسية) ص ، ٢٥٣ .

٢٩ـ أغناطيوس افرام الاول برصوم ـ اللؤلؤ المنثور في تاريخ العلوم والآداب السريانية ، ط ٣ . بغداد ، مطبعة الشعب ، ١٩٧٦ . ص ، ٢٩٧ .

ببليوغرافية مختارة

١ – ابن أبي أصيبعه ، أحمد بن القاسم ٠ عيون الأنباء في طبقات الأطباء شرح وتحقيق نزار رضا ٠ بيروت : دار مكتبة الحياة ، ١٩٦٥ ٠

٢ – ابن النديم ،الفهرست ٠ القاهرة : المطبعة الرحمانية ، ١٣٤٨ هـ ٠

٣ – أبونا ، الأب البير ، أدب اللغة الآرامية ٠ بيروت : مطبعة ستاركو ،١٩٧٠٠

٤ – أغناطيوس أفرام الأول برصوم ٠ اللؤلؤ المنثور في تاريخ العلوم والآداب السريانية ج ٣ ٠ بغداد : مطبعة الشعب ، ١٩٧٦ ٠

٥ – الشهرستاني ، محمد بن عبد الكريم ٠ الملل والنحل ، صححه وعلق عليه أحمد فهمي محمد، ٣ أجزاء٠ القاهرة : مكتبة الحسين التجارية ١٩٤٨٠

٦ – القفطي ، علي بن يوسف ٠ كتاب أخبار العلماء بأخبار الحكماء ، عني بتصحيحه محمد بن الخانجي ٠ مصر : مطبعة السعادة ،١٩٠٩ ٠

٧ – كامل ، مراد ومحمد البكري وزكية محمد رشدي ٠ تاريخ الأدب السرياني من نشأته حتى العصر الحاضر ٠ القاهرة : دار الثقافة ، ١٩٧٤ ٠

٨ – كرم ، يوسف ، تاريخ الفلسفة اليونانية ، ط ، ٣ ٠ القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٥٣ ٠

٩ – الكندي ، أبو يوسف يعقوب ٠ رسائل الكندي الفلسفية ، حققها وأخرجها محمد عبد الهادي ابو ريدة ، جزءان ٠ القاهرة : دار الفكر العربي ، ١٩٥٠ – ١٩٥٨ ٠

١٠– المقدسي ، أبو طاهر ٠ البدء والتاريخ ، ٦ أجزاء في ثلاثة مجلدات ، طبعة معادة عن طبعة أرنست ارو ٠ طهران ، ١٩٦٢ ٠

SELECTED BIBLIOGRAPHY

1. "Antioche" in **Dictionnaire de théologie catholique**, Vol. 14 (1941), col. 1988-2000. Paris : Letouzey et An, 1903-1950.

2. Atiyeh, Gorge, **al - Kindi, the Philosopher of the Arabs**, Rawalpindi : The Islamic Research Institute, 1966.

3. Averroes (Ibn Rushd), **Middle 'Commentary on Porphyry's Isagoge**, translatetd from the Hebrew and Latin versions, and on Aristotle's **Categories**, translated from the original Arabec and the Hebrew and Latin versions. With notes and introduction by Herbert A Davidson, Cambridge, Mass. : Medieval Academy of America, 1969.

4. Bar - Daisan, **The Book of the Laws of Countries; dialogue** on fate of Bardaisan of Edessa. By H. J. W. Drijvers, Assen : Van Goreum, 1965.

5. Baumstark, Anton, **Geschichte der Syrischen Literatur mit Ausschluss der christlich-Palàctinensischen Texte**, Bonn : A. Marcus und E. Webers Verlag, 1922.

6. Chabot, J. B., "L'" École de Nisibe, son histoire, ses statuts," Journal Asiatatique, ser. 9, vol. 8 (1896).

7. Chabot, J. B., **Littérature Syriaque**, Paris :Bloud & Gay, 1934.

8. Devreesse, Robert, **Essai sur Théodore de Mopsueste**, Cittá del Vaticano : Biblioteca Apostolica Vaticana (Studi e Testi CXLI), 1948.

9. Duval, Rubens, "Histoire Politique religieuse et littéraire d' Edesse jusqu' à la première croisade", **Journal Asiatique**, ser. 8, vol. 18 (1891).

10. Georr, Khalil, **Les catégories d' Aristote dans leurs versions Syro - Arabes**, Beirut : Imprimerie Catholique, 1948.

11. Madkur, Ibrahim, **L'Organon d'Aristote dans le Mond Arabe, ses traductions, son étude et ses applications.** Paris : J. Vrin, 1934.

12. Nau, Francois N., **Les Arabes chrétiens de Mesopotamie et de Syrie du VII all VIII siecle.** Paris : Imprimerie National, 1933.

13. Perier, Augustine, **Yaha Ben Adi, un Philosophe Arabe chrétien du Xe siècle.** Paris : Paul Geuthner, 1920.

14. Plotinus, **The Enneade,** translated by Stephen Mackenna London : Faber and Faber, 1969.

15. Porphyrius, **Isagoge/Prophyry the Phoenician;** translation, introduction, and notes by Edward W. Warren. Toronto : Pontifical Institute of Medieval Studies, 1975.

16. Ryssel, Victor, **Uber den textkritischen werth der syrischen Ubersetzungen griechisher Klassiker.** 2 vols. Leipzig : S. Ferman, 1880-1881.

17. Voobus, A. **"The Statutes of the School of Nisibis : The Syriac Text edited, translated and furnished with a literary, historical commentary" in Papers of the Estonian Theological Society in Exile.** Stockholm.

18. Wright, William, **A Short History of Syriac Literature.** London A. & C. Black, 1894.

مــاوية وضجعم
أو
العرب والرومان في أواخر القرن الرابع

توفيق فهد

ان علاقات العرب المنتشرين بين صحراء سيناء وجبال لبنان، بالامبراطورية الرومانية علاقات قديمة ترجع النصوص التي تتحدث عنها الى منتصف القرن الأول قبل المسيح(١) • فمنذ ذلك الحين ، تذكر النصوص التاريخية والنقوش التي وجدت على أرض الأردن وفلسطين وسوريا ، أسماء عربية قد نعتت بصفة (فيلارخوس) الدالة على سلطة تمتع بها رؤساء بعض القبائل من لدن القياصرة الرومان والبيزنطيين من بعدهم على قطر من الاقطار المجاورة للحدود بين الامبراطوريتين الرومانية والفارسية • وأقدم اسم حفظه لنا التاريخ الروماني هو اسم الحارث Arethas ، في نص يعلمنا أن هذا الأعرابي Scenitas قد راسل (كلوديوس) القيصر الروماني في منتصف القرن الأول للميلاد(٢) •

ان أكثر الصفات الدالة على سلطة هؤلاء الأعراب الموالين للرومان هي صفة φυλαρχος ، أي سيد قبيلة و φνλη ,επαρχος ، أي والي مقاطعة أو ابرشية ، و στεατηγος ، أي قائد جيش هى صفات ملحقة عموما بكلمة νοπαδων (بدو) • والبعض القليل من هؤلاء

الرؤساء حظي بنعت أكثر قيمة واجلالا ، مثل παρεπζολος ، رئيس معسكر ، أو Πατριχυιος ، سليل الأشراف ۰

يذكر ديون كاسيوس Dion Cassius (٣) في حديثه عن الحرب التي شنها ترايانوس Trajanus ، القيصر الروماني ، سنة مائة وخمس عشرة ، على بلاد ما بين النهرين ، عربياً اسمه Μαννος ، أي معن ، الذي ينعته بـ ο της Αραβιας φνχεκος ، «فيلارخوس (البلاد) العربية » أو بالأصح « الاقليم العربي » Provincia arabia من الامبراطورية الرومانية ۰

ثم ان هذه العلاقات تكاثرت مع رؤساء القبائل العربية التي كانت تتنقل على حدود الامبراطورية الرومانية الشرقية ، حتى تجسمت أخيرا بخلق مملكة قوية في تدمر ، أصبحت الحصن المنيع بوجه الفرس وحلفائهم العرب من اللخميين بالأخص ۰

غير أنه بعد سقوط تدمر سنة ٢٧٢ ، لم يبق للرومان مملكة عربية تساندهم وتدافع عن حدودهم كمملكة اللخميين بالنسبة للفرس ۰ وقد دام ذلك حتى عهد الامبراطور البيزنطي اناستازيوس (٤٩١ ـ ٥١٨) الذي جعل من الغساسنة حفظة للحدود بعد انتصارهم على الضجاعمة ۰ غير أن أولئك لم يكونوا مملكة قوية قبل عهد يوستينيانوس ، حوالي سنة ٣٥٠ ۰

ففي الفترة التي تتراوح بين هذين التاريخين يذكر المؤرخون اللاتين واليونان شخصين حظيا بشهرة كبيرة : الأول هو ماوية ، أرملة « ملك » من الأعراب ، تعاهد مع الرومان في أيام

الامبراطور فالنس Valens ، الذي ملك من سنة ٣٦٤ الى ٣٧٨ ۰ والثاني ، ضجعم ، الذي تعاهد مع الرومان وشغل منصب (فيلوخوس) من قبلهم ۰

فهل من علاقة بين هذين الشخصين ؟

هذا ما أود ايضاحه في هذا البحث الوجيز ۰ وسأبدأ بالتعريف بهما ، ثم أحاول الربط بينهما ، اذا أمكن الأمر ۰

* * *

١ ـ ماذا نعرف عن ماوية « ملكة العرب » ، كما ينعتها المؤرخون اللاتين واليونان ΒασιλιOOα ؟

أول ما يلفت النظر هو ندرة هذا الاسم وتداوله بين الرجال والنساء ۰ ففي الجمهرة لابن دريد ، مثلا ، نجده مستعملا للدلالة على قوم من السكون من كندة ، بني ماوية ، سموا هكذا باسم أم جدهم معاوية بن ثعلبة ، وعلى قوم من بهراء اتخذوا اسم أمهم ، ماوية بنت جشم بن كعب ، كما استعمل هذا الاسم لتسمية أشخاص نعرف منهم ماوية بن عمرو بن الأزد ، وماوية بن عمرو بن مالك ، وأخيرا ماوية بنت كعب بن عصيمه بن اللبؤ ، التي زوجها والدها الى جشم بن معاوية(٤) ۰ علاوة على ذلك نجد عند حمزه الأصفهاني(٥) ان أم المنذر بن امرىء القيس ، الملقبة بـ « ماء السماء » لجمالها ، كانت تدعى ماوية بنت عوف بن جشم ۰۰۰ ، في حين ان غيره من المؤرخين يدعوها مارية ۰ ونجد عند المؤرخ بروكوبيوس ان ابن قيس (بن سلمه) ، ملك كنده وحفيد الحارث الذي قتله المنذر ، كان يدعى ماوية(٦) ۰

هذا مجمل ما وجدناه عن هذا الاسم . وأول ما يقال فيه هو انه نادر الاستعمال ، غامض المعنى . لقد قابلته المستشرقة الروسية Pigulewskaja [٧] باسم معاوية وفسرته انطلاقا من (عاوى) ، أي صايح الكلاب أو الذئاب[٨] . والصعوبة في قبول هذا الاشتقاق تكمن في أن هذا الاسم ليس أجنبياً بل عربياً قديما ، كما تشهد بذلك الجمهرة ، ولذلك لا يمكننا أن نتعلل بتحريفه عند المؤرخين اللاتين واليونان ، ثم انه استعمل للرجال والنساء على السواء ، بينما لا نجد اسم معاوية مستعملا للنساء[٩] . وربما قيل انه تحريف لمارية ، كما يبدو من اسم أم المنذر ، ومن معطيات ابن الكلبي وحمزة الأصفهاني[١٠] ، وذلك لا ينفي الصعوبة ، لأن مارية اسم لا يستعمل للرجال .

بعد هذا كله ، لا أرى مجالا للشك في أصالة هذا الاسم العربية ، لأنه كما نجد في لسان العرب ، « من أسماء النساء » ، ومعناه « المرآة ، كأنها نسبت الى الماء لصفائها ... والميم اصلية فيها » .

ويزيد اللسان ان « الماوية حجر البلور »[١١] ، فكما سمى العرب باسم جوهرة ولؤلؤة ومرجانة وغيرها من اسماء الحجارة الكريمة ، فقد سموا باسم ماوية .

ومما يعجب منه هو جهل المؤرخين العرب القدماء جهلا تاما بهذه المرأة التي فرضت على القيصر الروماني ارادتها وتغلبت على جيوشه وساهمت في رد جيوش الغوطيين عن القسطنطينية . فأول من تحدث عنها هو مؤرخ كنسي اسمه روفينوس Rufinus ،

ولد في نواحي اكويلا Aquilea في ايطاليا ، وعاصر هيرونيموس ، أحد آباء الكنيسة الرومانية المشهورين ، وقضى مثله عدة سنوات في فلسطين ، حيث ذهب لزيارة الاراضي المقدسة ، بعد أن زار الأديار في البراري وقضى ست سنوات في مصر . ونزل في جبل الزيتون عند الأرملة ميلانو Melania ، ثم التحق بها في صقلية حيث نجده في أيلول سنة ٤١٠[١٢] .

في سنة ٤٠٢ ، بدأ روفينوس بترجمة تاريخ الكنيسة لمؤلفه اوسابيوس Eusebius ، أسقف قيصرية فلسطين ، وهو كتاب يحتوي على تسعة أبواب ، زاد عليها بابين ، مكملا اوسابيوس حتى وفاة الامبراطور تاودوسيوس سنة ٣٩٥ .

وفي هذه التكملة يحدثنا روفينوس عن « ماوية ، ملكة (العرب) الشرقيين » Mauvia Saracenorum gentis Rigina وعن الحرب التي شنتها بين فلسطين وتخوم الجزيرة العربية Vehementi bello Palastini et Arabici Limitis (var Limites) ، حربا عنيفة دمرت في خلالها المدن ، صغيرة كانت أم كبيرة ، وجعلت من المزارع والاقاليم المجاورة صحارى قاحلة ، وتغلبت على الجيوش الرومانية التي عجزت عن الوقوف بوجهها ، ولم تقبل بعقد الصلح الا بعد أن فرضت ارادتها على القيصر الروماني بسيامة راهب من قبيلتها ، اسمه موسى ، اسقفا . فقبل فالنس بشروطها وطلب من لوسيوس Lucius ، بطريرك الاسكندرية ، أن يسيمه ، فلم يقبل موسى بذلك ، لأن لوسيوس هذا كان على مذهب آريوس ، المذهب الذي كان يسانده فالنس . فأجبر هذا الأخير على ارجاع أسقف

كاثوليكي كان قد نفاه ، ليسيم موسى أسقفا ، فجرى تسقيفه سنة ٣٧٧ ·

هذا ما أفادنا به روفينوس ونقله عنه حرفيا المؤرخ الكنسي سقراط(١٣) وغيره · اما سوزومينوس Sozomenos ، المؤرخ اليوناني(١٤) ، فهو يزودنا بمعلومات جديدة تدل على أن ماوية لعبت دورا كبيرا في أحداث عصرها · اذ نراها بعد ان تغلبت على الروم وفرضت عليهم ارادتها بتسقيف موسى(١٥) ، تعينهم على صد النوط عن القسطنطينية(١٦) ·

ويخبرنا سوزومينوس انه بعد وفاة زوجها ، الذي اغفلت اسمه سائر المصادر ، نقضت ماوية العهد بين قبيلتها والروم ، وبدأت تغزو المدن والقرى والمزارع بين فلسطين ومصر · يقول النص حرفياً :

δηονΖας πολειςΦοινικων χαι παλαιστινιων Μεχει
χαι Αιγυπτιων... το' αραβων χαλονηενου χλιηα οιχουν

« كانت تغزو مدن النخيل ومدن فلسطين حتى بلغت مدن مصر في الاقليم الذي يدعوه السكان الاقليم العربي » ·

وقد ترجم الكثيرون πολει ...τας Φοινιχων بـ « مدن فينيقيا » ، في حين أن النص يبعدنا عن فينيقيا ، لأن محور عمليات ماوية هو جنوب فلسطين ، على تخوم شبه الجزيرة العربية ومصر · فما هي تلك المدن المسماة بـ « مدن النخيل » ؟ هناك أسماء ثلاثة تؤخذ بعين الاعتبار : الاول : Phoenicon اسم مدينة مذكورة عند

ديودورس الصقلي(١٧) ، تقع على شاطىء شبه جزيرة سينا الغربي ، ربما كان اسما لنخلة الطور في جنوب خليج السويس · ونجد الاسم نفسه عند سترابون(١٨) وعند بروكوبيوس(١٩) وعند اوسابيوس القيصري(٢٠) ، يقول عنه سترابون بانه على بعد خمسة أيام من البتراء ، وهو اسم قلعة النخل التي تقع في منتصف الطريق بين السويس والعقبة أما كوسماس انديكوبلاستاس Cosmas Indicopleustes (٢١) ، الذي كتب في منتصف القرن السادس ، فهو يعطي ذات الاسم لمحلة على شاطىء البحر الأحمر ، في أقصى شمال خليج السويس ، حيث عبر الاسرائيليون البحر ، مما يذكر بـ « نخلة القلزم » Clysma (٢٢) · وهناك نخلات عديدة أخرى في صحراء سيناء وعلى مشارف الجزيرة العربية · فمدن النخيل أو النخل في نص سوزومينوس تدل على ان غزوات ماوية جرت بين فلسطين والبحر الأحمر · وبهذا التحديد الجغرافي نعود الى الاصل الذي استقى منه سوزومينوس ، أي روفينوس ، الذي لا يذكر الا فلسطين والتخوم العربية وما بينهما من المدن والقرى · هذا ، واذا أخذنا بعين الاعتبار ان سوزومينوس كان من مواليد قرية بالقرب من غزة ، فلا يمكننا ان نهمل تلك الزيادة التي ترتدي صفة محلية تتلاءم مع المعنى الذي أعطيناها اياه ·

اذاً ، لم تكن ماوية من حفظة الحدود الرومانية ، بل كان زوجها عقد عدة اتفاقات σπονδαι مع السلطة الرومانية نجهل فحواها · ومن الممكن ان الحاكم الروماني على تلك المقاطعة ، أي فلسطين الثالثة ، اغتنم فرصة وفاة زوج ماوية ، مفترضا ضعفها ، لينكث بالعهد ويفرض على القبيلة ضرائب وغرائم تتعدى

الاتفاقات المعقودة • فكان ذلك سبب انتفاضة ماوية وثورتها على السلطة المستعمرة • وهناك نص في سيرة القديس سمعان العمودي يدل على ان هذا الافتراض ليس ببعيد عن العقل •

يقول هذا النص « ان ملكة العرب Arabum Regina في ناحية النخيل Regio Nachiphelorum كان لديها حاكم عسكري Tribunum ، رجل سيىء جدا Nequissimum ، يهضم حقوق اليتامى والارامل ، ويعيث الفساد في سائر الاقليم »(٢٣) • فهذا الرجل تاب على يد القديس وانقطع عن غيه •

هذه « الملكة » كان باستطاعتها ان تكون ماوية ، لو ان التاريخ سمح بذلك • فسمعان العمودي الثاني المذكور هنا عاش من سنة ٥٢١ الى سنة ٥٩٢ (بينما الاول عاش بين سنة ٣٩٠ و٤٥٩) • غير أن الحدث المذكور من شأنه أن يكون تكرر مرارا قبل ذلك الحين وبعده •

من هو زوج ماوية ؟

كوسان ده بارسفال A. Caussin de Perceval ، المستشرق الفرنسي ، يفترض انه كان الحارث بن جبلة (٥٢٩ ــ ٥٦٩) ، الذي يجعله معاصرا ليوليانس ، القيصر الروماني ، ويحدد تاريخه بين ٣٦٠ و٣٧٣(٢٤) • اذا ، لا التاريخ يسمح بذلك ولا شخصية هذا الملك الشهير •

و Lebeau ، مؤرخ فرنسي من القرن الماضي ، يظن ان زوج ماوية كان سيد قبيلة عربية من صحراء فاران ، اسمه

Obedianus (٢٥) ، أي ابن عبيد • وهذا ينسجم مع الموقع الجغرافي الذي جرت فيه عمليات الغزو التي قامت بها ماوية على رأس قبيلتها •

فعلى أي نص يستند Lebeau ليجعل من Obedianus زوجا لماوية؟

ان المؤرخ الوحيد الذي حفظ لنا ذكر هذا السيد العربي هو امونيوس Ammonius ، وهو ناسك كان يقطن في جوار الاسكندرية، وكتب سيرة النساك الذين ذبحهم أقوام أتوا من صحاري مصر الجنوبية ، بين النيل والبحر الاحمر ، يسميهم المؤرخون اللاتين واليونان : Blemmyis ، والعرب : الباجه(٢٦) • وهؤلاء البرابرة قطعوا البحر الأحمر ونزلوا في محلة تسمى ريطو أو ريثو Raithou ، تقع على شاطىء البحر الأحمر الشرقي ،وكانت تحت سلطة سيد فاران ، وهي مدينة بين مصر و (الجزيرة) العربية ، على حد قول اسطفانوس البيزنطي Φαραν

Πολις μεταξυ Αλιγυπτον χαι 'Αραβιας

وتقع بالحصر في أقصى شبه الجزيرة التي تفصل بين الخليجين اللذين بهما ينتهي البحر الأحمر جنوبا • وهناك قتلوا الرجال وسبوا النساء والاولاد ، وذبحوا اربعين ناسكا كانوا التجأوا الى الكنيسة • حدث ذلك في ٢٨ كانون الاول سنة ٣٧٢ • ثم أرادوا ان يركبوا البحر ليرجعوا الى بلادهم ، فلم يتمكنوا من ذلك لعطل مراكبهم ، فذبحوا السبايا وحرقوا النخيل • ففاجأهم Obedianus ، أمير فاران πρωτος του εθνουςαυτου ومعه مائة أعرابي من النبالة، فافناهم جميعا ، رغم مقاومتهم العنيفة•

و Obedianus هذا كان نصرانيا ، ينعته أمونيوس ب «صديق المسيح » φιλοχειστος؛ تنصر على يد موسى ، وهو راهب من دير ريطو(٢٧) • ومن المعروف ان النساك العديدين القاطنين في الصحاري العربية قد نصروا عدة من القبائل المتجولين بين فلسطين ومشارف الجزيرة العربية • فمن بين هؤلاء القبائل المتنصرة في تلك الفترة قبيلة بني عبيد وقبيلة ضجعم •

فهل من علاقة بين هاتين القبيلتين ؟ أظن ان ذلك ليس من المستحيل • ان اسم Obedianus يدل على ان حامله كان ينتمي الى بني العبيد(٢٨) ، وهم فرع من بني سليح ، ملكوا على الحضر ، ومنها انتقلوا الى سوريا الجنوبية في منتصف القرن الرابع ، بعد ان استولى الساسانيون على المدينة وخربوها • وبنو العبيد هؤلاء كانوا حلفاء الرومان في الحضر ، فالتجأوا الى سوريا وفلسطين ، حيث كان فرع آخر من سليح متحالفاً مع الرومان ومحافظا على حدودهم • والى هذا الفرع ينتمي الضجاعمة •

هل من المعقول ان تكون ماوية ارملة Obedianus ؟

ان M. de Eaint-Martin الذي راجع الطبعة الثانية لتاريخ Lebeau يدحض هذا الرأي بدون تعليل مقبول • وسوزومينوس ومن اتخذ عنه لم يسم زوجها ، وهم في الوقت نفسه يقولون بانها أرملة ملك الاعراب وبأنها ثارت على الرومان بين سنة ٣٧٣ و٣٧٨، في عهد القيصر فالنس وبعد وفاة زوجها •

ان الحدث الذي ذكرناه سابقا عن Obedianus والباجه قد جرى في ٢٨ كانون الأول سنة ٣٧٢ • فماذا يمنع أن يكون توفي

زوج ماوية في تلك السنة أو السنة التالية ، أي قبل ان تعلن الحرب على الرومان بقليل ؟ وما يمنع أن يكون Obedianus هو هذا الزوج المتوفى ؟

لقد رأينا ان المجال الذي كانت تتجول فيه ماوية على رأس قبيلتها كان يمتد بين فلسطين الثالثة وخليج السويس ، وانها لم تكن من حفظة الحدود مثل ضجعم المعاصر لها • ولربما كان بينها وبين هذا الاخير منافسة على النفوذ لدى الرومان ، مما دفع بها الى العصيان ، بعد انتقاء ضجعم من السلطة الرومانية •

٢ ـ من هم الضجاعمة ؟

ان مؤسس سلالة الضجاعمة هو حماطة بن سعد بن عمرو (سلَيح) بن حلوان ، المعروف باسم ضُجْعُم (او ضَجْعَم) ، وهو Ζωχομος المذكور عند سوزومينوس ، كما بينه نولدكه(٢٩) • ولم تحفظ الآثار اسما آخر مثله الا اسم Ζωχομος المذكور عند المؤرخ تاوفيلكتوس Theophilactus الذي كتب في القرن السابع للمسيح ، والذي يذكر فيلرخا بهذا الاسم من سوريا الشمالية ، ساند حاكم ماردين ، سنة ٥٨٦ ، في معركة ضد الفرس(٣٠) •

اسم ضجعم ليس عربياً وربما كان من أصل آرامي • فالمعاجم العربية التي من عادتها ان تستفيض في شرح أسماء الأعلام ، تكتفي بايراده فقط •

والمؤرخ سوزومينوس يحدثنا عن قبيلة ضجعم Ζωχομου التي اعتنقت النصرانية على اثر نبوءة راهب تحققت بولادة وريث

لهم(٣١) • فاعتناقهم النصرانية دليل على التحاقهم بالرومان ضد الفرس • وهذا الحدث يبدو أنه جرى في النصف الأخير من القرن الرابع •

ولم يحفظ التاريخ الكثير عن سلالة الضجاعمة ، فجل ما نعرفه عنهم هو انهم كانوا عمالا للروم وان عددهم خمسة فقط : الاول ضجعم نفسه الذي لا نعرف عنه الا ما سبق ، والثاني عمرو بن عوف بن حماطه ، ابن ضجعم الثاني ، والثالث هبوله بن عمرو ابن عوف ، والرابع ذياد بن هبوله ، والخامس وهو الأخير داوود (اللثق) بن هبالة (اخي هبوله) ، أخو ذياد(٣٢) •

ونجد عند المؤرخين اختلافا في عددهم وفي سياقهم ، وذلك آت من أن السلطة تناقلت بين أولاد ضجعم الاثنين : عمرو وعوف • ويبدو ان مدة حكمهم كانت قصيرة ، وسبب ذلك ، على الأرجح ، المنافرات بين أولاد العم • ولم يحفظ التاريخ الا اسماء الذين اشتهروا منهم بمقاومتهم للغسانيين المناوئين لهم ، يريدون ان يحلوا محلهم كعملاء عند الرومان • فأول لقاء بين بني السليح وبني جفنة من غسان أفضى بالنصر لبني السليح ، أما الثاني فقد حدث في عهد داوود الملقب باللثق ، وادى الى مقتل سبيط (أو سبطة) بن عمرو(٣٣) ، عم داوود الذي كان جابي سليح ، والى انتصار الغسانيين على الضجاعمة • فملك هؤلاء الخمسة يقارب المائة سنة •

والمعروف ان الغسانيين اصبحوا عملاء للروم سنة ٥٠٢(٣٤) ، اذا ، يكون حكم بني سليح قد بدأ في أواخر القرن الرابع وانتهى

في مطلع القرن السادس • فاذا كان افتراضنا هذا صحيحا ، يكون ضجعم قد عاصر ماوية ، كما رأينا سابقا ، ويكون ذياد بن هبولة قد عاصر حجر آكل المرار ، مؤسس المملكة الكندية في النصف الثاني من القرن الخامس ، وقاتله في يوم البردان ، كما ذكرت بعض النصوص التاريخية القديمة(٣٥) •

٣ ـ هذه خلاصة ما نعرف عن ماوية وعن ضجعم وسلالته • فهل من علاقة بين الاثنين ؟

قلنا ان المصادر العربية تجهل تمام الجهل ماوية ، لذلك يبدو رأي تاوفانس(٣٦) ، المؤرخ البيزنطي ، معقولا ، حيث يقول ان ماوية كانت أسيرة نصرانية تزوجها سيدها الذي كان ، على الأرجح، هو أيضا نصرانيا ، في حين انه يجعل من حمية ماوية الدينية نتيجة لما سبق من حياتها • ان انتقاءها لموسى ، وهو راهب من أصل عربي ، يدل على انها كانت عربية ، من العرب النصارى الارثوذكسيين المناوئين لتعاليم آريوس • ومعنى هذا الانتقاء هو أنها رغبت في أن يكون للنصارى العرب أساقفة ، مثل نصارى الروم والسريان وغيرهم فكان موسى هذا أول اسقف عربي •

ثم ان إعانتها للروم ضد الغوط ، بعد أن تغلبت على الروم وفرضت عليهم شروطها ، وتزويجها ابنتها الى الكونت فيكتور ، أحد قواد الروم Magister Militum ، يدل على ان ثورتها عليهم لم يكن لها داع آخر الا هضم حقوقبيلتها من قبل السلطة المحلية• ولا أظن أنه كان بينها وبين الضجاعمة علاقة وطيدة ، فهم كانوا

حفظة الحدود بين الرومان والفرس ، وهي كانت تتجول معقبيلتها بين فلسطين الثالثة وتخوم الجزيرة العربية ، من جهة ، وخليج السويس ، من جهة أخرى[٣٧] • واذا أخذنا بعين الاعتبار الفترة التاريخية التي حددناها سابقا ، يمكننا القول ، كما سبق ، بأن ماوية عاصرت ضجعم ، الذي تنصر على يد راهب ناسك قد يكون موسى الذي أصبح أسقفا على العرب • يخبرنا سوزومينوس بأن الكثير من العرب قد تنصروا على يد موسى بعد سيامته أسقفا ، ومن بين هؤلاء المتنصرين يذكر قبيلة ضجعم[٣٨] • فان كان سبب تنصر الضجاعمة هو تحالفهم مع الرومان ، فتنصر ماوية لم يكن حديث العهد ، كما يبدو ذلك من علاقاتها بالنساك المالئين في ذلك الحين صحارى التيه وسيناء • وكثرة هؤلاء النساك والرهبان في تلك الديار القاحلة الموحشة كان سببها ، علاوة عن التقى والتعبد ، الاضطهاد الذي مارسه فالنس ضد الذين رفضوا اتباع تعاليم آريوس • لذلك امتلأت الصحارى بالهاربين من هذا الاضطهاد • ومقاومة ماوية لفالنس تنسجم في هذا الاطار السياسي والديني ، وفرضها تسقيف موسى عن يد اسقف منفي يتخذ معناه الحقيقي ضمن هذا الاطار •

من الملاحظ أنأرملة من أشراف الرومان اسمها ميلانة Melania ابنة القنصل مارشلينوس Marcellinus ، صنعت صنعها بالدفاع عن المنفيين والتحقت بهم في البراري وخدمتهم كأحقر خادمة • وروفينوس ، أول من تحدث عن ماوية ، كان صديق ميلانة هذه والتحق بها في صقلية ، بعد أن تركت فلسطين[٣٩] •

من هذه المعلومات يبدو لنا واضحا ان ماوية عاصرت ضجعم ، ابا الضجاعمة ، وانه بعد مقتل يوليانوس القيصر الروماني ، سنة ٣٦٣ ، استولت الفوضى وكثر الأسياد ، حتى تجاهل التاريخ اسماءهم • فمن هؤلاء الاسياد زوج ماوية ، الذي هلك في معركة من المعارك العديدة في ذلك الحين بين القبائل وضد الافارقة المنهالين على الواحات كالجراد • هل كان Obedianus ، كما يستنتج من مؤلف معاصر له ؟ لا الاطار التاريخي ولا المحيط الجغرافي ينفيانه •

في الخاتمة أشير الى ان المؤرخ اليوناني سوزومينوس ، الذي لا يخفي عجبه أمام شجاعة وجرأة هذه البدوية ، يذكر ان صيت ماوية ذاع بين القبائل حتى انتصاراتها على الجيوش الرومانية أصبحت موضوع أغاني شعبية

Παρα... Σαρακηνοις εν ωδτιν

خلدت ذكرها • فهذا القول يمثل أقدم نص تاريخي ثابت عن وجود الشعر العربي ، لأنه من الواضح أن هذه الاغاني الشعبية كانت مصبوبة في قالب شعري[٤٠] •

الهوامش

١ ـ Sextus Rufus, **Breviarum**. C. 14.

٢ ـ Lydus, **De Mensibus**, IV, 104.

٣ ـ LXVIII, 21.22.

٤ ـ انظر :
W. Caskel, **Gamharat an-nasab. Das Genealogische Werk des Hisham Ibn Muhammad al-Kalbi**, II, Brill, 1966, 405.

٥ ـ راجع ص ١٠٥ من نشرة Gottwald

٦ ـ I .19; 20, 9-10.

٧ ـ راجع :
F. Altheim-R. Stiehl. **Die Araber in der alten Welt**, II, Berlin, 1965, 313 sqq.

حيث تجد اختصارا لآراء هذه المستشرقة حول الموضوع الذي نعالجه هنا ، ص ٣١٣ وما يليها · أنظر بالأخص ٣٢٨ ·

٨ ـ تابعه بذلك المعاجم العربية · انظر ، مثلا ، مادة (عوى) في لسان العرب، حيث نقرأ : « المعاوية الكلبة المستحرمة تعوي الى الكلاب اذا صرفت ويعوين ··· ومعاوية اسم وهو منه (طبعة بولاق ، ١٣٠٧ ، الجزء التاسع عشر ، ص ٣٤٣) ·

٩ ـ يلاحظ ان ماوية بن عمرو بن مالك كان له أخ يدعى معاوية (انظر :
W. Caskel, **Gamhara, Op. cit.**, I, 212.

١٠ـ نجد عند ابن الكلبي ، في نسب الجفنيين ، اسم مارية بنت الأرقم بن ثعلبة ابن عمرو بن جفنة بن عمرو مزيقياء بن عامر ، وعند حمزه الاصفهاني ، في نسب الغساسنة ، مارية بنت ثعلبة بن عمرو بن جفنة بن عمرو ابن عامر انظر النسبين عند :
Th. Noldeke, **Die Ghassanachen Fursten aus dem Hause Gavna's, in Abhandlungen der Koniglichen Akademie der Wissenschaften** zu Berlin, 1887, II.62.

١١ـ الجزء نفسه ، ص ١٦٩ ، مادة (موا)

١٢ـ انظر :
Pauly - Wissowa, RE 2. Reihe, 1/1920, col. 1193 (n. 24-1196.

١٣ـ **Hist. Ecc.**, IV, 36, 11.1-12.

١٤ـ **Hist. Ecc.**, VI, 38.11.1-9 .

الف سوزومينوس تاريخه بين سنة ٤٤٣ و ٤٥٠ · ولد في قرية بالقرب من غزة ، درس السريانية وكتب عن القديس افرام Ib., V, 5,1.14.

١٥ـ نشر بيداز ، ص ٢٩٧ ، سطر ١٣ وما يليه،ص ٢٩٨ ، سطر ٤ وما يليه·

١٦ـ ص ٣٠٢ ، سطر ٦ ·

١٧ـ الفصل الثالث : ٤٢ ـ ٤٣ ·

١٨ـ XVI. IV, 21

١٩ـ **De bello Persico**, I,19.

٢٠ـ **Onomasticon**, 96 sq.

٢١ـ **Topographia Christiana**, 197 D

٢٢ـ انظر عن هذا الموضوع :
R. Devresse, **Le Christianisme dans la Peninsule sinaitique des origines a l'arrivee des Musulmans in Revue Biblique**, 49/ 1940. 205 - 206.

٢٣ـ Habebat Arabum Regina in regio Nachiphelorum Tribunum, hominem nequissimum ......sed et Provinciam rapinis et iniquis vexationibus infestam Tabebat (**Acta Hartyrum Syriace**, ed. Assemanus, Roma, 1748, 11,313.

٢٤ـ **Essai sur l'Histoire des Arabes avant l'Islamisme**. II, Paris. 1847, p. 218 sqq.

٢٥ـ انظر :
Histoire du Bas-Empire, nouv. ed. revue entierement, XX corrigee et augmentee d'apres les historiens orientaux, par M. de Saint - Martin, t. III. Paris, Didot, 1825, 446 sqq.

٢٦ـ راجع :

Etienne Quatremere, **Memoires geographiques et historiques** sur I,Egypte, II, 127 - 161.

كتب امونيوس سير شهداء ريطو الاسماعيليين των 'Ισμακλιτων باللغة «المصرية» ، أي القبطية ، وترجم هذا الكتاب الى اليونانية كاهن اسمه يوحنا ٠نشر هذه الترجمة في باريس سنة ١٦٦٠، الاب Combefis في مجموعة عنوانها :

Illustrium Christi Martyrum lecti triumphe, vetustis graecorum monumentis consignati.

٢٧ـ تعيد الكنيسة لهذا القديس في ٧ شباط

Acta Sanctorum, febr. (IV,23) Thacdoratus. t. II,42-45.

المؤرخ الكنسي ، يفيدنا ان هذا الناسك كان يتنقل بين فلسطين ومصر ، كما تفيدنا المصادر التاريخية عن ماوية ٠

٢٨ـ نولدكه وكسكل من بعده يقرآن : بني العبيد ٠

٢٩ـ **Die Ghassanischen Fursten, Op. Cit.**, p. 8

٣٠ـ Theophylactus Simocatta, ed. Boor, Leipzig. 1887,II,2.

كتب هذا المؤلف تاريخ الامبراطور البيزنطي موريسيوس الذي ملك من ٥٨٢ الى ٦٠٢ ٠ جواد علي ، مفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام الجزء الثالث ، ٣٩٥ ، يجعل من هذين الضجعميين شخصا واحدا ٠

٣١ـ ص ٣٠ ، سطر ١ ٠

٣٢ـ اتبعنا في ذلك النسب المعطى في جمهرة ابن دريد الذي بدا لنا أوضح من غيره (انظر كسكل ، الجزء الثاني ، ص ٣٢٦) ٠

٣٣ـ عند ابن دريد : سبيط بن عمرو وعند غيره : سبيط بن المنذر بن عمرو (أي وضع المنذر قبل سبيط في نسب الجمهرة) ٠

٣٤ـ الموسوعة الاسلامية ، مادة Ghassan

٣٥ـ انظر ابن دريد ، الاشتقاق ، ٣١٩/٢ ٠

Caskel, Gamharat, II, 235-6 EI   S. Kinda. V/1979, p.121.

٣٦ـ **Thephanes, Chronographia**, 55.

٣٧ـ انظر :

Tillmont, Memoires, VII.593 : Aigrain, art. Arabia, in DHGE, III. col. 1191.

٣٨ـ ص ٣٩٩ ، سطر ١٨ ـ ١٩ ٠

٣٩ـ راجع :

G. Goyau, Sainte Melanie, 22 sq.; art. Melanie (2), an. Pauly-Wissowa, RE XV, I.

٤٠ـ انظر في هذا الموضوع :

F. **Altheim-R. Stiehl, Die Araber in der alten Welt**, Op. Cit., III, Berlin 1966, 101 sqq.

ثلاثة مصادر تلقي بعض الأضواء على جوانب من الحياة الاقتصادية في بلاد الشام في العهد البيزنطي*

نعيم فرح

– ١ –

الوصف الكامل للعالم والشعوب Exposito totius mundi et gentium

وصلت الينا مخطوطة « الوصف الكامل للعالم والشعوب » Expositio في نسختين : رمز للنسخة الأولى القديمة بحرف A وطبعت سنة ١٦٢٨ على يد العالم يعقوب غوتفريد . أما النسخة الثانية الاحدث منها فقد رمز لها بحرف B ووجدت منها مخطوطتان وقد طبعت في سلسلة « الجغرافيات اليونانية الصغيرة » في باريس سنة ١٨٦١ .

Geographi graeci minores, ed. C. Mullerus, Paris, V.2, 1861.

وقد كان اعتمادنا على النسخة الثانية B التي نشرها مولر ، ولدى مقارنة النسختين : A و B على يد بعض المؤرخين وعلماء اللغات تبين لهم ان النسخة A كتبت بلغة لاتينية ركيكة جدا ،

* كان الدكتور نعيم فرح قد قدم للمؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام بحثاً بعنوان « أضواء على الصناعة والتجارة في مدن بلاد الشام ودورها في التجارة العالمية في العهد البيزنطي » ثم نشره في مجلة « دراسات تاريخية » كانون الثاني – أيار ١٩٨٤ ، ولهذا لم نجد ضرورة لاعادة نشر البحث هنا ، وانما اجتزأنا منه حديثه عن ثلاثة مصادر غير متداولة كثيراً .

بينما كتبت النسخة الثانية B بلغة لاتينية أفضل ، وان لم تكن لغة نحوية صرفاً • وعلى هذا افترض بعض العلماء ان المخطوطة مترجمة في الأصل عن اليونانية ، ثـم افترض البعض الآخـر أن مؤلف المخطوطة سوري أو مصري • وأخيراً أكدت المؤرخة السوفييتية نينا بيغوليفسكايا ان مؤلف المخطوطة سوري الأصل[1] •

تقول نينـا بيغوليفسكايا : نستطيع أن نتعرف عـلى مؤلف المخطوطة وتاريخها من خلال المعلومات الواردة.فالنسخة B تحتوي على (٦٨) فقرة : منها احدى عشرة فقرة مخصصة لاخبار سورية ، من فقرة ٢٣ ــ ٣٣ ، بينما خصصت أربع فقرات لاخبار مصر • ويذكر مؤلف المخطوطة التقسيم السياسي في سورية (بلاد الشام) ، كما يذكر اسماء عشرين مدينة سورية ، بينما لم يتحدث في أخبار مصر الا عن مدينة الاسكندرية • وممـا يؤكد أيضا ان مؤلف المخطوطة تاجر سوري اهتمامه الخاص بأخبار سورية (بلاد الشام) ومعرفته الدقيقة بمدنها الساحلية والداخلية ، اضافة الى تقديره للتجار السوريين تقديراً رفيعاً ، حيث يصفهم بأنهم مهرة أغنياء يتحلون بمكارم الاخلاق • ومن خلال هذه المعطيات وغيرها يتبين لنا أن المؤلف سوري الأصل وليس مصريا • وقد كان المؤلف ملماً باللغة اللاتينية واللغة اليونانية الماماً بسيطاً ، فكان يكتب المعلومات بلغته السريانية أولا ثم يترجمها الى اللغة اللاتينية • ومن خلال دراسات الاحداث التي ورد ذكرها في المخطوطة يتبين لنا ان المخطوطة قد كتبت في منتصف القرن الرابع (حوالي سنة ٣٥٠ ميلادية) •

وقد اطلق بعض الباحثين على مخطوطة « الوصف الكامل للعالم والشعوب » اسم : « الجغرافية الاقتصادية أو التجارية للامبراطورية

البيزنطية في القرن الرابع » ، حيث وردت فيها معلومات وفيرة وصحيحة عن أهم القضايا الاقتصادية في مختلف المدن البيزنطية ، كما انها وضعت بيد كاتب وصف ما شاهده بعينيه أو عرفه معرفة تامة أو سمعه من شهود عيان • وقد تحدث مؤلف المخطوطة عن النواحي الاقتصادية في مدن ايطاليا واسبانيا وموريتانيا ونوميديا وشبه جزيرة البلقان وآسيا الصغرى ومصر وسورية وغيرها • ففي الفقرات الأولى من المخطوطة (من فقرة ١ ــ ٢٠) تحدث المؤلف عن شعوب الشرق وبلدانه الواقعة خارج حدود الامبراطورية البيزنطية ، وبصورة خاصة عن الهند • امـا الفقرات التاليـة (من فقرة ٢١ ــ ٦٧) فقد خصصها للتحدث عن النواحي الاقتصادية داخل حدود الامبراطورية البيزنطية •

واهتم مؤلف مخطوطة « الوصف الكامل للعالم والشعوب » بالتحدث عن الحياة الاقتصادية في مدن بلاد الشام بشكل خاص • فتناول في حديثه عاصمة سورية الساحلية ــ مدينة انطاكية ــ التي امتازت بنشاط تجارتها ووفرة ثروتها وتنوع بضائعها • ونستدل مـن حديثه أيضا أن صور وصيدا وبيروت وسلوقية وانطاكيـة واللاذقية كانت مراكز صناعية تجارية هامة وأنها شهدت ازدهاراً اقتصادياً في العهد البيزنطي • ويذكر مؤلف المخطوطة اسماء مدن كثيرة في بلاد الشام مثل : سكيفوبوليس ، واللاذقيـة وبيبلوس (جبيل) وتير (صور) وبيريتس (بيروت) وقيسـارية ونيابوليس واللد وايرخون ودمشق وهيليوبوليس وعسقلان وغزة وطرابلس واليفتيروبوليس ، كما يقول عن هذه المدن أنها تمتاز بمناخ

معتدل ونشاط تجاري وفيها رجال أغنياء في كل شيء : في الكلام الجميل الفصيح وفي العمل وفي الاحسان وفي أعمال الخير • ويذكر المؤلف أن جميع هذه المدن تتوفر فيها الحبوب والخمور والزيوت ، كما تزرع حولها اشجار النخيل ، الا أن النخيل الذي يزرع حول دمشق وايرخون هو من أجود الانواع ، كما تزرع حول هاتين المدينتين أيضا اشجار الجوز والتفاح المتنوعة(٢) • واما مدينتا عسقلان وغزة فتمونان بالخمور كلا من سورية ومصر • هذا ويشبه المؤلف النشاط التجاري في مدن بلاد الشام بغليان الماء in negotio bullientes (٣) • وبالاضافة الى الصناعات الزراعية المذكورة أعلاه اشتهرت مدن بلاد الشام أيضا بصناعة مختلف أنواع الالبسة • ويذكر المؤلف أن الالبسة الكتانية كانت تصدر من بيبلوس وصور وبيروت وسيكفوبوليس واللاذقية الى جميع انحاء العالم ، كما أن الاقمشة المصبوغة بالارجوان الحقيقي كانت تصنع في ساربتا وقيسارية ونيابوليس واللد(٤) •

وقد استمر النشاط الاقتصادي ، الذي تحدث عنه مؤرخ القرن الرابع ، في مدن بلاد الشام في القرون اللاحقة • غير أن الاجراءات التي اتخذها الامبراطور البيزنطي جستنيانوس الأول في القرن السادس ، المتمثلة باحتكار الدولة لتجارة خيوط الحرير ورفع اسعارها ، قد الحقت الضرر بمصانع النسيج الصغيرة الخاصة الموجودة في مختلف مدن بلاد الشام ، فاضطر معظم اصحاب هذه المصانع الى اغلاق مصانعهم ، حيث لم يعد باستطاعتهم الحصول على خيوط الحرير اللازمة لتشغيل هذه المصانع(٥) •

واضافة الى اهتمام مؤلف المخطوطة بالقضايا الاقتصادية اهتم أيضاً ببعض النواحي الفنية والثقافية في مدن بلاد الشام • فتحدث عن الأمور المتعلقة بالعروض المسرحية وأعمال السرك التي كانت تجري في انطاكية واللاذقية وصور وبيروت وقيسارية وغيرها ، وذكر أن أفضل سائقي خيول السباق وجدوا في اللاذقية ، ومنها توزعوا الى مختلف المدن • اما في بيروت وصور فقد وجد أفضل الممثلين التنكريين ، كما وجد في قيسارية أجود الممثلين الصامتين ، وفي غزة أقدر الفنانين والمصارعين ، وفي عسقلان وكاستابيتيا أقوى اللاعبين الرياضيين ، وفي هليوبوليس أمهر العازفين على الناي والمزمار وأجمل النساء اللواتي ورثن جمالهن عن فينوس (آلهة الحب والجمال) التي لا تزال تعيش (حسب تصور المؤلف) في جبال لبنان قرب هليوبوليس(٦) • وفي هذه المدن كان يتم تدريب مختلف الفنانين كالموسيقيين والممثلين وسائقي خيول السباق الذين يشتركون في تقديم المشاهد الفنية في السرك أو الملعب • وفي الغالب شارك بعض التجار في استخدام هؤلاء الفنانين وتشغيلهم ، حيث كانت العاب السرك تشكل المكان والزمان المناسبين لبيع البضائع المتنوعة •

وأثارت مدن بلاد الشام اعجاب المؤلف ، فكتب عنها وصفا يعبر عن غبطته وابتهاجه بجمالها ومآثرها ، فذكر أن مدينة انطاكية تكثر فيها التماثيل الفنية والابنية الجميلة ، كما كانت كثيرة السكان وافرة الثروة • أما مدينة قيسارية فكانت رائعة بموقعها ومخطط عمرانها وامتازت بوجود نخاسها المربع الفريد من نوعه* •

* النخاس : ج نخس وهو نصب تذكاري على شكل عمود •

واشتهرت مدينة سلوقية بمينائها المريح المدهش الذي أعيد بناؤه في عهد الامبراطور قسطنطين الكبير ، هذا الميناء الملائم لاعمال التجارة وللأمور العسكرية الستراتيجية معاً(٧) • وتفتخر مدينة بيروت بمدارس الحقوق التي يتخرج منها رجال القانون ويتوزعون في جميع ولايات الامبراطورية ، كي يسهروا على حسن سير المحاكم ويحرسوا القانون(٨) • هذا وتتحدث مصادر تاريخية أخرى عن مساهمة اساتذة بيروت الحقوقيين في صياغة المجموعات القانونية المتعددة للامبراطورية البيزنطية مثل مجموعة جيرموجينيوس Codex Germogenianus ومجموعة تيودوسيوس Codex theodosianus ومجموعة جستنيانوس Codex Justinianus ويقول مؤلف المخطوطة عن مدينة بصرى الشام انها ذات تجارة واسعة ، Quae negotia maxima habere decitur لانها قريبة من العرب والفرس •

وذكر المؤلف كلمة أرابيا Arabia لتدل على الولاية العربية الرومانية • اما كلمة ساراكينوي Sarakenoi فقصد بها البدو الرحل من العرب ، الذين كانت لهم علاقات تجارية مع مناطق الحدود البيزنطية ، كما قال عنهم أيضا « انهم يرغبون في أن يقضوا حياتهم في الغزو وجمع الغنائم »
Rapina Sperantium Suam Vitam transigere
ويروي عنهم تحكمهم بالنساء(٩) •

وتحدث مؤلف المخطوطة عن بعض المدن التجارية الواقعة على الحدود البيزنطية الفارسية في بلاد النهرين مثل مدينة نصيبين ومدينة أديسا (الرها) ، اللتين بفضل « حكمة الالهة والاباطرة » وقفتا صامدتين في وجه الفرس • وقال المؤلف عن سكان هاتين

المدينتين أنهم كانوا حاذقين في الأعمال التجارية in negotion Valde acutos فاحتكروا التجارة مع الفرس ، حيث كانوا يشترون منهم بضائعهم ويبيعونها في جميع الولايات البيزنطية ، في حين كانوا يبيعون للفرس بضائع ومنتوجات الامبراطورية الرومانية ، عدا النحاس والحديد(١٠) ، ذلك أن الحكومة البيزنطية حظرت بيع هذه المعادن للفرس وغيرهم من الاعداء ، كيلا يستخدموها في صناعة الاسلحة ، وقد استمر هذا الحظر حتى القرن السادس الميلادي •

وهكذا فان اللوحة الاقتصادية التي رسمها لنا مؤلف المخطوطة على عجل تبين لنا صورة العلاقات الاقتصادية في المجتمع البيزنطي الذي كانت ما تزال فيه جذور علاقات العبودية قوية • ولكن بعد مرور ثلاثة قرون على هذه الصورة سيتغير شكلها ، حيث ستتفسخ علاقات العبودية وتولد علاقات جديدة تؤثر في حياة المدن وتجارتها •

ـ ٢ ـ

قزما الملاح الهندي ـ « الطبغرافية المسيحية » :

Cosmas Indiocopleustes - The Christian topography

يعتبر كتاب « الطبغرافية المسيحية » لمؤلفه قزما ـ الملاح الهندي ـ من المصادر التاريخية الهامة التي تمدنا بمعلومات وفيرة عن تجارة بيزنطة في القرن السادس الميلادي • وقد انتشرت نسخ كثيرة من هذا الكتاب في العصور الوسطى ، كما ترجمت النسخ الأصلية اليونانية الى عدة لغات منها اللاتينية والسلافية • وقزما الملاح الهندي أصله من مصر ، وفي الغالب من مدينة الاسكندرية ،

حيث شاع كثيرا مثل هذا الاسم في مصر • وقد تحدث قزما الملاح الهندي في كتابه عن نفسه وحياته باختصار ، فذكر انه عرف اللغة اليونانية ، ولكنه لم يتقن فصاحتها جيدا بسبب انشغاله بمشاكل الحياة اليومية الصاخبة(١١) •

اشتغل قزما الملاح الهندي بالتجارة فطاف في بحار ثلاثة هي : البحر الرومي (المتوسط) ، البحر الاريتيري (المحيط الهندي) ، البحر الفارسي (الخليج العربي) • وذكر قزما أن المعلومات التي نقلها الينا في كتابه أخذها مباشرة عن سكان المناطق والبلدان التي زارها(١٢) • لقد أبحر قزما من جزيرة سنغيدون الواقعة في مدخل المحيط الهندي باتجاه الهند ، فتعرض لعاصفة بحرية شديدة ، لكنه لم يذكر اذا كان قد وصل الى الهند أم لا • غير أن الوصف الدقيق الذي عرضه في الفصل الحادي عشر من كتابه عن جزيرة سيلان يدل على أنه من تأليف شاهد عيان • وقد حل قزما في الحبشة سنة ٥٢٢ أو ٥٢٥ في عهد ملكها الاصبح ، الذي عاصر عهد الامبراطور البيزنطي جوستين الأول(١٣) • وفي الحبشة زار قزما مدينة ادوليس (عدول) التي كانت مرفأ تجاريا يقصده التجار من مختلف الجنسيات • وفي هذه المدينة نسخ قزما نقشين : النقش الأول كان على لوح من المرمر ويخلد ذكرى حملة بطليموس الثالث ملك مصر (٢٤٧ ــ ٢٢٢ ق•م) على الحبشة • أما النقش الثاني فكان تخليدا لتنصيب أحد الملوك الاحباش على العرش (في القرن الثاني أو الثالث الميلادي) ، الذي يحمل لقب «نيجوس» ــ النجاشي ــ ولكن اسمه لم يذكر • وزار قزما أيضا مدينة اكسوم عاصمة الحبشة التي كانت مركزا تجاريا هاما • وتحدث قزما عن

الزرافة Camelo Paradalis فقال لا تعيش الا في الحبشة ، ويوجد بعض منها في حديقة القصر الملكي في أكسوم ، كونها من الحيوانات النادرة(١٤) •

تجول قزما في ساحل افريقيا الجنوبي الشرقي فوصل الى شبه جزيرة الصومال • وربما وصل أيضاً الى بلاد ساسو عند منابع النيل الجنوبية،حيث ذكر أن ملك أكسوم أقام علاقات تجارية مع بلاد ساسو فاستورد منها الذهب(١٥) • وحل قزما أخيراً في صحراء سيناء وترهب في دير هناك يسميه رايتوي ، فقضى فيه بقية حياته منصرفا للتأليف • ونستدل على رهبنته من احدى نسخ كتابه «الطبغرافية المسيحية» المحفوظة في فلورنسا، حيث ورد أسمه فيها « قزما الراهب » •

وعدا عن « الطبغرافية المسيحية » كتب قزما بعض الكتب الأخرى ولكنها فقدت ولم تصل الينا ، ومنها كتاب يذكر المؤلف أنه كتبه لشخص يدعى قسطنطين وصف فيه المعمورة في جهة المحيط ــ من الاسكندرية الى المحيط الجنوبي (نهر النيل) ــ مصر كلها والحبشة والبحر العربي والمناطق المحيطة به والمدن والاقاليم والشعوب التي يحيط بها المحيط وتقع في داخل القارة ــ وهذا يعني انه وصف في ذلك الكتاب جميع مناطق أفريقيا الشرقية ودون فيه ملاحظاته الشخصية وما شاهده بعينيه(١٦) • كذلك كتب قزما الملاح كتابا في الفلك لكاهن يدعى هومولوغوس Homologos ، لكنه لم يصلنا ، كما لم يصلنا أيضا ما كتبه في شرح « قصيدة القصائد »(١٧) •

ويتألف كتاب « الطبغرافية المسيحية » من اثني عشر فصلا ، لكن هذه الفصول تختلف بمحتوياتها • فالفصول الخمسة الأولى تحتوي آراء قزما حول نشوء المعمورة • أما الفصول الخمسة الثانية – (أي من ٥ – ١٠) فتحتوي معلومات في الفلك وعلم الفضاء ، ولكنها غير واضحة وغير دقيقة • وأهم فصول الكتاب هو الفصل الحادي عشر الذي يتحدث فيه عن جزيرة سيلان حديث شاهد عيان • وعرض قزما في الفصل الثاني عشر آراء الكتاب الوثنيين القدماء حول قيمة التوراة وقدمها • هذا وقد كتب قزما كتابه « الطبغرافية المسيحية » بين سنتي ٥٤٧ – ٥٥٠ ميلادية(١٨) •

وتتطابق آراء قزما حول نشوء المعمورة مع آراء النساطرة السوريين • كما أن تجارة بيزنطة مع بلدان الشرق : الحبشة ، جنوب افريقيا ، الهند ، كان لا بد لها أن تشد قزما الى مجال التأثير السوري ، حيث قبض السوريون النساطرة الذين يعيشون تحت النفوذ الفارسي على زمام التجارة ، كما كانت اللغة السورية هي لغة التجارة الأولى في الشرق(١٩) • ومما يدل على التأثير السوري النسطوري على آراء قزما أنه عندما عدد مذاهب الهراطقة المسيحيين لم يذكر النساطرة بين الهراطقة • هذا وقد وردته أخبار من الاوساط السورية تفيد بأن كهنة جزيرة سقطرة (ديوسكوريد) كان يتم تعيينهم من فارس – أي من قبل رجال الدين النساطرة الخاضعين للنفوذ الفارسي(٢٠) •

وفي كتاب « الطبغرافية المسيحية » بعض الصور ، خاصة في أقدم مخطوطة محفوظة في الفاتيكان تحت رقم (٦٩٩)(٢١) • ويؤكد

الباحثون أن قزما كان قد رسم تلك الصور بيده • وذكر قزما أنه رسم الزرافة كما شاهدها في حديقة قصر أكسوم الملكي • كما رسم أيضا بعض المدن على شكل حصن له سور • ومن المدن التي رسمها قزما بيده مدينة دمشق •

ويستحسن أن نذكر هنا الكلمات الجميلة التي اختتم بها العالم الروسي سريزنفسكي ترجمة كتاب قزما : « سعى بعض الناس الى جمع الذهب ، في حين اغتصب بعضهم الأراضي أو اللؤلؤ أو غيره من الثروات • أما صاحب هذا الكتاب الحكيم (قزما) فلم يبحث عن الذهب أو اللؤلؤ أو غيره من الكنوز ، بل سعى الى وصف العالم بشكل لائق ، فجمع بذلك ثروة لا تزول • أن الكلمة وحدها هي ذخر كل ما في الأرض »(٢٢) •

– ٣ –

الطرق من جنة آدم حتى الرومان   Odoiporiai apo Edem

عثر الباحثون على مخطوطة صغيرة مكتوبة باللغة اليونانية تحتوي معلومات جغرافية وتاريخية ترجع الى ما قبل القرن السابع الميلادي • كما عثروا أيضا على مخطوطة أخرى مكتوبة باللغة الكروزينية (لغة بلاد الكرج) قريبة الشبه بمحتواها من المخطوطة اليونانية المذكورة • وتحمل المخطوطة اليونانية هذا العنوان : « الطرق من جنة آدم حتى الرومان » وأول من نشر هذه المخطوطة هو العالم كلوتز سنة ١٩١٠ •

A. Klots Odoiporiai apo Edem Rheinisches Moseum für philologie. t. 65, 1910, pp. 608 — 610.

ثم نشر المخطوطة بعده العالم أفاليشفيلي سنة ١٩٢٨ ٠

Z. Avalichvili Géographie et legende. Revue de l'Orient chrétien, 26, 1928, pp. 280 - 283.

كذلك وجدت العالمة السوفيتية نينا بيغوليفسكايا نسخة من المخطوطة باللغة اليونانية في المكتبة العامة الوطنية في مدينة لينينغراد تحمل الرقم (٢٢٥) ومؤرخة بتاريخ سنة ١٦٦١ ، فنشرتها مع ترجمة لها باللغة الروسية في ملحق كتابها : بيزنطة على طرق الهند (موسكو ١٩٥١ ، ص ٤٠٨ ـ ٤١٠) ٠

مخطوطة « الطرق من جنة آدم حتى الرومان » أصغر بكثير من مخطوطة «الوصف الكامل للعالم والشعوب» ٠٠٠ Expositio ، لكن المخطوطتين تتشابهان في ذكر اسماء البلدان والاقاليم وتحديد المسافات بين الاقاليم بعدد مراحل السير لقطع المسافات برأ أو بحراً ٠ وعدا عن صغرها تتميز مخطوطة « الطرق من جنة آدم ٠٠ » عن مخطوطة « الوصف الكامل ٠٠ » بطابعها المسيحي ، حيث يكثر فيها ذكر المسيحيين في مختلف أقاليم الشرق ، بينما لا نلاحظ الطابع المسيحي في مخطوطة « الوصف الكامل ٠٠ » ٠

ان الفقرات الأولى من مخطوطة «الوصف الكامل ٠٠٠» ومخطوطة « الطرق من جنة آدم ٠٠ » تدل على أن الطريق البحرية الى الهند والمسافات بين الموانيء والمراكز التجارية الرئيسية على هذه الطريق كانت معروفة في بيزنطة في القرن الرابع الميلادي ٠ وفي النص اليوناني والنص الكروزيني لمخطوطة « الطرق من جنة آدم » تبدأ الطريق من الهند ، أول مركز في الشرق يصدر البضائع ، عبر ايران ، فتصل الى روما عبر البحر الأبيض المتوسط ، ومن روما

تنتقل الى غاليا (فرنسا) ٠ وليس من شك أن خلف كتابة هذه المخطوطة اليونانية (الجغرافية ـ التاريخية) تكمن مصالح تجارية عالمية ٠ هذا وقد لعب التجار السوريون (تجار بلاد الشام) الدور الأول في تلك التجارة العالمية ، ومما يشهد على ذلك شواهد القبور الكثيرة المكتشفة في فرنسا والتي كتبت عليها كتابات باللغة السورية (السريانية) ترجع الى القرنين السادس والسابع الميلاديين ٠

تطلق مخطوطة « الطرق من جنة آدم حتى الرومان » على الفرس صفة عباد النار ، كما تذكر العرب باسم ساراكينوي دون أن تذكر الاسلام ، وهذا يدل على أن المخطوطة كتبت قبل ظهور الاسلام في القرن السابع ٠ أما ذكر المسيحيين لدى الهون (في آسيا الوسطى) وفي جزيرة سيلان والهند الكبرى فيدل على أن المخطوطة قد كتبت في الفترة التي نشط فيها تبشير البعثات الدينية السورية النسطورية في بلدان الشرق في المرحلة ما بين القرنين الخامس والسابع الميلاديين ٠

وعدا ذكر الطرق البحرية والمناطق الساحلية فقد ورد في مخطوطة « الطرق من جنة آدم حتى الرومان » ذكر الطرق البرية والمناطق القارية مثل : جنة آدم ، بلاد البراهمة ، بلاد الهون ٠ على أن التصورات عن جنة آدم والهند الشمالية والصين وبلاد الهون جاءت في مخطوطة « الطرق من جنة آدم حتى الرومان » غامضة ومبهمة ٠ أما في كتاب قزما ـ الملاح الهندي ـ « الطبغرافية المسيحية » فقد وردت المعلومات عن البلدان المذكورة بشكل أوضح واكثر واقعية ٠ ولا يعترف قزما بوجود جنة آدم على الأرض ٠

أما الصين عنده فهي بلاد في الشرق يقع خلفها المحيط الكبير ، وللوصول الى هذه البلاد توجد طريقان : الأولى بحرية في الجنوب ، والثانية برية في الشمال · وينفي قزما ـ الملاح الهندي ـ وجود جنة آدم في الأرض قائلا : « ما من أحد عرف جنة آدم على الأرض أو وصل اليها ، فلو كان من الممكن الوصول الى جنة آدم لذهب اليها الكثيرون ، ذلك أن الناس يذهبون الى اقاصي الأرض للحصول على الحرير الخام ، فكيف لا يذهبون الى جنة آدم لو كانت موجودة في الأرض فعلا ! » ·

تعريب المخطوطة اليونانية « الطرق من جنة آدم حتى الرومان » :

(ورقة ٦٧ ب) حول طرق جنة آدم ·

من آدم الى دراجنان تتأرجح المراحل (موناي) على طول النهر المسمى فيسون · من دراجنان الى ابيلات سبعون مرحلة ، هناك يزرعون ويحصدون ، وكل شيء يملكونه مشترك لا قسمة فيه ، والناس هناك مسيحيون · من ابيلات الى أرمين (ايمير) أربعون مرحلة ·

من أرمين الى نيكوس اثنتان وثلاثون مرحلة ·

من نيكوس الى ديسيمانيس مرحلتان ، ومنها الى هنا المسافة غير محسوبة ويروي أرضهم نهر فيسون، ولا توجد عندهم أصنام، وهم لا يتبعون المسيح وليسوا معه ، لكنهم يخشون الله وصادقون ·

بعد ديسيمانيس يعيش شعب يدعى خوناي (الصينيون) · ذلك الشعب كبير جدا ، (وأرضه واسعة) يلزم لاجتيازها ثمانية اشهر · ولديه أرض بدون ماء ·

Рукопись Государственной Публичной библиотеки в Ленинграде, греческая, № 252

(Текст печатается по неизданной рукописи № 252 с разночтениями издания „Подорожных". Klotz. 'Οδοιποϱία ἀπο 'Εδνὲμ. Rheinisches Museum für Philologie (1910) N. F., 65 B. H. 4, p. 608—610) (Λ. 67 б). Πεϱὶ ὁδοιποϱίαι τῆς 'Εδὲμ τοῦ παϱαδείσου.[1]

'Απὸ 'Αδὰμ.[2] ἕως Δϱαγμαν μοναὶ εὐ δομήντα[4] παϱὰ τὸν ποταμὸν τὸν λεγόμενον Φυσὼν καὶ ἀπό Δϱαγμὰν[5] ἕως 'Εβηλὰτ[6] μοναὶ $\bar{δ}$ ἐκεὶ σπέϱνουν[7] (λ.68-a) καὶ δεϱίζουν· ἔχουσιν δὲ τὰ πάντα κοινὰ καὶ ἀμέϱιστα· οἱ δὲ ἄν[θϱωπ] οι[8] χϱιστιανοί· ἀπὸ 'Εβηλὰτ ἕως 'Εϱμὴν[9], μοναὶ $\bar{μ}$ ἀπο 'Εϱμὴν[10] ἕως Νέκους, μοναι $\overline{λβ}$ ἀπὸ Νέκους ἕως Δισιμάνεις[11] μοναι β[12] ἕως ὧδε ἀμέϱιστα· ποτήζεται δὲ ἡ γῆ αὐτῶν τοῦ Φυσὼν ποταμοῦ[13] εἴδολα ἐν αὐτοῖς οὐ κέκτηνται· οὔτε[14] πϱὸ τοῦ Χ[ϱιστο]ῦ οὔτε[15] μετὰ του Χϱιστοῦ· ἀλλὰ πάντα[16] θεοσεβεῖς καὶ ἀγαθεῖς· ἀπὸ Δισιμάνεις ἔθνος λεγόμενον Χῶναι· τὸ δὲ ἔθνος τοῦτο μέγα· ἔχων[17] ὁδοιποϱοίων μην[ῶν] $\bar{η}$[18] ἔχει δὲ καὶ τόποις ἀνήδϱοις μηνῶν κθ. ἀπὸ 'Αβὰ παϱαπλέη τὸν αἰγυαλῶν. καὶ[19] ἔϱχεται εἰς τὴν 'Ινδίαν τὴν μεγάλην· πλέον μήνας ζ εἰσὶ [20] Χϱιστιανοι καὶ ''Ελληναις· ἀπὸ 'Ινδίας εἰς 'Αξομίαν παϱαπλέε· μήνας ζ[21] καὶ ἀπὸ 'Αξομὶς[22] (λ. 68-б) παϱαπλέει τὴν 'Εϱυθϱὰν θάλασσαν[23] ἔϱχεται εἰς τὴν 'Ινδιάν τὴν μακϱὰν[24] διὰ μηνῶν $\bar{ε}$ εἰσὶν δὲ καὶ ''Ελληναις καὶ Χϱιστιανοί.[25] ἀπὸ 'Ινδίας παϱαπλέει ἕως Πεϱσίδος μήνας $\bar{γ}$.. νυ...ηης[26] οἱ ἄνομοι μάγοι καὶ φάϱμακοί· ἀπὸ Πεϱσίδος εἰς Σαϱακηνίαν[27] μοναι $\bar{μ}$. ἀπὸ Σαϱακηνὴν πλέει εἰς τὴν 'Εβιλὰτ[28] τὴν 'Εϱυθϱὰν θάλασσαν εἰς τὴν[29] λιμένα τῆς Πεϱσίδος 'Ινδίας[30] καὶ ἀπὸ Αἰγύπτου μοναί ζ ''Ελληναις καὶ Χϱιστιανοὶ εἰσίν·[31] ἀπὸ 'Εβηλὰτ εἰς 'Ελαμὴ[32], μοναί $\bar{θ}$. ἀπὸ 'Ελαμὴ ἕως 'Αντιοχεία μοναὶ $\bar{κ}$ ἀπὸ 'Αντιοχείας εἰς Κωνσταντινούπολιν[33] μοναὶ $\overline{λβ}$ ἀπὸ Κωνσταντινούπολιν[34] ἕως 'Ρώμης μοναί $\overline{πς}$ ἀπὸ 'Ρώμης εἰς Χαλίαν[35] μοναὶ χζ[36]

'Η μονὴ ἔχει μήλια ζ καμουν ὅλα μύλια χιλιάδες ϱθ καὶ φ ἤγουν χιλι [λ. 69-a] άδες· ἑκατὸν ἐννέα καὶ πεντακόσια.

Τέλος τῆς ὁδοιποϱίας τῆς 'Εδὲμ τοῦ παϱαδείσου.

النص اليوناني الموجود في المكتبة الوطنية بمدينة ليتينغراد لمخطوطة « الطرق من جنة آدم حتى الرومان » نشرته مع ترجمته الروسية العالمية السوفييتية نينا بيغولفسكايا في كتابها « بيزنطة على طرق الهند. » ، موسكو ١٩٥١ ص ٤٠٨ ـ ٤١٠ ·

(صحراء) يلزم لاجتيازها تسعة وعشرون شهراً • من آب (دياب) يبحرون على طول الشاطىء حتى يصلوا الى الهند العظمى • مدة الابحار سبعة أشهر ، (وهم هناك) مسيحيون ويونانيون • من الهند الى أكسوم يبحرون سبعة أشهر ، بينما من أكسوم يبحرون عبر البحر الاريتيري فيصلون الى الهند العظمى بعد خمسة أشهر ، وهم هناك هلينيون ومسيحيون •

من الهند الى الفرس يبحرون ثلاثة أشهر ، وهم (الفرس) مجوس طغاة مفسدون • من الفرس الى الساركينوي (العرب) مرحلتان •

من الساراكينوي (العرب) يبحرون الى ايلات البحر الاريتيري والى ميناء الفرس الهندي •

ومن مصر الى ايلات سبع مراحل ، وهم (هناك) هلينيون ومسيحيون ، من ايلات الى عيلام تسع مراحل •

من عيلام الى انطاكية عشرون مرحلة •

من انطاكية الى القسطنطينية اثنتان وثلاثون مرحلة •

من القسطنطينية الى روما ست وثمانون مرحلة •

من روما الى غاليا سبع وعشرون مرحلة •

المرحلة تساوي سبعة أميال •

طول الطريق كله (الطريق من جنة آدم حتى الرومان) مئة وتسعة آلاف وخمسماية (١٠٩٥٠٠) ميل • نهاية طريق جنة آدم •

الوصف الكامل للعالم والشعوب

Expositio totius mundi et gentium

١ ـ نينا بيغوليفسكايا : بيزنطة على طرق الهند ، موسكو ١٩٥١ ، ص ٣٣ ـ ٥٤ •

٢ ـ « الوصف الكامل للعالم والشعوب » ، الفقرة ٣١ ، ص ٥١٩ •
Expositio, 31, p. 519.

٣ ـ « الوصف الكامل للعالم والشعوب » ، الفقرة ٢٩ ، ص ٥١٨ •

٤ ـ « الوصف الكامل للعالم والشعوب » ، الفقرة ٣١ ، ص ٥١٨ •
Procopius : Anecdota

٥ ـ بروكوبيوس : الترجمة الروسية في المسلسل الدوري « أخبار التاريخ القديم » •ف د• ي• العدد الرابع ، سنة ١٩٣٨ ، ص ٣٤١ ـ ٣٤٣ •

٦ ـ « الوصف الكامل للعالم والشعوب » ، الفقرات ٣٠ ـ ٣٢ ، ص ٥١٨ـ٥١٩ •

٧ ـ « الوصف الكامل للعالم والشعوب » ، الفقرات ٣٠ـ٣٢ ، ص ٥١٨ـ٥١٩ •

٨ ـ « الوصف الكامل للعالم والشعوب » ، الفقرة ٢٥ ، ص ٥١٧ •

٩ ـ « الوصف الكامل للعالم والشعوب » ، الفقرة ٢٠ ، ص ٥١٦ •

١٠ـ « الوصف الكامل للعالم والشعوب » ، الفقرة ٢٢ ، ص ٥١٦ •

قزما الملاح الهندي ـ «الطبغرافية المسيحية»

١١ـ Cosmas Indeicopleustes : The Christian topography (greec text). edit by Winstedt, Cambridge, 1909, p. 52.

١٢ـ Cosmas Indicopleustes, p. 62.

١٣ـ Cosmas, p. 72.

١٤ـ Cosmas, p. 319.

١٥ـ Cosmas, p. 70 - 71.

١٦ـ ب• أ• تورايف ، تاريخ الشرق القديم ، بطرس بورغ ، ١٩١٤ ، ص ٣٥٢ ـ ٣٥٣ •

١٧ـ نينا بيغوليفسكايا ، بيزنطة على طرق الهند ، ص ١٣٢ ٠

١٨ـ نينا بيغوليفسكايا ، بيزنطة على طرق الهند ، ص ١٣٣ ٠

١٩ـ نينا بيغوليفسكايا ، بيزنطة على طرق الهند ، ص ١٣٣ ٠

٢٠ـ Cosmas, 119.

٢١ـ C. Stornajolo, la Miniatura de la topogratia Christian, codex Vaticanus 699, Millano, 1908.

٢٢ـ ي٠ ي٠ سريزنفسكي ، معلومات وملاحظات حول المصادر المجهولة أو المعروفة قليلا ، بطرس بورغ ، ١٨٦٧ ، ص ٥ ٠

فهرس الأعلام

(أ)

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(ي)

فهرس الأماكن والبلدان

(أ)

(ب)

(ت)

(ح)

(ط)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

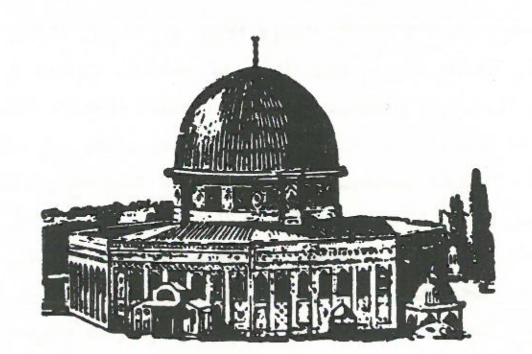
(ل)

(م)

(ن)

بسم الله الرحمن الرحيم

تحت رعاية حضرة صاحب الجلالة الملك الحسين بن طلال المعظم



المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام

من مطلع العهد البيزنطي

إلى أواخر العهد الأموي

برنامج

الندوة الأولى

بلاد الشام في العهد البيزنطي

٩ ـ ١٣ محرم ١٤٠٤هـ

١٥ ـ ١٩تشرين أول ١٩٨٣م

الجامعة الأردنية — **جامعة اليرموك**

جامعة مؤتة

بسم الله الرحمن الرحيم

يسعدني ونحن نشرع في أعمال الندوة الأولى من ندوات المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام، والتي تعالج تاريخ هذه البلاد من مختلف جوانبه في العهد البيزنطي ـ أن أتوجه بالشكر الجزيل وعظيم التقدير للعلماء الأجلاء المشاركين معنا ببحوثهم وأفكارهم. واذا ما تذكرنا البدايات الأولى لفكرة عقد مؤتمر عن بلاد الشام قبل عقد من الزمان تقريباً، عندما تقدمت باقتراح الى قسم التاريخ والآثار آنذاك، بالدعوة الى تدارك الأمور قبل فوات الأوان، لمعالجة الحدث التاريخي في بلاد الشام بعيداً عن الشرنمة التاريخية والتشرنق الاقليمي بل وضمن اطاره الطبيعي والكبير، فاننا نتذكر بالتقدير موقف الجامعة الايجابي تجاه تلك الفكرة، وان سرورنا بما تم انجازه لا يوازيه إلا طموح الموكول بهم أمر هذه الندوات والمؤتمرات بالوصول الى هذا الهدف لكي نرسي اللبنات الأولى في مشروع كتابة تاريخ العرب.

ولقد أصبح لدينا الآن لجنة قائمة تعرف باسم لجنة تاريخ بلاد الشام تتفرع عنها لجان متخصصة: لجنة المتابعة والندوات، لجنة التحرير والنشر ولجنة الوثائق والمخطوطات. كما أننا اتبعنا منهجا جديدا حيث أفردنا ندوة متخصصة لكل موضوع. وتعقد هذه الندوات في مواعيد محددة، و يشكل مجموع الندوات في نهاية المطاف مؤتمراً كبيراً. ومن حسن الطالع أن يكون موضوع الندوة القادمة والتي ستعقد في ١٥/١٠/١٩٨٤ «الفتح الاسلامي لبلاد الشام».

إن هذه الندوة نمط جيد من أنماط التعاون ما بين الجامعات الأردنية الثلاثة: الأردنية واليرموك ومؤتة، وان رؤساء هذه الجامعات لم يألوا جهداً في توفير كل أسباب النجاح لهذه الندوة. وان عرفاننا بفضلهم لا يعدله الا شكرنا لتلك النخبة الطيبة من العاملين في لجنة بلاد الشام الذين أخذوا على عاتقهم بكل دأب واخلاص أن تعقد هذه الندوة وأن يعدوا لالتئام الندوات القادمة.

والشكر أولا وأخيرا لجلالة الملك الحسين بن طلال المعظم الذي يحرص، حفظه الله، كل مرة أن يرعى بحضوره الكريم أعمال مؤتمراتنا وندواتنا.

أما فضل صاحب السمو الملكي الأمير الحسن بن طلال ولي العهد المعظم ورئيس مؤتمر بلاد الشام فيعرفه كل العاملين في جامعاتنا الأردنية، و يدركه كل من شارك في المؤتمرات السابقة.

وخير ما أقوله لكل من عمل وساهم في الاعداد والتنفيذ، ولكافة العلماء الأجلاء المشاركين، قوله تعالى «ونعم أجر العاملين».

صدق الله العظيم

مقرر لجنة المتابعة والندوات
لتاريخ بلاد الشام
الدكتور محمد عدنان البخيت

المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام

★ ★ ★ ★

رئيس المؤتمر : سمو ولي العهد الأمير الحسن بن طلال المعظم

لجنة تاريخ بلاد الشام

★ ★ ★

١ ـ الأستاذ الدكتور عبد العزيز الدوري	الجامعة الأردنية ـ مقرراً.
٢ ـ الأستاذ الدكتور محمد عدنان البخيت	الجامعة الأردنية ـ مقرر لجنة متابعة المؤتمرات والندوات.
٣ ـ الأستاذ الدكتور علي محافظة	جامعة مؤتة ـ مقرر لجنة التحرير والنشر.
٤ ـ الدكتور كامل العسلي	الجامعة الأردنية ـ مقرر لجنة الوثائق والمخطوطات.
٥ ـ الدكتور عدنان الحديدي	المدير العام للآثار.
٦ ـ الأمين العام	الجامعة الأردنية.
٧ ـ الأستاذ الدكتور عبد الكريم خليفه	الجامعة الأردنية.
٨ ـ الأستاذ الدكتور محمود الغول	جامعة اليرموك.
٩ ـ الأستاذ الدكتور يوسف بكار	جامعة اليرموك.
١٠ ـ الدكتور معاوية ابراهيم	جامعة اليرموك.
١١ ـ **الدكتور محمد خير ياسين**	الجامعة الأردنية.
١٢ ـ الدكتور علي الزغل	جامعة اليرموك.
١٣ ـ مدير العلاقات العامة	الجامعة الأردنية.

برنامج الندوة

السبت ١٥ تشرين أول ١٩٨٣

الفترة الصباحية

٩٫٠٠ الافتتاح تحت رعاية صاحب الجلالة الملك الحسين بن طلال المعظم

مدرج سمير الرفاعي

٩٫٤٥ تناول الشاي بمعية صاحب الجلالة الملك الحسين المعظم

نادي الجامعة الأردنية

١١٫٠٠ محاضرة للدكتور عرفان شهيد «بلاد الشام في العهد البيزنطي - ملاحظات عامة»

قاعة الندوات - كلية الاقتصاد والعلوم الادارية

٢٫٠٠ تناول طعام الغداء في مطعم الجامعة الأردنية بدعوة من الأستاذ الدكتور عبد السلام المجالي - رئيس الجامعة الأردنية

الفترة المسائية

الجلسة الأولى (٤٫٠٠ - ٧٫٣٠) قاعة الندوات - كلية الاقتصاد والعلوم الادارية.

١ - Dr. R. M. Voigt — «Some Notes on South Safaitic»

٢ - Dr. Herbert Donner — «The Mosaic Map of Madaba and Its Sources - A Main Instrument for Historical and Topographical Research in Byzantine Palestine on Both Sides of the Jordan»

٣ - Dr. Revd. Alan Amos — Syriac Sources for the History of Bilad al-Sham from the Commencement of the Byzantine era up to the Islamic Conquest, with a note on Christian and Jewish Aramaic Sources.

٣ - Dr. D.O. Morgan — «Persian Historiography and Its Relevance to the Study of Syrian History»

الأحـد ١٦ تشرين أول ١٩٨٣

الفترة الصباحية

الجلسة الأولى : (٩ر٠٠ – ١٠ر٠٠) قاعة الندوات – كلية الاقتصاد والعلوم الادارية

١ – الدكتور لطفي عبد الوهاب يحيى	«بعض المصادر البيزنطية لتاريخ بلاد الشام في العصر البيزنطي»
٢ – Dr. V. Christides	«Byzantine Sources of Bilad al Sham. A Critical Evaluation»
٣ – Dr. E. Van Donzel	**«The Dream of Heraclius and Islam in an Ethiopian Source»**
٤ – الدكتور سرجو نو يا	«كشف للمراجع التي تناولت بالبحث الجزيرة العربية في العصر الجاهلي. محاور الاهتمام: الدراسات التي نشرت في الخمسين سنة الأخيرة»

الفترة المسائية

الجلسة الثانية (٤ر٠٠ – ٧ر٣٠) قاعة الندوات – كلية الاقتصاد والعلوم الادارية

١ – الدكتور ابراهيم العدوي	«موقف الامبراطورية البيزنطية من الفتح الاسلامي لبلاد الشام»
٢ – الدكتور نقولا زيادة	«التطور الاداري في بلاد الشام بين بيزنطة والعرب»
٣ – الدكتور عرفان شهيد	«The Jund System in Bilad al Sham: its Origin»
٤ – Dr. Werner Seibt	«Byzantine Administration in Bilad Al-Sham»
٥ – Dr. W. Kaegi, Jr.	«New Perspectives on the Last Decades of the Byzantine Era»

الثلاثاء ١٨ تشرين أول ١٩٨٣

الفترة الصباحية

الجلسة الأولى (٩ر٠٠ – ١٠ر٠٠) قاعة الندوات – كلية الاقتصاد والعلوم الادراية

١ – الدكتور توفيق فهد	الضجاعمـــة
٢ – Dr. Axel Knauf	«The Banu Amr of Umm El-Jimal»
٣ – Dr. MacAdam	«Tribal Names in The Greek Inscriptions from Roman Arabia»
٤ – Dr. Avedis K. Sanjian	«The Armenians in Byzantine Jerusalem»
٥ – Dr. L. I. Conrad	«The Plague in Bilad Al-Sham In Pre-Islamic Times»
٦ – Dr. Speros Vryonis	«Aspects of Byzantine Society in Syro-Palestine: Transformations in the Late Fourth and Fifth Century»

الفترة المسائية

الجلسة الثانية (٤ر٠٠ – ٧ر٣٠) قاعة الندوات – كلية الاقتصاد والعلوم الادارية

١ – Dr. Hugh Kennedy	«The Towns of Bilad al-Sham at the Times of the Arab Conquest»
٢ – Dr. G. Tate	«Les Campagnes du Nord de la Syrie 4 - 7 Siecles»
٣ – Dr. F. Villeneuve	«Contribution De LArcheologie A LHistoire Economique El Sociale Des Villages Du Hawran (IVéme - VIIeme Siecles AP. J.- C.)»
٤ – الدكتور يوسف درويش غوانمه	«أيلة العقبة» أهميتها الاقتصادية وعلاقاتها مع الجنوب العربي»
٥ – الدكتور نعيم فرح	«النشاط التجاري والصناعي وغيرها في العهد البيزنطي ضمن اطار التجارة العالمية والصراع الدولي من أجل السيطرة على الخطوط التجارية»

الأربعاء ١٩ تشرين اول ١٩٨٣

الفترة الصباحية

الجلسة الأولى (٠٠ر٩ ـ ٠٠ر١٠) — قاعة الندوات ـ كلية الاقتصاد والعلوم الادارية

١ ـ الدكتور جورج عطية — «أثر السريانية في الحياة الفكرية والعلمية في بلاد الشام»

٢ ـ الدكتور يوسف حبي — «دور المراكز السريانية الفكري والعلمي في القرون ٣ ـ ٧ ميلادي»

٣ ـ الدكتور سامي خلف الحمارنة — «Memorial Honoring the Two Arabian Partons of Medicine and Pharmacy»

٤ ـ Dr. E. Will — «La fin de lart antique dans la zone du future Bilad al Sham»

الفترة المسائية

الجلسة الثانية (٠٠ر٤ ـ ٣٠ر٧)

١ ـ Prof. Peter Parr — «The Last Days of Petra»

٢ ـ الدكتور نبيل الخيري — «Some Archaeological Aspects of the Byzantine Period from the 1981 Petra Excavations»

٣ ـ الدكتور فوزي زيادين — «قصر عمره الأموي والفن البيزنطي في الأردن)

٤ ـ Dr. Antonio Almagro — «A Byzantine Building with a Floor Plan in the Form of a Greek Gross in the Citadel of Amman»

٥ ـ Dr. John Wilkinson — «Column Capitals in the Islamic Museum al Quds al Sharif»

المشاركون في الندوة الأولى للمؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام

* * * *

بلاد الشام في العهد البيزنطي

* * * *

١ ـ الدكتور ابراهيم أحمد عدوي ـ جامعة القاهرة/جمهورية مصر العربية
٢ ـ الدكتور احسان عباس ـ الجامعة الأمريكية بيروت/ الجمهورية اللبنانية
٣ ـ الدكتور توفيق فهد ـ معهد الدراسات العربية والاسلامية جامعة ستراسبورغ/فرنسا
٤ ـ الدكتور جورج عطيه ـ مكتبة الكونجرس ـ واشنطن الولايات المتحدة الأمريكية
٥ ـ الدكتور سامي حمارنة ـ Smithsonian Institute واشنطن ـ الولايات المتحدة الأمريكية
٦ ـ الدكتور عرفان شهيد ـ جامعة جورج تاون ـ واشنطن الولايات المتحدة الأمريكية
٧ ـ الدكتور فوزي زيادين ـ دائرة الآثار ـ وزارة السياحة والآثار عمان ـ المملكة الأردنية الهاشمية
٨ ـ الدكتور كمال الصليبي ـ الجامعة الأمريكية بيروت ـ الجمهورية اللبنانية
٩ ـ الدكتور لطفي عبدالوهاب يحيى ـ جامعة الاسكندرية جمهورية مصر العربية
١٠ ـ الدكتور نبيل الخيري ـ الجامعة الأردنية ـ عمان المملكة الأردنية الهاشمية
١١ ـ الدكتور نعيم فرح ـ جامعة دمشق ـ دمشق الجمهورية العربية السورية
١٢ ـ الدكتور نقولا زياده ـ بيـــروت/الجمهورية اللبنانية
١٣ ـ الدكتور يوسف حبي ـ المجمع العلمي العراقي الجمهورية العراقية
١٤ ـ الدكتور يوسف درويش غوانمه ـ جامعة اليرموك ـ اربد المملكة الأردنية الهاشمية
١٥ ـ الدكتورة وداد القاضي ـ الجامعة الأمريكية ـ بيروت الجمهورية اللبنانية
16 - Dr. Francois Villenuve ـ المعهد الفرنسي للآثار عمان ـ المملكة الأردنية الهاشمية
17 - Dr. George Tate ـ المعهد الفرنسي للدراسات الأثرية بيروت ـ الجمهورية اللبنانية

18 - Dr. Harbert Donner	—	Deutscher Verein Zur Erforschung Palüstinas W. Germany
19 - Dr. Henry MacAdam	—	الجامعة الأمريكية - بيروت الجمهورية اللبنانية
20 - Dr. Hugh Kennedy	—	University of Andrews England
21 - Dr. I.U. Musa	—	Ahmad Bello University Nigeria
22 - Revd. Dr. John Wilknson	—	المدرسة البريطانية للآثار القدس ــ المملكة الأردنية الهاشمية
23 - Revd. Dr. Alan Amos	—	Western House Jesuslane Cambridge - England
24 - Dr. Antonio Almagro	—	Madrid - ESPANA
25 - Dr. Avedis K. Sanjian	—	University of California Los Angeles - U.S.A.
26 - Dr. D. A. Morgan	—	University of London England
27 - Dr. E. Van Donzel	—	The Netherlands Institute for the Near East - Leiden Nederland
28 - Dr. Drnest Will	—	Universite de Paris Sorbonne - Paris France
29 - Dr. Ernest A. Knouf	—	المعهد الألماني للآثار عمان ــ المملكة الأردنية الهاشمية
30 - Dr. Laurence I. Conrad	—	الجامعة الأمريكية بيروت الجمهورية اللبنانية
31 - Revd. Dr. Michel Piccirillo	—	المدرسة البريطانية للآثار القدس ـ المملكة الأردنية الهاشمية
32 - Dr. Peter J. Parr	—	University of London England
33 - Dr. Rainer M. Voigt	—	Universitäf Tübingen W. Germany

34 - Dr. Serjo Noja	—	Universita Cattolica del Sacro Cuore - Milano Italy
35 - Dr. Spero Vryonis	—	University of California Los Angeles - U.S.A
36 - Dr. Vassilios Christides	—	University of Athens Greece
37 - Dr. Walter E. Kaegi	—	University of Chicago Illinois - U.S.A
38 - Dr. Werner Seibt	—	Institut fur Byzantinistik und Neograzistik Der Universitat Wien Austria
39 - Dr. Wilfrid Lockwood	—	ChesterBeatty Library Dublin - Irland

المحتويـــات

رقم الايداع لدى
مديرية المكتبات والوثائق الوطنية
١٩٨٧/١/ ٨